# قطاف من ثمار الأدب الأموي

الدكتور
**شفيق عبد الرازق أبو سعدة**
أستاذ الأدب والنقد
بكلية اللغة العربية بالقاهرة
جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، والمأثور بوحى الله وكتابه ، والمميز بالفصاحة وسحر البيان ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعــد : :

فان شعرنا العربى الضارب بأطنابه فى أغوار الزمن الحافــــل بالكنوز والنفائس ، وزاخر بالدرر والجواهر ، تتطلع دائما الــى من ينقب عنها ويجلوها ، ويعرضها فى معرض كريم ، مشرقة الجبين وضاءة المحيا ، نابضة بالحس والوجدان الانسانى ، اللذين اتسمت بهمـــا على امتداد هذه الحقب والقرون المتطاولة .

ومن أجل هذه الغاية الرامية الى الكشف عن جواهر الأدب ونفائسه ، وايجاد الصلة بين الشعر والنفس ، كانت هذه الدراســـة التى قامت على نماذج فنية من أدب العصر الأموى ، تميط اللثام عن بعض المناحى والاتجاهات الأدبية فى هذا العصر الذى حظـــى الأدب فيه بدرجة عالية من الجودة والعمق ، عن طريق التحليل فى ضوء المنهج الأدبى الفنى .

تنقب هذه الدراسة عن مناهج القصائد التى تناولتها ، ومذاهبها وخصائصها الفنية ، ومدى ما فيها من تأثر وتأثير ، وتوضح صلتهـــا بحياة قائليها ، والعوامل النفسية أو السياسية أو الاجتماعية التى كان لها أثر بارز فى توجيه أفكارهم ، وبعث التجارب الشعوريـــة فى

صدورهم ، والأحداث التى انفعلت بها مشاعرهم وعواطفهم ، وتبرز النواحى الفنية فى شعرهم ، وما اهتدوا اليه من ابتكارات وصور وأخيلة وتجلو الفكرة التى يقع عليها شاعران ، وجدير بالذكر أن هذه المنهجية التحليلية لم تقتصر على الشعر فحسب ، وانما ألقت بظلالها على النثر الأدبى أيضا رغبة — الى جانب ما تقدم — فى تكوين الملكات وصقلها ، وتهذيب الذوق الأدبى وترقيته .

لهذا اخترت لهذه الدراسة آثاراً أدبية حافلة بكثير من القيم الفنية والانسانية والحضارية ، تفصح عن جوهر مبدعيها ونظراتهم الى الحياة .

وانطلاقا من انه ينبغى على دارس الأدب بعامة والشعر بخاصة أن يرعى حظه من الذوق والشفافية بالقدر الذى يرعى به حظه من العلم والمعرفة جاءت هذه الدراسة على هذا النحو ، لأنه اذا كان الأدب الانشائى الصادر عن منتجيه نتيجة شعور وجدانى والمصور لنحى من مناحى الحياة الانسانية ، والهادف الى الجمال الفنى لذاته اذا كان هذا الأدب فنا وذوقا كله ، فان الأدب الوصفى الذى يتناوله بالنقد والتحليل والشرح والتعليل والتاريخ ، مزاج من العلم والفن ، أو من البحث والذوق .

وان الاقتصار على دراسة النص الأدبى فى ضوء اللغة بعيدا عن هذه الاتجاهات لا تفصح فى كثير من الأحيان عما يرنو اليه الشاعر فقد يفوت على الدارس الكثير اذا اكتفى بنقل معانى ألفاظ البيت

من المعجم اللغوى . فالشاعر انما يلون الاشياء بعاطفته ، ويصبغها بمشاعره .

ولعلى اخترت نماذج هذه الدراسة من أدب العصر الأموى الذى كان يحطب فى حبال الجاهلية ، ويخطب ود أدبها ،ويدعمه الفكر الانسانى والحضارى ، فالمطلع عليه يرى نفسه أمام ثروة مشرقة من آدابنا العربية الخالدة ، تضرب جذورها فى أعماق الجاهلية ، وتغذيها روافد حضارية .

واذا كان الأدب الجاهلى قد حوى من لطائف الابتداع ودقائق الاختراع أبكارا حسانا ، يقطر منها ماء الملاحة وتنبض بالحياة ، فان الأدب الأموى حافل بالقيم الفنية والانسانية والحضارية يصور العواطف المتأججة ، والحب العميق ، والأحاسيس الجياشة والعقيدة الراسخة ، والظواهر الفنية المتألقة .

وهذا البحث أثر من آثار أدباء العصر العماليق ، وغصن من دوحتهم الظليلة ، وجدول من معينهم الفياض ، فابداء الفضل الى ذويه من الفضل ، والاقرار بالجميل كفاء الواجب .

ولعل فى صفحاته ما يكشف عما اليه هدفت ، ويبين عما اليه سعيت ، ويعطى القوس باريها ، فلقد حاولت ذلك وجهدت ،وأرجو أن أكون قد وفقت .

ولست أزعم انى بلغت الغاية ، أو جاوزت الحافة ، فما

البحث الا عجالة لهفان ، وبلالة ظمآن ، وحسبى انى ســرت علــى الدرب ، وتقصيت الجوانب الفنية ، وتتبعت أبعادها .

والأمل أن يكــون البحث حلقــة مثمــرة فى سلسلة الدراسات الأدبية التحليلية .

وعلى الله قصد السبيل !!

د / شفيق عبد الرازق أبو سعده

القاهرة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

## دراسة النصوص الأدبية
## بين
## المنهج والغاية

يذوب الأديب ويحترق ليبتكر ويبدع ، وينسج حللا زاهية ، ويصوغ عقودا رائعة ، استجابة لملكته التى تتوقد بين جوانحه ، ورغبة فى امتاع الآخرين ، فيسعد .. وليس ما ينتجه الأديب مجرد كلام بليغ تهزنا أريحيته ، وتحرك مشاعرنا فنيته وانما هو — الى جانب هذا — صورة واضحة لحياة أمة يعيش بين أحضانها ، ومن ثم فللبيئة حظ وافر فى ميلاد الأدب ، الى جانب حظ الأديب الأوفر ، لأنها بكل ما فيها من أحوال ينفعل بها الأديب ، ويتأثر ، فتظهر معالم حياة بيئته فى نتاجه ، وتلون أدبه ، وان لم يقصد الى ذلك قصدا ، وما ذلك الا لأنه ابن بيئته ، وجزء لا يتجزأ من مجتمعه .

وقد كان لزاما على دارس الأدب لذلك أن يلم — ولو الماما مقتضبا — بعوامل التأثير فى النتاج الأدبى — ثقافية كانت أم سياسية أم اجتماعية — فى العصر الذى يدرس أدبه ، فان ذلك أدعى للتجاوب الوجدانى ، وتعمق الفهم ، حين يتمثل الدارس حياة من يدرس له ، ويستحضر عصره .

وهذا الجانب الحيوى يتطلب من الدارس ثقافة عامة ، وهو

يعتبر مقدمة الى الدراسة الأدبية بالصورة الواقعية .

ولا غرو ! فالغرض من دراسة النص الأدبي ، أن يتذوق الدارس ما فيه من جمال المعنى ، وجلال الفكر ، ودقة الأخيلة ، وروعة الأساليب ، وأن يقف مليا يرجع البصر ، الى ما وراء المعنى والفكر ، وما خلف الأخيلة والأساليب ، وما يتوهج أو يومض بين السطور ، من منهجية الأديب التي يصدر عنها ، أو الحالة النفسية التي توشي هذه المنهجية ، أو الصورة البيئية الخاصة والعامة .

وحينئذ ينبغي أن ننبه على أن دراسة النصوص الأدبية وتذوقها تحتاج من الدارس أن يستعين بوسائل ، هو في حاجة ماسة اليها ليصل الى ما يصبو اليه ، وتتمثل هذه الوسائل في :

أولا : التهيئة النفسية :

اذ ينبغي على دارس الأدب — لكي يظفر بضالته — أن يهيئ نفسه ، ويعدها للتأمل في النص الأدبي ، من كل جوانبه ، والاستنباط والاستنتاج ، وهذا الغوص يحتاج الى الروية والتؤدة وامعان النظر ، وهذا لا يتوفر الا بالتهيؤ النفسي ، وهذه الأشياء لازمة من لوازمه فالعجلة واللمحة الخاطفة لا تجديان في دراسة الأدب .

والذين يتناولون الأدب على هذه الشاكلة من العجلة ، انما يضيعون جهدهم ووقتهم ، "وما يخدعون الا أنفسهم وهم لا يشعرون " .

فكم من مار بروضة لا ينشق عبيرها أو شذاها ، ولا يناجي

ورودها أو ندا ها ، وكم من راءٍ رياضا مختلفة التنسيق ، متفاوتة فى الحسن والبهجة ، يستوى لديه منظر هذه وتلك ، ينتقل من روضة الى أخرى ، فما يحس فرقا ، ولا يهتدى الى ما يميز احدى الروضتين ، فقد انتهت به سذاجة المشاهدة الى اطلاق الحكم بجمال كل الرياض ، اذ كان نظره نظر العابر ، ومثله لا يتذوق ، فان كنوز الادب لا يدركها الا من صبر عليها ، وتروى لها ، وان جوهر النص الادبى لا يستشفه الا من ألقى فى نفسه الاناة ، ونزع منها العجلة ، ثم أعد نفسه ووقته للتأمل والتدبر والاستنباط والاستنتاج ، فمن يخطب الحسناء لم يغلها المهر ، والا فلن يتذوق جمالا ، أو يقع منه على جوهر ، فالمنبتّ لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى .

وتقتضى التهيئة النفسية كذلك أن يكون الاقبال على دراسة النص الادبى مصحوبا بالارتياح والبهجة ، كالاقبال على الامل المنشود ، فذلك يكون بمثابة الضوء الذى يجلو جوانب النص ، وينير مسالكه ، ويقوى الآصرة بينه وبين الدارس ، وما أهون الدراسة الادبية ، وما أضيع الوقت الذى يبذل فيها ، ان كانت الغاية منها مجرد أمثلة تملأ فراغا فى كتاب ، تفتقد الروح ، وينأى عنها الحب ، ويعوزها الذوق ..

ان محاولة ايجاد الصلة المبتوتة بين الابداع والمعرفة ، والقراءة القلبية للتشكيل الشعرى ، والتحول بهذه القراءة الى لغة عقلية ، تستهدف المعنى الاعمق والاشمل للعمل الابداعى ، كل ذلك يستلزم التهيؤ النفسى ، والتأنى ، ومد البصر ، وعمق الفكر ، والارتياح والبهجة ..

ثانيا : التعرف على المناسبة والغرض :

ما برح الشاعر المعبر الدقيق عن تجاريب الانسانية العميقة في صوره الفنية ، التي تبرز براعته وخصوصيته ، وكيف لا !! وهو المفصح عن طريق ادراكه الحسي وشعوره عن حقائق الانسانية . التي يستمد منها تجاربه الخصبة ؟!!

والمناسبة التي تؤجج أوار النص الأدبي ، مباشرة وغير مباشرة .. فالمباشرة كالتهنئة بفتح ، أو اطلالة عيد ، أو ادراك أمل ، أو قدوم من سفر ، أو ما الى ذلك مما له وجود فعلي في الواقع الخارجي .

وغير المباشر ، والتي لا تعدو مجرد الخواطر الشعرية ، والسرحة الخيالية للشاعر ، والسبحة الانفعالية للأديب ، اذ أن انفعال الشاعر بخياله ينوب مناب الحقيقة ، على أن المناسبة المباشرة غيض من فيض بالنسبة لغير المباشرة ..

ولا يخفى أن المناسبتين محتملتا الوجود في الشعر والمقالة والرسالة والقصة ، والخطبة المنسقة المحبرة المميزة ، أما المرتجلة فالمناسبة فيها الانفعال الملهم ..

وتجدر الاشارة الى : أن المناسبة غير المباشرة انما تتولد وتنبعث في الوجود الداخلي للشاعر أو الأديب ، فالشاعر الذي يشعر بما لا يشعر به غيره هو في كل العصور والجنسيات ، الانسان الذي تمنحه قواه الداخلية المتميزة القدرة على ابداع المعاني الجمالية ، المتسمة

بالتجدد والتألق ، والتى تدعو الأناسى فى العصور المختلفة الى التفاعل معها ، والابتهاج بها ، ففى الشعر الذى هو فيض من الهام وقبس من نور ، تغدو الرؤية الخارجية المادية رؤية داخلية روحية ، ولا غضاضة !! فالشاعر لا تعوقه الحدود ، ولا تعجزه عن التحليق السدود !! ومن هنا تكمن صعوبة مهمة الناقد ..

كذلك ينبغى أن يعنى دارس النص الشعرى بالافصاح عن الغرض الذى قيل فيه ، وبدهى أن النص الشعرى قد يكون مقتطعا من قصيدة طويلة ، وفى هذه الحالة يكون الغرض الذى قيل فيه النص هو ما يقع فى الأبيات المقتطعة ، بغض النظر عما سواها ، فلو أنك اخترت أبيات الشكوى التى وردت فى صدر مدحية " جرير " الحائية لعبد الملك بن مروان ، ولم تتعرض بالدرس لبقية القصيدة لكان من الحتم عنونة هذه الأبيات وحدها بالشكوى ، ولا سبيل الى القول : ان الغرض الذى قيل فيه النص الجزئى هو المدح .. بيد أننا ان قررنا التقسيم فى القصائد الطوال ذوات الأغراض المتعددة ، سعيا الى الوضوح ، وتجسيم الأفكار ، فاننا لا نحبذ ذلك فى القصائد القصار ، أو اللاتى لم تتعدد فيها الأغراض ، أو المقطوعات لأن التقسيم فى مثل هذه الحالات يؤدى الى تتبع هذه الجزئيات وهذا انما يؤدى — بلا ريب — الى تمزيق النص وهلهلته ، بلا طائل أو جدوى ..

ثالثا : الالمام بالمعنى الاجمالى :

ان من يحاول أن يتذوق كلاما لا يفهم له معنى كان كمن يصب ماء فى اناء لا قعر له ، فمرحلة التذوق والتحليل لا تأتى الا بعد مرحلة الفهم العام للمعنى ، فعلى الدارس اذن أن يحاول فهم المعنى أولا ، ليتأتى له التحليل والتقويم والتذوق والنقد .. فنراه لكى يصل الى هذا الفهم محتاجا الى :

أن يضبط ألفاظ النص التى يوقع اغفال ضبطها فى اضطراب ، قد يكون من آثاره الفهم الخاطىء ، أو المعنى المختل ، وكم فى اللغة من ألفاظ يتغير معناها باختلاف حركات حروفها .

وأن يعى مفردات النص الأدبى ويفهمها — ولو على نحو عام من الفهم — والفهم العام لا يحتاج الا الى فهم المراد من الكلمة فى السياق لا الى تحليلها وتتبع أصلها وما اليهما .. والكلمات أوعية المعانى ..

وأن يفهم معنى النص الاجمالى ، دونما تطرق الى الاشارات الدقيقة .

وحين تتضح لدى الدارس ألفاظ النص الأدبى بمعناه الاجمالى ، يكون قد قطع شوطا وقف به عند أعتاب الدراسة الأدبية ، اذ أن هذا الشوط لا يعدو مرحلة المعنى العلمى ، الذى ينشد فيه الالمام بالمعنى والوقوف على الغرض الذى جىء من أجله الكلام ..

رابعا : الغوص وراء المقصود من النص الأدبى :

يقبل الدارس على النص بعقله وقلبه معا ، أو قل : اقبال الظمآن فى لفح الهجير على ماء قراح سلسبيل ، يستوحى نبراته ، ويناجى عباراته ، ويناغى معانيه ، ويعانق أفكاره وأخيلته ، حين يتصدى لشرح الأفكار التى يشتمل عليها النص ، وذلك لأهمية هذا العنصر وقيمته ، فهو مقياس جلى للقدرة على الفهم ، وهو مجال واسع لتفاوت الكفايات فى التعبير الأدبى الدقيق ، ولا شك أن احساس الدارس بأهمية معالجة نص أدبى حافل بالاشراق ، متوفر على الاحسان ، يجعله أكثر اجتهادا فى انتقاء أسلوب دقيق موزون بما يوزن به النفائس ، فشرح النص الأدبى مرآة مجلوة تعكس جوانب النص كلها ، ومن ثم فأولو الفطر السليمة يربأون به عن أن يكون مجرد محاولة تقريبية ، ويتيهون حين تكون الحلة المنسوجة من الشرح ملائمة تماما للحلة المنسوجة من النص ، فالأسلوب الراقى فى معالجة النص الأدبى يكون بمثابة الثوب الجميل للجسد الجميل ..

ومن براعة الشرح أن يعقد صلة بين الأفكار المتناثرة فى النص ، فيضم شتاتها ، ويؤلف بين ما تباعد منها ، ويجتذب ما تناثر من جزئيات الغرض ، ويقربها نجيا ، ويبرزها فى نسق متكامل ، حتى تتاح للدارس رؤية المعنى الأعمق والأشمل فى البناء الفنى ، ويلزمه لذلك الاندماج فى ابداع الشاعر ، والغوص داخل تشكيلاته المتنوعة ، ليجمع بين يديه الخيوط المتشابكة ، فما يحقق لدينا — نحن المتلقين —

الرؤية الفعلية لعناصر العمل الشعرى الابداعى ..

وهنا يشرع الدارس فى مناقشة أفكار العمل الأدبى ، فتتجلى مقدرته الفنية ، ودقته الأدبية ، ويتضح أثر العقل ، واكتمال الموهبة ، ونضج الذوق ، رغبة فى الوصول الى سلامة الأحكام ، ودقة المقاييس ..

وتعشو المناقشة الى ضوء : الوضوح أو الغموض .. عمق الأفكار ودقتها أو سذاجتها وسطحيتها .. الابتكار والجدة والطرافة أو الاتباع والمحاكاة والتقليد ..

— بيد أن تمييز الفكرة المبتكرة من الفكرة المقلدة ، أو تمييز الجديد من القديم ، شأو بعيد ، لا ينال [illegible] لأى وجهد شديدين واطلاع واسع ، ودراسة متبحرة ، وثقافة متنوعة — ..

تسلسل الأفكار ، وتآخى جزئياتها ، وأخذ بعضها بحجز بعض ، أو نبوتها وتمزقها وتباعدها .. ذاتية الأفكار أو انسانيتها ..واعتدالها أو غلوها وافراطها .. دلالاتها على منشئها ، أو بيئته ، أو عصره ..

ولا ريب فى أن متلقى العمل الفنى يدرك الصورة جملة ، ثم يصل الى أبعادها ودقائقها بالتأمل والمعايشة ، يقول عبد القاهر الجرجانى : " نعلم أن الجملة أبدا أسبق الى النفوس من التفصيل " (١) .

---

(١) أسرار البلاغة ، تحقيق : أحمد المراغى طبعة ١٩٧٢م ص١٣٨.

## خامسا : التأمل والتحليـــل :

### أ — في ضوء التذوق الأدبي والمنهج البلاغي :

في هذه المرحلة يقف الدارس أمام النص الأدبي ، يتلمس أســراره ومحاسنه ، ويستشف خفاياه وجواهره ، يتأمل كل كلمة أدبية فيه ، مفردة تارة ، ومسندة الى غيرها تارة أخرى ، محاولا ما وسعه أن يتعرف علـى أصلها اللغوي ، وعلى وجه الصلة بين معناها اللغوي والاستعمـــال الذي وضعها الأديب فيه ، فان الأدباء غالبا ما يستعملون الكلمة فـي غير ما وضعت له أصلا ، وهذا ما يجعلها كلمة أدبية ، تكمن فيهـــا مظاهر الجمال الفني ، ولا شك أن نوع الارتباط بين الاستعمالين : اللغوي والأدبي للكلمة يكشف عن جانب حيوي من جوانب جمالهــا الأدبي ، فالايحاء اللفظي يضفي ظلالا وصورا ومشاعر الى الفكرة لا ينهض بمثلها الا الكلام المسهب .

والألفاظ ليست بمثابة واحدة ، من جهة الرقة والعذوبـــة ، والقوة والجزالة والايحاء والغرابة ، وغير هذه وتلك ، وهي — كما يقـول ابن الأثير : " تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر ، فالألفـاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج " (١)

وحري بالدارس أن يعنى بابراز المواءمة بين ألفاظ النص ومعانيه

---

(١) المثل السائر ص ٩٦ .

كما ينبغى عليه حين يتأمل الكلمة مسندة الى غيرها ، أن يتعرف على نوع الاسناد ، من جهة الحقيقة والمجاز ، وأن يفصح عما يصبو اليه الأديب ويقصده حين يكون الاسناد مجازيا ، وأن يتعرف على اللطائف الأدبية التى تأتى من وراء تغيير الكلمة فى الاسناد الى شىء ، أو تحويل صورتها الى صورة أخرى ، من مضارع الى ماض ، أو العكس . أو حذف كلمة ، أو استبدال حرف بآخر ، أو زيادته ، أو غير ذلك مما فاضت به البحوث البلاغية ..

ولا غرو !! أن الدراسة البلاغية فى النص فرصة تشد من أزر ملكة البلاغة التطبيقية عند الدارسين ، لكيلا تكون صلتهم بالبلاغة مجرد قوانين وقواعد . دون أن يتمرسوا بمزاولتها فى أساليبهم الخاصة ، ولعل فى ذلك ما يضيف نماذج بيانية جديدة ، الى التى مجت من طول ترديدها ..

ومن ثم فعناية الدارس تتجه نحو وجوه التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز ، وقيمة التنويع بين الجملتين : الخبرية والانشائية ، ويلاحق الصور الفنية ، ليتعرف عليها من جهة الابتكار أو التقليد ، ومدى صلتها ببيئة الأديب ، ويغزو السير وراء قوافل البديع ، لينوه بما جاء منها عفو الخاطر ، وما تكلفه صاحبه ، وقعد له .

وما ذاك الا سعيا خلف مواكب الجمال الفنى ، اذ أن الجمال صلة بين بواطن الأشياء والنفس البشرية ، وليس بين سطوحها وحواس الانسان ..

ب — من الوجهة النفسية :

تقصر الدراسات التاريخية واللغوية والبلاغية عن النهوض بدراسة النص الأدبى من كل الوجوه والأبعاد ، والذين لا يتعدون هذه المناهج يقصرون ويتقوقعون ، بدليل جريان عبارة " المعنى فى بطن الشاعر " على ألسنتهم ، فهى وان بدت فى ثوب الاعتذار الا أنها تدمغهم وتصمهم بالقصور الثقافى ، والتراخى عن تلمس المعنى ، الذى أفرغه الشاعر فى حروف كلماته ، ولم تستره بطنه ..

ومن ثم تتضح أهمية الاتجاه النفسى فى دراسة الأدب ونقده ، وقيمته فى معترك هذه الدراسة ، الى جانب الدراسات السابقة ، فما فتئ الأدب بعامة والشعر بخاصة وليد النفس الانسانية ، يعبر عما يكتنفها ويحتويها ، من سعادة أو ألم ، وفرح أو ترح ، واطمئنان أو قلق ، وما فتئ الأدب تعبيرا صادقا عن تجربة عاشها الأديب ، ونقلها الينا فى صور وألوان ، لنعيشها — نحن المتلقين — مرة أخرى ، متأثرين بتجربته وعمقها .. وما البناء الفنى المتزمل فى رداء الشعر أو النثر الفنى الا صدى حقيقى ، وانعكاس لانفعالات وجدانية ، وهزات نفسية عاناها الأديب تجاه تجربته ، فالأثر الفنى انما يعبر عن الواقع النفسى وما أوثق العلاقة بين الأدب والنفس ، فكل منهما — كما يقولون — يصنع الآخر ..

على أن علم النفس عندما يطرق باب المبدع أو المتلقى فانما يطرقه للشرح ، والكشف عن سمات العمل الابداعى ، وتفسير رموزه ، والابانة

عن أصالة صوره الفنية وجدتها ، وامتياحها من اللاشعور ، ودلالتها على صدق المبدع ، والشكل الفنى الذى اختاره الأديب ، وتشكيل العبارة ، الذى يعتبر أهم مظاهر الشخصية ، وبذلك يدعو المتلقى الى موقف ايجابى يتخذه بنفسه للحكم ، لاسيما والعمل الفنى يحقق المشاركة الوجدانية بين المتلقى والمبدع [1] .

ولما كانت الصلة بين النفس والأدب وثيقة — ولما كانت الحياة سلسلة من مواقف الصراع ، والأدب هو المعبر عنها ، المصور لها .. ولما كانت العلوم والفنون جميعها نتاج النفس الانسانية .. ولما كان الأدب مصور الشخصية صاحبه فى تفاعلها واضطرابها وانفعالها ..

لما كان هذا كله ثابتا فقد كان الأحرى بنا أن نجمع فى دراساتنا الأدبية بين ذوق الناقد الدارس والاتجاه النفسى الموضوعى .

ان علم النفس وهو يبحث فى أعماق النفس البشرية يواجه كثيرا من القضايا التى شغلت باحثى الأدب ، ولا تزال تشغلهم ، مثل قضية الرمزية * ..

ان هذا الاتجاه يكشف عن جانب من الغموض الذى اكتنف الشاعر

---

(١) انظر : التيارات المعاصرة فى النقد الأدبى . د . بدوى طبانة . مكتبة الانجلو ، و : دراسات فى علم النفس الأدبى . د . حامد عبد القادر . طبعة : لجنة البيان العربى ١٩٤٩م ، و : من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده . د . محمد خلف الله أحمد . طبعة : معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٠م .

منذ طلع على الناس بشعره ، كما أنه عن طريق علم النفس تعرف دلالة العمل الأدبي على نفسية صاحبه ، اذا أننا من خلال أثره الفني نستشف ما كان عليه من أمان أو خوف وحب أو كراهية ورضا أو غضب وأمل أو يأس.. " ان الشاعر اذ يندمج في الأشياء يضفي عليها مشاعره ، وقد قيل : ان الفنان يلون الأشياء بدمه " (١) .

وما العواطف والمشاعر والانفعالات والخيال والأفكار وغيرها التي هي ميدان الأدب الفذ الا ميدان لعلم النفس أيضا ، " فاذا كان الأدب يصور شخصية الأديب فان علم النفس من حيث هو دراسة للعمليات النفسية يعين صفات هذه الشخصية " (٢) .

ان الاقتصار على شرح النص في ضوء اللغة بعيدا عن هذه الاتجاهات لا يفصح في بعض الأحيان عما يرنو اليه الشاعر ، "فيجب أن تعلم ما قعد اليه الشاعر في نفسه قبل أن ينظم بيت الشعر ، حيث لا يفيدنا معنى كلمات ذلك البيت من الشعر اذ نحن اكتفينا بنقل معاني ألفاظ البيت من القاموس (٣) .

والتحليل النفسي يمدنا بشروح للكثير من المعضلات المرتبطة بشخصية الشاعر وفنه وتذوق القصيدة ، على أن الاتجاه التكاملي في النقد الحديث يدعم هذه الحقيقة ، اذ أن محاولة الاحاطة بكل أقطار

---

(١) التفسير النفسي الأدبي ص ٦٥ .
(٢) علم النفس والأدب ص ٢١٨ .
(٣) تاريخ الأدب العربي . د . عمر فروخ جـ ١ ص ٢٩ ط الأولى — بيروت ١٩٦٨ .

العمل الفنى ينبغى أن تتضافر لها كل وسائل المعرفة من : لغويـــة وفنية ونفسية وتاريخية واجتماعية وغيرها ، لتكون الفائدة المرجوة من دراسة الأدب ، فالاتجاهات متصلة متضامنة .

وفى النهاية أنبه الى أن ولوج الطابع العلمى "الاتجاه النفسى" ساحة النقد الأدبى لا يخنق بحال التأثرية المدربة ، على عكس ما فهم البعض (١) ولكنه — أى الناقد — فى حاجة ماسة الى الدقة والبراعة فى الافادة من أصول هذا الاتجاه فى عملية استكشاف وتفسير النصوص الأدبية * .

ج — **فـى مـيزان النقـــد :**

للحديث هنا رافدان هما : التجربة الشعرية والعاطفة ..

التجربة الشــعرية :

لابد فى الحكم على النص الشعرى من التأمل فى التجربة الشعرية

---

(١) من أمثال الدكتور محمد مندور فى الميزان الجديد .

* للمزيد راجع بالاضافة الى المراجع السابقة ، الاتجاه النفسى فى دراسة الأدب ونقده ، وملامحه عند العرب قديما وحديثا . د . شفيق عبد الرازق أبو سعدة .. العدد السابع من حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة ١٩٨٩ . التفسير النفسى للأدب . د . عزالدين اسماعيل . دار المعارف بمصر ١٩٦٣ . شياطين الشعراء .. د . عبد الرزاق حميدة . مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٦م .. علم النفس والأدب د . سامى الدروبى .. دار المعارف بمصر ..

ومن التعرف على ما وصل اليه الشاعر من احسان أو تخلف، والتجربة الشعرية هى الحالة التى تلابس الشاعر ، وتهدى وجدانه الى موضوع من الموضوعات ، من حادث أو مشهد فيعبر عما شهده أو تأمله تعبيرا يرسم مدى القيمة الفنية للشاعر ، ويلائم بين التجربة والصياغة ، والقيمة الفنية انما تنحصر فى درجة التواؤم بين التجربة والصياغة ، أو بمعنى آخر فى اتساق الثوب الشعرى مع التجربة ، وتفصيله على قدها ، فلا يكون طويلا ضفاضا ، ولا قصيرا معريا .

ومن الشعراء من يعمد الى الاطالة والاستطراد حتى تتضارب الخواطر ، ويشيع فى النص التناقض .

وقد كان الشعر القديم يتسم كثير منه بهذا الاستطراد ، بحيث لو حذفت بعض أبياته ما لمست نقصا ، لكن الشعراء المجددين ، وجدوا أنفسهم أمام مقاييس جديدة ، وصار الحكم على فنهم يعتمد على أسس منها هذه التجربة التى تميز بين شاعر وشاعر .

فالتجربة الشعرية الخليقة بالبقاء هى التى تتناول موضوعا عاما ، أو موضوعا انسانيا مع جمال الاداء وجودة الصياغة .

وبمعنى آخر ، ان الشاعر العظيم الباقى هو الذى يتناول حقيقة من حقائق النفس الدائمة ، أو حقيقة من حقائق الوجود الخالدة فى تأدية بارعة محكمة (١) .

---

(١) راجع كتاب الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث لمصطفى عبد اللطيف السحرتى . وكتاب " من عيون الادب " د . محمد كامل الفقى .

العاطفـــة :

ومن مهمة الدارس أيضا أن يعرض لما فى النص من هذه القوة التى ينقلها وهى العاطفة ، والعاطفة أو الانفعال يراد بها نزوع الشاعر أو الأديب الى موضوع أو فكرة أو مشاهدة تؤثر فيه تأثيرا قويا يدفعه الـــى التعبير عن مشاعره والافصاح عما يجرى بخواطره ، فالعاطفة الأدبية هى القوة التى يثيرها الأديب فى نفوس القراء .

والعاطفة متفاوتة فى النصوص ، تفاوتها فى نفوس أصحابها .

وواجب الدارس أن يحكم عليها فى النص من حيث منبعها الـــذى تدفقت منه ، ومن حيث الباعث عليها ومن حيث نوعها ومظهرها .

ولا يخلو نص من لون من هذه العاطفة [1] .

---

(١) قالوا ان مقاييس العاطفة فى :
أ — قوة العاطفة أو صدقها ، ويراد بصدق العاطفة أن تنبعث عن سبب صحيح غير زائف ولا مصطنع حتى تكون عميقة تهب للأديب حياة الخلود .
ب — قوة العاطفة أو روعتها ، وربما كانت قوة العاطفة وروعتهـا من أروع المقاييس فى مجال النقد ، وليس المراد بقوة العاطفة أن تكون حادة ثائرة فربما كانت العاطفة الهادئة الرزينة أشد وأقوى ايحاء لما لها من عمق وأصالة ومن ثم فهى أبقى وأخلد .
جـ — ثبات العاطفة أو استمرارها ، وجلى أن صدق العاطفـــة وقوتها يستوجبان ضمنا ثباتها واستمرارها .
د — نوع العاطفة وسعة مجالها وأعظم الشعراء والأدباء مـــن يقدرون على اثارة العواطف المختلفة المتعددة الألوان فـــى =

فان كانت نابعة من القلب فهي صادقة ، وان كانت من مجرد اللسان فهي كاذبة ، والباعث عليها فردى أو شخصي ، وقومي أو اجتماعي .

والحكم على نوعها باختلاف النص ، فهي في كل غرض بحسبه انها في الفخر مظهر عزة ونشوة ، وفي الهجاء غضب وحقد وموجدة وفي الرثاء حزن وتفجع ، وفي النسيب رقة وفرح ، أو شجو وحزن . وفي المديح اعجاب ، أو نفاق وملق .

وقد تكون ، عبارة النص ذات أخذ ، وليس في النص وحده أمارة تهدى الى الحكم بصدق العاطفة ، أو بكذبها ، ومن ثم يجب على الباحث التروى ، والبحث عن قرينة ترجح صدق العاطفة أو كذبها .

وفي الحق أن صدق العاطفة وكذبها من الدقة واللطف بمكان ، فكم من نصوص تخدع عبارتها ، ويفتن أسلوبها ، ويعيا الباحث عن طريق الحق الذى ينفذ منه الى الحكم الصادق ، وان وجده فبعد لأى وصبر شديد .

د — الموسيقى :

مما يناط بدارس النص الأدبى أن يسمع الى ما فيه من جمال الموسيقى وتناسق النغم ، وليس الشعراء بمثابة واحدة في أنغامهم الشعرية فمنهم من يتضح شدة بالحلاوة الموسيقية ، ومنهم من تتميز أنغامه بالاثارة والانفعال ، ومنهم من تتسم موسيقاه بالقعقعة والرنين

---

= نفوسنا بمزيد من الصدق والقوة .

هـ — سمو العاطفة أو درجتها ، والشعراء والأدباء يتفاوتون في هذه الصفة تفاوتا ملحوظا .

وفيهم من لا تشعر بأية هزة حين تسمع شعره ، والشعر الذى يفقد موسيقاه يفقد أهم مقوماته ، وربما عد نظما لا شعرا ، والشاعر المبدع هو الــــذى يوجد التناسب الموسيقى بين فقرات القصيد جميعها ، ومن الجديــــر بالذكر التنبيه الى أن اتباع الوحدة الموسيقية الكلية ، انما يقصر علــــى القصائد الغنائية أو الوجدانية وعلى القصائد القصار ، أما القصائــــد المطولة فقد يخلو التنوع الموسيقى فيها لأن من شأن ذلك أن يبعدها عن السآمة والملل (١) .

ولكل قصيدة نغمتها الخاصة التى تتفق وحالة الشاعر النفسيــة ، ولكن لما كانت طبيعة بنية القصيدة من الناحية العروضية تقوم على تكرار الوحدة الوزنية المتمثلة فى البيت ، فقد صارت القصيدة كلها نغمة مــن لون واحد ، وصار من الصعب تنويع النغمة داخلها لارتباط الشاعر بالبنية العروضية لها .

وقد أجريت سلسلة طويلة من الدراسات التجريبية فى موضــــوع الأسلوب الشعرى بوساطة تسجيل الصوت تبين فيها أن الشكل الحقيقى لبيت الشعر ليس البحر المعروف ولكنه فى توزيع غير مطرد من النــبرات العادية القوية والضعيفة ، مع وقفات أطول وأقصر ، مع صعود وهبوط فى الشدة الصوتية .

وليس هنالك بحر مخصوص يتحتم على الشاعر أن ينظم فيه ليعبر عن انفعال خاص ، وتتبع جملة من القصائد يدل على أن الشعراء عبروا فــى

---

(١) الشعر المعاصر للسحرتى .

الوزن الواحد عن حالات انفعال مختلفة ، بل لقد عبروا من حالات الحزن والبهجة فى الوزن نفسه [1] .

وبعض الكاتبين يقسم الموسيقى الشعرية الى قسمين : موسيقى خارجية ويحكمها العروض ، وموسيقى داخلية ويحكمها قيم صوتية باطنية ، وهى أرحب من الوزن والنظم المجردين .

وموضوعات الشعر تختلف فيها الموسيقى اختلافا بينا . فالغزل يتطلب موسيقى تختلف عن موسيقى الوطنية وموسيقى الجهاد مثلا ، والاصوات تتفاوت فى قوتها ونغمتها وصفاتها وألوانها وانخفاضها وارتفاعها وكميتها ، فمن الموسيقى ما يمتاز بقوته وجمال تقطيعاته الصوتية ومنها ما يمتاز بالسرعة والسلاسة دون الحلاوة الايقاعية وأفضل موسيقى الشعر ماساير موضوع القصيد ، وخيرها ما تمشى مع الافكار وتساوق مع المعانى وتجاوبت ألوان نغماته ونبراته مع حالات النفس .

فالشاعر فى حال اهتياجه وغضبه وغيظه يكون تعبيره الموسيقى عالى النغمة ، وفى حزنه يكون منخفض النغمة ، وفى تعجبه وفرحه وهدوئه واطمئنانه تكون المسافات الصوتية قصيرة ، أما فى يشه وألمه فتكون مسافات الصوت طويلة ، وهكذا تساير النغمات حالات النفس ، كما تساير موضوع القصيد وفكرته [2] .

والذوق يختلف باختلاف أصحابه ، ولكن الذوق وحده ليس كافيا

---

(١) موسيقى الشعر للدكتور ابراهيم أنيس .
(٢) الشعر المعاصر .

فى التمييز بين هذه الألوان ، ويجب أن يضاف اليه كل ما يقرره النقـــاد من مقاييس .

هذا وقد أدرك الشعراء المعاصرون أهمية التشكيل الموسيقـــى للقصيدة من حيث أثره القوى فى تقديم صورة صادقة ، ومؤثرة لوجداناتهم المختلفة ، فحاولوا أن يخرجوا من اطار الشكل القديم للقصيدة الى شكـل جديد تكون الموسيقية للقصيدة خاضعة خضوعا مباشرا للحالة النفسيـــة أو الشعورية التى يصدر عنها الشاعر . وبهذا تصبح القصيدة صورة موسيقيـة متكاملة تتلاقى فيها الأنغام وتفترق محدثة نوعا من الايقاع الكلى الـــذى يترك فى نفس المتلقى أثره .

وملاحظة النغمة العامة للأسلوب ، والتيار الصوتى الذى يجب أن يطرد فى غير قسوة ولا ملل ، غاية لابد أن يتوخاها الأديب .

والأدب بأنواعه قائم على هذا النغم الذي يحقق الجمال والأخذ باللب غير أنه فى الشعر أقوى وأوضح منه فى النثر ، وهو فى الشعر الوجدانـــى أكثر لزوما وأشد ارتباطا .

قد يقول : ان الوزن والقافية صاحبا الأثر فى موسيقى الشعر ، فما الذى جلب الموسيقى للنثر ؟

قلنا أن الموسيقى في النثر تنبعث من خلوه من الكلمات المتنافرة الحروف ونقائه من العبارات والكلمات والجمل التي تؤدي إلى تنافر ما .

والتنويع فى النغم يزيده قبولا .

وقصر الفقر والمزاوجة كذلك من الأسباب التى تزيد فى موسيقى النثر .

والتكرار قد يساعد على اضفاء الموسيقى في النثر .

ويلاحظ أن الموسيقى متفاوتة بتفاوت الغرض الأدبي ، فهي صاخبة في الفخر والحماسة هادئة رقيقة في الغزل ، حزينة في الرثاء والشكوى .

ولا نظن أن في اختيار بحر من بحور الشعر ، في غرض من الأغراض ما يمنع من استعماله في غرض آخر .

فالطويل مثلا ، استعمل في النسيب والفخر ، والهجاء ، والرثاء وغيرها .

وآخر ما أنبه اليه أن مقاييس الموسيقى غير منضبطة ، لانها تعتمد على الذوق ، والذوق مختلف ، والناس فيما يعشقون مذاهب .

ان الوقوف على هذه التأملات وما اليها يكسب التعبير الأدبي فيضا من الاشعاعات الأدبية ، وجمالا ورواء ، ولا يعرف هذه القيمة الا من تأنى وتروى ، أما العابر العجل فان هذه الأساليب التي يكمن فيها الجمال الأدبي تبدو لناظره يسيرة هينة ، ومثله حين لا يراعيها انما يسف بالأدب ويقبحه . ومن هنا يبدو لدى الدارس التذوق والتأمل ، والقدرة على التحليل والاستنباط ، وتتبلور شخصيته الفنية وتتميز .

وفي النهاية يجب على دارس الأدب أن يرعى حظه من الذوق والشفافية بالقدر الذي يرعى به حظه من العلم والمعرفة .

***

## الأَخْطَلُ التَّغْلبىّ

أحد الثلاثة الأعلام المبرزين فى ساحة الفن الشعرى فى العصر الأُمَوىّ ، فقد أجمع النقاد على أن جريرا والفرزدق والأخطل أشعر أهل العصر ، جعلهم ابن سلام الطبقة الأولى من الشعراء الأمويين ، وهم عند أبى الفرج الأصفهانى فحول الشعر حينئذ وأقطابه الكبرى ، ولكلٍّ واحد منهم طبقة تفضله عن الجماعة ، بيْد أنه لم يقع إجماع على تفضيل أحدهم ؛ ولا غضاضة أن يكونوا فى ذؤابة فن الإبداع الشعرى ، فقد دفعوا إلى التعبير عن طاقات جديدة ، واحتشدوا له احتشادا ، حتى ذاع صيتهم ، وتبلّجت شموسهم ، وكان لهم دورهم وأثرهم فى تشكيل فن النقائض ، الذى ارتبطت به أسماؤهم .

**الشاعر**(*) : هو غياث بن غوث بن الصَّلْت ، من بنى جُشَم ابن بكر أحد الفروع المهمة فى قبيلة تغْلب ، من الأراقم [1] وكُنْيته أبو مالك ، ولقبه الذى غلب عليه « الأخطل » وقد لقّبه به كعب بن جُعَيْل أحد شعراء عشيرته ، . لما رأى فيه من شر ، لكثرة وقوعه فى أعراض الناس . وتغلب - قبيلة الشاعر - كبيرة منيعة ، جمرة القبائل العربية ، منازلها فى الجزيرة الفُراتية - بين دجلة والفرات - تتطاول حتى

---

★ - فاضت بترجمته وأخباره كثير من المصادر والمراجع ، منها : طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، البيان والتبيين للجاحظ ، الشعر والشعراء لابن قتيبة ، الأغانى للأصفهانى، المؤتَلَف والمختَلَف للآمدى ، الموشّح للمرزبانى ، جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى ، المزهر للسيوطى ، معاهد التنصيص للعباسى ، خزانة الأدب للبغدادى ، دائرة المعارف الإسلامية ، تاريخ الأدب العربى للزيات ، التطور والتجديد فى الشعر الأموى للدكتور شوقى ضيف ، الأدب العربى وتاريخه للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى .

١ - انظر : المؤتلف والمختلف للآمدى ، تحقيق : عبد الستار أحمد فراج ص ٢١ والأراقم : حيّ من تغلب ، منهم الأخطل .

الحيرة جنوبا ، وحدود الشام غربا ، وأذْربيجان شمالا وشرقا ، كان معظمها - في العصر الأموى - على نصرانيته ، فلم يدخل في الإسلام منها إلا طائفة محدودة ، ومع ذلك شهرت سيوفها مع الأمويين واستمرت موالية لهم ، وكانت مناوئة للقَيْسيِّين والكُلَيْبيِّين .

وُلد الأخطل - كما يظهر - في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، في السنة العشرين للهجرة تقريبا ونشأ وعاش نصرانيا ، وتفتحت موهبته الشعرية باكرا ، ودفعه سوء خلقه إلى الهجاء منذ نعومة ظفره ، فهجا زوج أبيه ، واصطدم بكعب بن جُعَيل شاعر تغلب فأوجعه وأخمله ، وما فتئ يتعاطى الشعر - متحليا بفصاحة شعراء قبيلته ، متغنيا بفرسانها - حتى لمع نجمه ، على حداثة سنه ، ومضى يلذع بشعره ويلدغ ؛ حتى إذا ما تغزل عبد الرحمن بن حسان بن ثابت برملة بنت معاوية ، قائلا فيها [1] :

وهْى زهراءُ مثلُ لؤلؤة الغوّاصِ ميزت من جوهر مكنون
وإذا ما نسبْتها لم تجدها
في سَناءٍ من المكارم دون
ثم خاصرْتُها إلى القُبّة الخضراء تمشى في مرْمرٍ مسْنون

غضب يزيد بن معاوية ، واستعدى الشعراء من حوله على هجاء الأنصار فأبوْا ، تحرُّجاً من ذمّ قوم نصروا رسول الله ﷺ وآووه وآزروه ، إلا أن كعب بن جعيل الذى استعصم بإسلامه دلّ يزيد بن معاوية على الشاعر الفاجر الماهر ( الأخطل ) ولعل كعبا كان يرمى إلى إيقاع الأخطل في التهلكة ، ولكنه رفع منزلته عند الأمويين من حيث لم يحتسب ، فطلب يزيد ، ولبى الأخطل ، فهجا الأنصار هجاءً دوّى في العالم الإسلامى ، وكاد يُشفى منه على التهلكة لولا حماية يزيد ، ومن هجائه :

---

١ - انظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٢٦ .

ذهبتْ قــريش بالمكارم والعـــلا

والـلؤم تحت عــمــائم الأنصـــار

فـــذروا المكارم لســتمُ من أهلهــا

وخــذوا مَــســاحِـيَكُم بنى النجّــار

من هذا الموقف أصبح الأخطل شاعر الأمويين ، يعيش فى بلاطهم وظلالهم ، يبالغون فى إيثاره وإكرامه ، ويمعن هو فى الذَوْد عنهم ؛ يُوقِّع على قيثارته هذه النغمات التى تروق البيت الأموى ، ويطرب لها بُناته ، على غرار قوله :

وأنــتمُ أهــلُ بــيــت لا يُــوازنُــهــمْ

بيتٌ ، إذا عُــدّت الأحــســاب والعــدد

ويناضل أعداء الأمويين من زبيريين وقيْسيِّين . ومن على شاكلتهما ممن ناصبوهم العداء ؛ وبهذه المحاماة تشهد رائيته التى أولها :

ألا يـا اسلمى يـا هـندُ هـندَ بنى بكـر

وإن كــان حَــيّــانا عــدًى آخــر الدهر

لقد كان الأخطل لذلك أثيرا مقدّما عند الأمويين ، حتى إن عبد الملك بن مروان لقّبه يوما بشاعر بنى أميّة ، وعاد فلقبه بشاعر العرب .

« وكان للأخطل عند الأمويين مركز سياسى بجانب مركزه الأدبى ؛ إذ كان سفير تغلب عند عبد الملك بن مروان »[١] .

ومن ثَمّ فالأخطل - انطلاقا من يقينه من عُلُوّ كعبه عند الأمويين - كان يمنّ على الأمويين ، ويظهر - غير هيّاب - فضل قومه عليهم ، حتى اختلطت مدائحه فيهم بافتخاره بقومه ، كما فى قوله :

١ - انظر : التطور والتجديد فى الشعر الأموى ، د. شوقى ضيف ص ١٣٥ .

بنى أمية قد ناضلت دونكمو
أبناء قوم هُمو آووا وهم نصروا
وقد نُصرتَ أميرَ المؤمنين بنا
لما أتاك ببطق الغوطة الخبر

ولبزوغ نجمه فى بلاطهم كان يدخل على عبد الملك بغير إذن ، ولحية الأخطل تقطر خمرا .

وبقى الأخطل على ولائه للأمويين حتى قضى نحبه .. بيْد أن مركزه قد تقلص فى أيام الوليد بن عبد الملك الذى زهد فيه ، فكان طبعيًا « أن يتقدمه شعراء آخرون مثل عدىّ بن الرِّقاع العاملى .. وانزوى الأخطل وانزوت معه سفارته لتغلب » (١) وكانت عثْرته فى ممالأة الفرزدق على جرير ، فنصب له جرير ، ومازال يهجوه حتى أخزاه ؛ وقد أدركته منيته على نصرانيته فى سنة خمس وتسعين للهجرة على الأرجح .

**شعره ومكانته الأدبية :**

أكثر شعر الأخطل فى الهجاء والمدح ووصف الخمر ، يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات (٢) :

« أول ما غرزم (★) به الشعر الهجاء ، هجا امرأة أبيه وهو صغير ، وهجا كعب بن جُعيْل شاعر تغلب فأهمله وهو يافع ، وهجا الأنصار ، ... وكان يكثر الهجاء فى حمى الخليفة ، ويهاجم فى حمى تغلب ، ولكن هجاءه كان عفيف اللفظ لا يركب فيه متن الشطط ، ولا يتجاوز القبائل به حدود الخُلُق » وأروع أهاجيه فنيا ومعنويا نقائضه مع جرير .

---

١ - التطور والتجديد ص ١٤٢ .

٢ - تاريخ الأدب العربى ص ١١٠ ، ١١١ .

★ - غرزم : أول عهد الشاعر بصنع الشعر .

وقد قصم جرير ظهر الأخطل حين اشتجرت بينهما المهاجاة ، فقد أوقع الأخطل شؤمه فى الانتصار للفرزدق على جرير ، فقال :

اخسأ إليك كُلَيْبَ إن مجاشعا
وأبا الفوارس نهشلاً أخوان
وإذا وردْتَ الماء كان لدارم
جمّاته وسُهولةُ الأعطان
وإذا قذَفْتَ أباك فى ميزانهم
رَجَحُوا وشال أبوك فى الميزان

فنبذه جرير قائلا :

يا ذا العباءة إن بشْراً قد مضى
ألاّ تجوزَ حكومةُ النَّشْوان
فدعوا الحكومة لستمُ من أهلها
إن الحكومة فى بنى شيبان
قتلوا كُلَيْبكمُ بلقْحة جارهم
يا خُزْرَ تغلب لستُمُ بهجان (*)

واستطار التهاجى بينهما . واشتهرت فى هذا المجال أبيات ، منها قول الأخطل فى قوم جرير :

قوم تناهتْ إليهم كلُّ مُخْزِيَة
وكلّ فاحشةٍ سُبّت بها مُضَرُ

---

★ - بشر : هو بشر بن مروان ، اللقحة : ناقة البسوس . الخُزر : جمع أخزر ، وهو الذى فى عينه ضيق ، وذلك كناية عن اللؤم . الهجان : الخيار .

وأَقْسَم المجدُ حقّاً لا يحالفُهم

حتى يحالفَ بطنَ الراحة الشَّعَرُ

ومن أفحش هجائه قوله فيهم :

قوم إذا اسْتَنْبَحَ الأضيافُ كلبَهمُ

قالوا لأُمِّهمُ : بُولى على النار

فتمنع البوْلَ شحّاً أن تجود به

ولا تجود به إلا بمقدار

ومما اشتهر قول جرير فى قوم الأخطل :

والتغْلبىُّ إذا تنحنحَ للقِرى

حكَّ اسْتَه وتمثَّلَ الأمثالا

ولوا أنَّ تغلب جمَّعت أنسابها

يوم التفاضل لم تزنْ مثقالا

ومن سهام جرير المصْمِية التى فتكت بالأخطل ، ومزقته شرَّ مُمزَّق :

إن الذى حرَم المكارم تغلبا

جعل الخلافة والنبوَّة فينا

مُضَرٌ أبى وأبو الملوك فهل لكم

يا خُزْرَ تغلب من أب كأبينا ؟

وقوله : ( أى جرير ) :

إن النبوَّة والخلافة والهدى

رَغْمٌ لتغلب فى الحياة طويل

خـالفـتُمْ سـبل النبـوة فـاخـضـعـوا

لجـــزا الخليـــفـــة ، والذليـل ذليـل

وجرير مع فلَجه وغلبته يعترف بقوة خصمه « الأخطل » وفحولته ، ويعلل وناءه عنه فى آخر الشوط بكبر السن وخمود الشيخوخة ، قائلاً : « أدركته وله ناب واحد ، ولو أدركته وله نابان لأكلنى » .

وقد جمع أبو تمام نقائض جرير والأخطل (*) .

وإذا استثنينا هجاء الأخطل لامرأة أبيه وكعب بن جعيل ثم هجاءه لجرير رأينا أشهر أهاجيه فى أغراض قومية أو سياسية .

أما مدائح الأخطل فهى فى جملتها مدائح سياسية ، فى بنى أُمَيَة وعمالهم ، وأشهر ممدوحيه : معاوية ويزيد وعبد الملك والوليد والحجاج ابن يوسف ، فهو أموى الهوى . وقصيدة المديح عند الأخطل - وبخاصة إبان سفارته لتغلب عند عبد الملك - يمتزج فيها المديح والفخر والهجاء ، « فهو يمدحه ويتعرض لانتصاراته ، وهو يفخر بقومه ، ويتعرض لما قدموه لعبد الملك ، وهو يهجو أعداءه هجاء مُرّاً » (١) .

**ومن أماديحه فى الأمويين :**

إن يحـملوا عنك فـالأحـلام شـيـمـتـهم

والموت سـاعـة يحـمى منهم الغـضبُ

كـــــأنهـم عـنـد ذاكـم لـيس بـيـنـهـمُ

وبين من حـــاربوا قـــربى ولا نـسب

---

* - ونشرها « الأب أنطون صالحانى اليسوعى » سنة ١٩١٢م ، كما نشر نقائض جرير والفرزدق التى جمعها أبو عبيدة « أنتونى أشلى بيفان » فى ثلاثة أجزاء بين سنتى ١٩٠٥ ، ١٩١٢م .

١ - انظر : التطور والتجديد ص ١٣٦ .

كـــانوا مـــوالى حقٍ يطلبـــون بـه

فـأدركـــوه ومـــا ملّوا ومـــا لعـــبوا

ومنها فى يزيد :

أمَـــا يـزيدُ فـــإنى لستُ ناســـيـــه

حـــتى يُغَـــيِّـبَنى فى الرَّمْس ملحـــود

جـــزاك ربُك عن مُـــسْـــتَـــفْـــرَدٍ وَحِـــدٍ

نفــــاه عن أهلـه جُـــرم وتـشـــريـد

والخمر تحتل جانبا واضحا فى ديوان الأخطل ، إذ كانت إشباعا لحاسّته الفنية ، فقد عُرف بحبه للخمر ومعا قرته لها ؛ أما جرير والفرزدق فلم يخوضا فى هذا الموضوع لإسلامهما ؛ « والذى يتعقب الأخطل فى هذا الموضوع لا يشك فى أنه كان يحاول الإطراف فى الفكرة والصورة ، حتى تروق سامعيه ، ومن طريف قوله فيها :

وكـــأس مـــثـل عين الدّيك صِـــرْفٍ

تُـنْسّى الشـــاربين لـهـــا العـــقـــولا

إذا شــــرب الفـــتى منـهـــا ثلاثا

بغـــيـــر الماء حـــاول أن يطـولا (١)

وليس للأخطل فى الرِّثاء سوى مقطوعة يتيمة قالها فى يزيد بن معاوية ، ولعل طبيعته المرحة كانت تأبى عليه الرثاء . ومن عجب أن الحكمة كانت تجرى - أحيانا - على لسانه ، وقد يأتى الخير من الشر ؛ وها هو ذا يقول :

---

١ - المرجع السابق ص ١٣٧ .

والناس همُّهمُ الحياة ولا أرى

طول الحياة يزيد غير خبال

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد

ذخرا يكون كصالح الأعمال

أما شاعريته : فلم يجحد تألقها شاعر أو تفوقها ناقد ، ولبراعتها وتوهجها كان صاحبها موضع هيبة الشعراء ومحط إكبار النقاد ؛ والإجماع على أنه فى الطبقة الأولى من الشعراء الأمويين ، شبّهه ابن قتيبة بالنابغة الذبيانى (١) وعده أبو زيد القرشيّ فى أصحاب « المُلْحَمات » برائيته ، التى أولها :

تغيّر الرسْمُ من سلمى بأحْفار

وأقْفرت من سليمى دمْنَةُ الدار

وقال فيه أبو عمرو بن العلاء - الناقد الشهير - « لو أدرك الأخطل يوما واحدا من الجاهلية ما فضّلت عليه أحدا .. ولعل أبا عمرو فى قوله هذا كان مأخوذا بأسلوب الأخطل القوى الفصيح ، الذى تغلب عليه وعورة اللفظ وشدة الأسر كالشعر الجاهلى ، بل ربما زادت وعورة ألفاظه فى بعض القصائد على وعورة ألفاظ بعض الشعراء الجاهليين كعمرو ابن كلثوم وعنترة بن شداد . وهو - بلا ريب - أحد الثلاثة السابقين المتقدمين فى العصر الأموى ، ولكل منهم مزيةٌ وميْزَةٌ ، فأما مزية الأخطل وميزته ففى « إجادة المدح ، ونعت الخمر ، وقلة البذاء فى الهجاء ، وسلامة قصائده الطوال من اللغط والسَّقط ، ومردود طبعه على الروية

---

١ - الشعر والشعراء ص ٣٢٥ .

٢ - جهرة أشعار العرب ٣ / ٤٥ .

والتنقيح ، فقد يلبث فى مدحته سنة ، وربما بلغت قصيدته تسعين بيتا فيقتصر منها بعد التهذيب على الثلث ... وكان فخورا بنفسه لا يرى فوقه أحدا إلا الأعشى ، ولذلك كان يجرى على أسلوبه »[1] .

وقد أوقعه اعتداده بنفسه وشاعريته فى مأزق حرج : حين سأله عبد الملك بن مروان عن أشعر الشعراء أمام عامر الشعبى - العالم الناقد - ولم يكن الأخطل قد تعرف عليه بعد ، فقال : أنا يا أمير المؤمنين فغضب الشعبى وسأل الخليفة : من هذا الذى يزعم أنه أشعر الناس ؟ قال : الأخطل ، فالتفت الشعبى إليه قائلا : أشعر منك النابغة الذبيانى الذى يقول :

هذا غـــلام حـــسن وجـــهـــه

مـسـتـقـبل الخـيـر سـريع التـمـام

للحارث الأكبر والحارث الأصغر ، والحارث خير الأنتم

لخـــمـــســة آباؤهم مـــا هم

هم خـيـر من يشـرب صـوب الغـمـام

فلما عرفه الأخطل هابه ، وتضاءل وتراجع وقال : صدق والله ، النابغة أشعر منى ؛ وفى رواية أنه قال : « إن أمير المؤمنين إنما سألنى عن أشعر أهل زمانه ، ولو سألنى عن أشعر أهل الجاهلية لكنت حريا أن أقول كما قلت .

وكان الأخطل - يُجَوِّد شعره ، ويعرضه على النقاد ؛ فيسقط منه الردئ ، ولذلك خلا شعره من الحشو والعيب ، وشهد له بعلو كعبه فى الشعر خصمه « جرير » وأرجع انتصاره عليه فيما اشتجر بينهما من

١ - تاريخ الأدب العربى للزيات ص ١٦٢ .

التهاجى إلى حدة الشباب فيه وخمود الشيخوخة فى الأخطل . يقول جرير :

جـــــاريت مُطلع الرهان بنابه
رَوْقٌ شــبـيـبـتــه ، وعـمـــرُك فــان

ويقول ابن قتيبة عن الأخطل الشاعر ومكانة شعره [1] .

ويُختارُ للأخطل قوله فى سكران :

صــريعُ مــدامٍ يرْفَعُ الشَّــرْبُ رأسَــهُ
ليَــحْـيا وقـد مـاتتْ عِظامٌ ومَـفْـصِلُ

نُهــاديه أحــيــاناً وحــيناً نَجُــرُّه
ومــا كــاد إلاّ بالحُــشــاشَــةِ يَعْــقِلُ

إذا رَفَــعُــوا صَــدْراً تَحَــامَلَ صَــدْرُهُ
وآخَــرُ مِــمَّــا نال منهــا مُــحَــمَّلُ

ويختار له قوله أيضاً :

يا قلَّ خَـيْـرُ الغـوانى كـيْفَ رُغْن بـه
فــشُــرْبُهُ وَشَلٌ فــيــهِنَّ تَصْــرِيدُ

أعْــرَضْنَ من شَــمَطٍ بالرأسِ لاح بـه
فــهنَّ منّى إذا أبْصَــرْنَنى حِــيــدُ

قـد كُنَّ يَعْـهَـدْنَ منّى مَـضْحَكاً حَسَناً
ومَــفْــرِقــاً حَــسَــرَتْ عَنْهُ العَناقِــيدُ

---

١ - راجع الشعر والشعراء ص ٣٢٨ - ٣٣٤ .

فَـهُنَّ يَشْـدُونَ مِنّى بَعْضَ مَـعْـرِفَـةٍ
وهُنَّ بـالـوَصْـلِ لا بُـخْـلٌ ولا جُــودُ
هل الـشَّـبـابُ الَّذى قـد فـات مَـرْدُودُ
أَمْ هَلْ دَوَاءٌ يَـرُدُّ الـشَّـيْـبَ مَـوْجُـودُ
لنْ يَرْجع الشَّـيبُ شُـبَّـاناً ولنْ يَجِـدُوا
عِـدْلَ الـشَّـبَـابِ لَهُمْ مـا أَوْرَقَ العُـودُ

وقولـه :

لَقَـدْ لَبِـسـتَ لهـذا الدَّهْرِ أَعْـصُـرَهُ
حَـتَّى تجَلَّلَ رَأْسِي الشَّيْبُ واشـتَعَـلا
فَـبَـانَ مني شَـبَـابِي بعْـدَ لذَّتِه
كـأنَّـمـا كـان ضَـيْـفـاً نـازِلاً رحَـلا

وقوله في بني أميَّة :

حُـشْـدٌ على الحقِّ عَـيَّـافُـو الخَنَا أُنُفٌ
إذا أَلَمَّتْ بِهِمْ مَكْرُوهَةٌ صَـبَـرُوا
شُـمْسُ العَـدَاوةِ حَـتَّى يُسْـتَـقَـادَ لَهُمْ
وأَعْظَمُ الناسِ أَحْـلامـاً إذا قَـدَرُوا

ويستجاد له قوله :

ولَقَـدْ غَـدَوْتُ على التِّـجـارِ بِمِسْـمَحٍ
هَـرَّتْ عَـوَاذِلُـهُ هَـرِيـرَ الأَكْـلُـب
لَذٍّ يُقَـبِّـلُهُ النَّعِـيـمُ كـأَنَّـمـا
مُـسِـحَـتْ تَرَائِبُـهُ بِمَاءٍ مُـذْهَبِ

يَنْظُرْنَ من خَلَلِ السُّتُورِ إذا بَدَا
نَظَرَ الهِجَانِ إلى الفَنِيقِ المُصْعَبِ
خَضِلِ الكِيَاسِ إذا تَثَنَّى لم يَكُنْ
خُلُفاً مَوَاعِدُه كَبَرْقٍ خُلَّبِ
وإذا تُعُوِّرَتِ الزُّجَاجَةُ لم يَكُنْ
عِنْدَ الشُّرُوبِ بِعَابِسٍ مُتَقَطِّبِ

ومما سبق إليه الأخطل قوله (*) :

وإذا دَعَوْنَكَ عَمَّهُنَّ فإنَّه
نَسَبٌ يَزِيدُكَ عندَهُنَّ خَبَالا

وقال القُطاميُّ :

وإذا دعَوْنَكَ عَمَّهُنَّ فلا تُجِبْ
فَهُنَاكَ لا يَجِدُ الصَّفَاءُ مَكَانا
نَسَبٌ يَزِيدُكَ عِنْدَهُنَّ حَقَارَةً
وعَلَى ذَوَاتِ شَبَابِهِنَّ هَوَانا

ومما سبق إليه الأخطل فأُخذ منه قوله :

تَرِمٍ تُعَلَّقُ أشْنَاقُ الدِّيَاتِ بِه
إذا المِئُونَ أُمِرَّتْ فَوْقَهُ حَمَلا

---

★ - وعندى أن الأخطل مسبوق إلى هذا المعنى بزهير بن أبي سلمى فى قوله من لاميته :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله
وعُرِّى أفراس الصبا ورواحله
وقال العذارى : إنما أنت عمنا
وكان الشباب كالخليط نزايله

لكنّ الأخطل زاد في المعنى ونمّاه وفصّله ، فإذا كان لزهير فضل السبق والاختراع فإن للأخطل فضل الزيادة والنماء والتفصيل .

أخذه الكُمَيْت فقال :

كَـــــــأنَّ الـدِّيـات إذا عُـلِّـقَـتْ

مَـــئُـــوها بـه الشَّـنَق الأسْـــفَلُ

وأشناق الديات أصنافها من الحقاق والجذاع وأشباهها ، وقال الأخطل :

أجَـــريرُ إنَّك والَّذى تَسْـــمُـــو له

كَـأسيفة فخرت بحِدْجِ حِصان

أخذه الطِّرِمَّاح فقال :

كـفَـخْـرِ الإمـاء الرَّائحـات عَـشيَّـةً

برَقْمِ حُــدُوجِ الحَىِّ لمَّـا استَـقَلَّتِ

**مناسبة القصيدة :**

كان لشعر الأخطل السياسى أثره الفعَّال فى الأحداث الجُلَّى التى دارت رحاها بين الأمويين ومُناوئيهم ، فقد كان عاملا مهما فى تثبيت دعائم الدولة الأُموية وإرساء قواعدها ، وإكثار أنصارها ، كما كان صفعة موجعة لأعداء الأمويين ومعارضيهم ؛ ولما كان العراق مصدر قلق للأمويين، حيث اشتدت فيه المعارضة - وهو منذ القدم منتجع الخواطر العربية (*) - وخرج العراق مع الزُّبَيْريين على الأمويين ، كانت الحروب بينهما سجالا، إلى أن كانت المعركة الفاصلة « دَيْر الجاثليق » (**) التى

* - لاذ العرب قبل الإسلام بأطرافه وأريافه ، ولما فتحه الله عليهم فى عهد عمر رضى الله عنه نزحوا إليه ، وأنشأوا على حدود البادية البصرة والكوفة ، وكان فى العراق ميراث وَفر من العلم والأدب خلفته الأمم الغابرة .

** - قرب باخمرى بين واسط والكوفة سنة إحدى وسبعين للهجرة .

ظفر فيها عبد الملك بن مروان - ومعه تغلب - بالعراق ، حيث قتل رأس الزبيريين هناك « مصعب بن الزّبير » وقضى على أنصاره من قيس عَيْلان ؛ فجمع بذلك حوله كلمة العرب . ودخل الأخطل على عبد الملك يهنئه بهذا الانتصار ويمدحه ، ويشيد بقومه وبلائهم فى هذه المعركة ومعاضدة الخليفة ، ويهجو خصومه ، برائعته التى أولها :

خَفَّ القَطِينُ ، فراحوا منك أو بَكَروا
وأَزْعَجَتْهم نوىً فى صَرْفِها غِيَرُ

وقد نجح الأخطل فى قصيدته هذه نجاحا باديا ، حتى ليُروى أن عبد الملك النّشوان بالنصر استخفّه الطرب ، وقال : « ويْحك يا أخطل .. أتُريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب ، فقال الأخطل : أكتفى بقول أمير المؤمنين ، فأمر له بجفْنَة - كانت بين يديه - فمُلئت دراهم ، وأُلْقى عليه خلَعًا ، وخرج به مَوْلىً لعبد الملك على الناس يقول : هذا شاعر أمير المؤمنين ، هذا أشعر العرب » [1] لقد أُعجب عبد الملك بالقصيدة إعجابا شديدا .

ولعل فى هذا الموقف ما يكشف عن مكانة الشاعر عند الخليفة ، وعن الدَّوْر الذى كان يقوم به لديه ، فهو ممثِّل لقبيلة تساند الأمويين ، وكان الأخطل يدرك هذه المكانة ، ولا ريب !! فعهد عبد الملك بُعَدَ أزهى فترات حياة الأخطل ، إذ أدرك فيه ما كان يتمنّى إدراكه من عزّ ومجد ومال .

وبعد : فقد آن لنا أن نهرع إلى رائية الأخطل ، لنغوص فى بحرها بحثا عن دُرَرِها وغررها ومُلَحها وطُرَفها .

---

١ - الأغانى ٨ / ٢٨٧ وما بعدها .

الأبيات المختارة من رائيّة الأخطل في مدح عبد الملك بن مروان :

خَفَّ القَطينُ ، فراحوا منك أو بَكَروا
وأزعجتْهم نوىً في صرْفِها غيَرُ (١)

إلى إمامٍ تُغاديِنا فواضلُه
أظْفَرَه اللهُ ، فلْيَهْنأ له الظَّفَرُ (٢)

الخائضُ الغمْرِ والميمونُ طائرُه
خليفةُ الله يُسْتَسْقَى به المطرُ (٣)

والهمّ بعد نجيّ النفس يبْعثُه
بالحزْم والأصْمعانِ القلْبُ والحذَرُ (٤)

---

**المعاني اللغوية :**

١ - خفّ : ارتحل وأسرع . القطين : القوم الذين يقيمون بالمكان ويستوطنونه ، ومفرده : « القاطن » وفعله « قطن » ويجمع أيضا على « القُطّان والقاطنة » . راحوا : ذهبوا في الرواح أي العشيّ ، ضدّ غدوا . بكروا : ذهبوا في الصباح الباكر ، ومنه البُكور والتبكير . أزعجتهم : أقلقتهم فحملتهم على الرحيل ، نوى هنا : النية والعزم والوجه الذى ينويه المرتحل من قرب أو بعد وقد تكون بمعنى الفرقة والغربة ، صرفها : النوائب والحدثان . غير : من التغيّر ، ومنه « غيرُ الزمان » الأحداث المُغيرة ، قال الكسائى : هو اسم مفرد مذكر وجمعه « أغيار » وقال أبو عمرو بن العلاء : هو جمع غيره .

٢ - تغادينا فواضله : يأتينا إحسانه رغدا . ينهل ولا ينقطع كالسحابة الغادية ، فواضله : عطاياه فليهنأ : فليسعد ويُسر . ويروى : فليهنئ .

٣ - الخائض : بالرفع استئنافا وبالخفض تبعية ، وهو المقتحم وهو اسم فاعل ، يرفع فاعلا وينصب مفعولا . الغمر : الماء الكثير ، والغمرة الشدة ، وغمرات الموت : شدائده ، والرجل الغُمْرُ : الذى لم يجرب الأمور . الميمون : المبارك السعيد الحظ ، وهو اسم مفعول يرفع نائب فاعل يُستسقى به المطر ، إذا استسقى الناس فذكروا اسم الخليفة استجاب الله دعاءهم وسقاهم .

٤ - الهمّ : ما يهمّ بفعله من عظائم الأمور . نجيّ النفس : مناجاتها ، والنجيّ : الذى تساره والجمع الأنجية ، قال الأخفش وقد يكون النجي جماعة كالصديق ، قال الله تعالى : ﴿ خلصوا نجيا ﴾ يبعثه : ضمير المفعول هنا للممدوح . الحزم : ضبط الأمر وأخذه =

والمُسْتَمِرّ به أمْرُ الجميع فما
يَغْتَرُّه بعد توكيد له غَرَرُ [٥]

وما الفراتُ إذا جاشَتْ حَوالِبُه
في حافَتَيْه وفي أوْساطه العُشَرُ [٦]

وزَعْزَعَتْه رياحُ الصَيف واضْطَرَبَتْ
فوْقَ الْجَآجِئ من آذيّه غُدُرُ ... [٧]

يوماً بأجْوَدَ منه حين تَسْألُه
ولا بأجْهَرَ منه حين يُجْتَهَرُ [٨]

• • •

يَغْشَى القناطرَ يَبْنيها ويَهْدِمُها
مُسَوَّمٌ فوقه الراياتُ والقَتَرُ [٩]

حتى يكونَ لهم بالطَّفِّ مَلْحَمَةٌ
وبالثَّوِيَّةَ لم يَنْبِضْ بها وَتَرُ [١٠]

---

= بالثقة ، الأصمع : الذكى الجرئ الدقيق ، والمعنى : أن الممدوح إذا همّ بأمر يدفعه إلى عمله الهمّ . وكذلك الأصمعان القلب والحذر يدفعانه ويبعثانه .

٥ - المستمر به : المنوط به أمر الرعية ، ومن بيقظته ينأى الخطر . يغتره غرر : لا يدهمه الخطر ، فهو لا يؤخذ على غفلة بعد توكيد له اعتراض مفيد .

٦ - الفرات : نهر فى بلاد العراق ، ومثله دجلة . حوالبه : منابع مائه وبواعث أمواجه ، العُشر : نوع من الشجر .

٧ - زعزعته : حركته بشدة ، والجآجئ : جمع جؤجؤ وهو صدر السفينة . والآذى : الموج المتلاطم . وغدر وغدران : جمعا « غدير » وهو القطعة من الماء يغادرها السيل .

٨ - اجتهره : نظر إليه وعظم فى عينيه وراعه جماله ، والجهير : الصوت العالى الذائع .

٩ - يغشى هنا : يجئ . مسوم : معلّم بعلامة يعرف بها . والقتر : الغبار.

١٠- الطف والثوية : موضعان قريبان من الكوفة . والملحمة : الوقعة العظيمة . لم ينبض بها وتر : لم يرم فيها نبلٌ لقرب الجيشين ، فليس بين المتحاربين إلا الطعن والضرب .

وتستبين لأقوامٍ ضلالتُهم
ويستقيمَ الذى فى خده صَعَرُ [١١]

• • •

فى نبعةٍ من قُريش يَعْصبونَ بها
ما إنْ يُوازى بأعلى نَبْتها الشَّجرُ [١٢]

تعْلو الهضابَ ، وحلّوا فى أُرُومتها
أهلُ الرِّباء وأهلُ الفخرِ إنْ فخروا [١٣]

حُشُدٌ على الحقِّ ، عيَّافُو الخنا ، أُنُفٌ
إذا ألمَّتْ بهم مكروهةٌ صبَرُوا [١٤]

وإنْ تدجّتْ على الآفاق مُظْلمةٌ
كان لهم مَخْرَجٌ منها ومُعْتَصَرُ [١٥]

---

١١ - تستبين : تظهر وتتضح وتعرف . والصعر : ميل فى العنق من الكبرياء وهو فى الأصل : داء يصيب الإبل فتلوى منه أعناقها ، ثم انتقل إلى الإنسان إذا تغطرس وتكبر ، قال تعالى : ﴿ ولا تُصعّر خدك للناس ﴾ .

١٢ - النبعة : تعنى هنا : الأصل والمحتد ، والنبع : من أجود الشجر وأصلبه ، تصنع منه القسيّ والسهام . يعصبون بها يلتزمونها ويحيطون بها إحاطة السوار بالمعصم .

١٣ - تعلو الهضاب : أى النبعة ، أرومتها : أصلها الطيب . الرباء : الفضل والمنة والشرف والرفعة .

١٤ - حشد : مجتمعون ، ومنه « حشد من الناس » جماعة ، فهم يحتشدون انتصارا للحق ، ويهرعون للنصفة . عيافو : من عاف الشئ يعافه إذا كرهه وتحاشاه . والخنا : قول السوء وفحش الكلام ، بل والفحش بعامة . أنف : جمع أنوف وهو الأبىّ الحامى . ألمت : نزلت وحلت ، مكروهة : ملمة من مُلمات الدنيا ونوازلها .

٢٥ - تدجت : أظلمت - من الدُّجى - مُظلمة : شدة وبلية ونائبة . معتصر : ملجأ ومعقل وملاذ ، وتعنى : أنهم يساطيعون اجتياز الأزمات .

أعطاهمُ اللهُ جَداً يُنْصَرُونَ به

لا جَدَّ إلا صغيرٌ بعدُ محتَقَرُ (١٦)

لم يأشَرُوا فيه ، إذ كانوا مَوَالِيَهُ

ولو يكونُ لقومٍ غيْرِهِمْ أشِرُوا (١٧)

شُمْسُ العداوةِ حتى يُسْتَقَادَ لهمْ

وأعْظَمُ الناسِ أحْلاماً إذا قَدَرُوا (١٨)

لا يستقلُّ ذَوُو الأضْغانِ حربَهُمُ

ولا يُبَيِّنُ في عِيدانِهِمْ خَوَرُ (١٩)

هُمُ الذين يُبَارُونَ الرِّياحَ إذا

قَلَّ الطَّعامُ على العَافِينَ ، أَوْ قَتَرُوا (٢٠)

• • •

---

١٦ - الجدّ : الحظ والبخت ، والجمع : الجدود . وفى حديث أنس : كان الرجل منا إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا أى : عظم فى أعيننا ، وتقول : جَددتَ يا رجل جداً ، فتعنى العظمة والحظ معا .

١٧ - لم يأشروا : لم يبطروا ويطغوا . مواليه : أولياءه وحلفاءه .

١٨ - شمس : جمع شموس ، أى عسر شديد فى عداوته . ومنه الفرس الشّموس : الجموح التى تمنع ظهرها . يستقاد لهم : يخضع العدو لهم وينقاد . والأحلام : جمع حلم وهو الصبر والأناة والتعقل . قدروا : تمكنوا من العدو ، فالعفو عند المقدرة .

١٩ - لا يستقل : يقال : أقل الجرة أطاق حملها ، ويقال : استقل الشئ عده قليلا ، واستقل القوم مضوا وارتحلوا ، ومن هنا يكون المعنى : لا يطيق الأعداء حربهم ولا ينهضون بها ولا يحتملونها لعدم التكافؤ الأضغان : الأحقاد . جمع الضّغن والضغينة . فى عيدانهم : فى أنفسهم خور : ضعف وفتور .

٢٠ - يبارون : يسابقون فى الإسراع إلى الكرم . العافين : جمع العافى ، الذين يطلبون القوت أو الفضل قتروا : افتقروا وأجدبوا وأمحلوا فضاقت عليهم النفقة .

بنى أُمَيَّةَ قد ناضَلْتُ دُونَكُمُ
أبناءَ قومٍ هُمُ آوَوْا ، وهُمْ نصروا (٢١)

حتى استكانوا وهم منّى على مَضَضٍ
والقولُ يَنْفُذُ ما لا تَنْفُذُ الإِبَرُ (٢٢)

بنى أميةَ إنى ناصحٌ لكمُ
فلا يَبِيتَنَّ فيكم آمناً زُفَرُ ... (٢٣)

إنَّ الضغينة تلْقاها وإنْ قَدُمَتْ
كالعُرِّ يَكْمُنُ حيناً ثُمّ يَنْتَشِرُ (٢٤)

أمّا كُليبُ بنُ يربوعٍ فليس لهم
عند التَّفَارُطِ إيرادٌ ولا صَدَرُ ... (٢٥)

وقد نُصِرْتَ أميرَ المؤمنين بنا
لمّا أتاك ببطنِ الغوطةِ الخَبَرُ (٢٦)

---

٢١ - ناضلت دونكم : نافحت عنكم ودافعت - هم آووا وهم نصروا : يريد الأنصار ، ويمنن بهجانه لهم .

٢٢ - استكانوا : سكنوا وسكتوا . مضض : ألم ووجع . ينفذ : يمضى ويجرى ويؤثر .

٢٣ - زفر : هو زفر بن الحارث الكلابى ، وكان زعيم قيس على تغلب وعلى بنى أمية .

٢٤ - العُر : الجرب ، وهو وإن كمن فى الجسم لابد أن يظهر وينتشر .

٢٥ - كليب بن يربوع : هو قوم جرير ورهطه ، وهم من بنى تميم . التفارط : التقدم فى طلب الماء . الإيراد : بلوغ الماء . والصدر : الانصراف عن الماء .

٢٦ - الغوطة : الكورة التى منها دمشق الفيحاء ، وهى إحدى منازه الدنيا الأربع : ( الصغد والأبلّة وشعب بوان والغوطة ) وكانت دمشق عاصمة بنى أمية ، وكان رهط الأخطل مع الخليفة فى حروبه الداخلية .

وقـد تفـاقـمَ أمْـرٌ غـيْـرُ مُلْتَـئِمٍ
مـا بيْننـا فيـه أرْحـامٌ ولا عِـذَرُ (٢٧)

• • •

**المعنى الأدبي :**

ما فتئ الشعر عروسَ الآداب عند العرب ، وفي عصر بني أمية باتت المكافآت وَقْفا على البراعة والتفوق في الشعر ، ومن ثم فقد حرص شعراء العصر على تجويد أشعارهم ، رغبةً في التأثير والذيوع ، والتماسا للجوائز والصلات ؛ وقد كان للعصبية التي أحياها رجالُ هذه الدولة أثر ذائع في شيوع الشعر من جهة ، وتجويده ، ليُنافس ويُسابق ويؤثر وينتشر من جهة أخرى . واستتبع التعصّب لبني أمية من كلّ مَن ناله خيرهم وشمله برُّهم أن يتعصّب عليهم مَن لم يُصب مثل ذلك منهم ، أو كان له هوى من مناوئيهم ، من شيعة وزُبَيْريِّين وخوارج ، مما أذْكَى جذوة المنافسة والتّباري والعناية بالشعر وتجويده .

ولما كان الأمويون عربا أقحاحا تنتشيهم قوةُ البيان ، ويطربهم السحر الحلال ، كان حتما على الشعراء أن يجوِّدوا ويجيدوا ، ليظفروا بالحقائب البُجْر ، والذيوع وسيرورة الذِّكْر ؛ وقد ظفر الأخطل الأَلْسَنُ البارع عند الأمويين بالمكانة والخطر ، فله فيهم المدائح ، ولهم فيه المنائح .

هذه الرائية إحدى مدائحه فيهم ، طارت شهرتها وطبقت الآفاق في عصر الأخطل وبعد عصر الأخطل ؛ فهي من أهم مدائحه ، وقد خلص فيها بعد المقدمة الطللية الخمرية إلى مدح عبد الملك بن مروان في اتجاه

---

٢٧ - تفاقم : زاد وعظم . أرحام : جمع رحم أي قرابة . عذر : جمع عذرة بمعنى معذرة ، يقال : عذره يعذره - بكسر الذال في المضارع - عذرا ، والاسم : المعذرة . أي : فسد ما بيننا ، وتقطعت الأرحام ، فلا القرابة مُجْدية ولا الأعذار .

سياسى لإثبات أحقيته فى الخلافة وإمامته ، « وهو فى ذلك لا يفترق فى شئ عن شعراء المسلمين حين يمدحون الخليفة » والشاعر هنا « نراه يمدح عبد الملك الخليفة ، ثمَّ يمدح عبد الملك نفسه فى خُلُقه وشخصيته ، ثم يمدح عبد الملك القائد ، ثم يمدح عبد الملك سليل الأسرة الأموية » [1] ويُنوِّه بمآثره فى السِّلم وفى الحرب وفى الكرم .

لقد رسم الشاعر صورة رائعة لعبد الملك ، وأضفى عليه كثيرا من الصفات الطيبة ، فهو الإمام المؤيَّد بالنصر من الله ، والذى اجتمعت عليه القلوب ، والذى عرك الحروب وخبرها ، وحالفه التوفيق والسداد فى تدبير الأمور ، فهو الحازم الواعى الذى لا يؤخذ على غِرَّة ، وهو موضع الخير وموطن اليُمْن ، وهو الذى يُعدّ لكل أمرٍ عُدَّته ، وهو الجواد الذى ما تغبّ فواضله ، وما تنقطع نوافله ، ومن ثمّ فقد اجتمع عليه أمر الناس ، وقوى به شأنهم بيْد أن الشاعر سرعان ما حوّل هذا المدح السياسىّ إلى اتجاه تقليدى، فنراه يجعل كرم الخليفة فوق الفرات، ويرى الفرات دونه .

ثم يربط الشاعر مدح الخليفة بمدح قومه الأمويين ، فهو ينتمى إلى دوحة قرشيَّة ثابتة نضرة ، لا تطاول شجرتها الأصيلة القوية شجرةٌ أخرى، فقد سمت هذه الدوحة سموًا عظيما ، وحُقَّ لبنى أمية الشرف والخير والفضل والفخر ، وكيف لا ؟! وهم الذين يهرعون ويحتشدون لنصرة الحق ، ويترفعون عن السوء قولا وفعلا ، وإذا ما ألمّ بساحتهم مكروه صبروا وتجلدوا حتى ينكشف ، وهم أصحاب رأى وبصر يتغلبون على الشدائد ، فلهم عند كل ضيق مخرج ولدى كل نازلة مَنْفَذ . . وقد كفل الله لهم نعمة النصر ، حتى إن كل حظ غير حظهم ضئيل ، فهم

---

١ - التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ١٣٨ .

يحظَوْن بالخلافة وملكْ الدولة العربية ، ولم تُطْغهم النعمة ، أو يبْطِرْهم الظفر ، لأنهم ألفوه وألفهم ، وإنْ أطْغَى غيرهم حظ أقلّ .

والأمويون إذا خاصموا اشتدوا ، وإذا حاربوا شدوا ، حتى يخضع لهم عدوهم وينقاد ، ليظهر فضلُ حلْمهم في العفو عند المقدرة ؛ وهم أبناء حروب ، لا يُطيق قتالهم ذوو الضغائن ، وطالما جُرِّبَتْ عداوتهم ، وعُجم عودُهم ، فألفاهم أعداؤهم أمرَّ عُوداً وأصْلب مَكْسَرا ؛ وهم أجود من المريح المرسلة إذا ما أمْحَلَ الناس وأجدبوا ، لا يشوب جودهم شيٌ من منٍّ أو أذى .

لقد مدح الأخطل عبد الملك فى أسرته فأسبغ عليها كلَّ ما يعتز به العربى فى أرومته وبيته من قيم وأخلاق وخلال ، وهذه السجايا - فى رأى الشاعر - مؤهلة لقيادة الأمويين الناس والسِيادة عليهم .

وينتهز الشاعر الفرصة ليفخر بنفسه وقومه التغالبة ، وبلائه وإياهم فى الانتصار للأمويين ، ويمنْن بما قدموه لعبد الملك ؛ ويهجو الخصوم السياسيين من أنصار وزبيريين وقيسيين وكليبيين وغيرهم هجاءً مُرًا مقذعا ، ويؤلب الأمويين على قيس عَيْلان أعداء تغلب ، ليخلو له وقومه وجهُ عبد الملك . ففى القصيدة مديح وفخر وهجاء ، إلا أن الفخر والهجاء جاءا فى معرض المدحة السياسية .

ليختم القصيدة بهذا التقرير المفعم - رغما عنه - بالمرارة والألم ، فقد فسدت العلائق بين الناس ، بسبب الإحن والحروب ، وتقطعت الأواصر ، وهيهات هيهات لقرابة أو عذر ! !

وقد يَنْبُتُ المرْعَى على دمَن الثرى
وتبقَى حزازاتُ النفوس كم هيَا (*) ! !

---

★ - البيت لزفر بن الحارث الكلابى .

**بناء القصيدة وعاطفتها :**

بُنيَتْ قصيدة الأخطل على مدح عبد الملك بن مروان والنضال دونه نضالا سياسيا ، انطلاقا من عاطفة إكبار الممدوح والإعجاب به والولاء له، والإقرار بالفضل لبنى أمية ، وبغض أعداء الخليفة ومقت منافسيه ، والإزراء بهم .

لكنَّ البناء الفني للقصيدة قد تشكل من أغراض أخرى : إلى جانب الغرض الأصلى ، بدافع الاحتشاد لمؤازرة الغرض الأساسى ؛ فالشاعر يبدأ رحلته الفنية بوصف رحلة صاحبته وقومها فى الصحراء ، على غرار ما صنع زهير فى معلقته ، وهذا إنما يدل على أن شعراء العصر الأموى بعامة، والأخطل بخاصة ، كانوا - غالبا - ما ينهجون نهج القدامى الجاهليين فى بنائهم الفنى ، ولا غضاضة !! فالصفات العربية الأصيلة كانت أبرز ما يتصفون به ، فالدولة الأموية عربية صميمة ، قريبة العهد بالعروبة وصفاتها وخصائصها ، فلم تكن حياتهم الجديدة قد تأثرت تأثرا شاملا جارفا بعادات وعقليات أخرى .

ولم لا تكون رحلةُ القوم الفزعين من هول الجدب والإمحال إلى رأس الأمة « عبد الملك » فإن رأس العشيرة يحمل أثقالها ، وفى هذا التوجه مدح لعبد الملك ، فهو أمان الخائف وملاذ المفزَّع ، وهو من تتعلق به آمال الرعية فى كل مكان .

ويستطرد الشاعر إلى وصف الخمر ، محاولا الإطراف فى الفكرة والصورة ، فيقول :

كـأنى شـاربٌ يوم اسْـتُـبِـدَّ بهم

من قَرقفٍ ضُمِّنَتْها حِمصُ أوْ جَدَرُ

جـادت بهـا من ذوات القـار مُتْـرَعَـةٌ
كَلْفـاءُ يَنْحَتُ عن خُـرطومها الْمَدَرُ (*)

ولعل نشـوة الشـاعـر بنصـر الخليفـة على عـدُوه قـادته إلى النشـوة بالخمر ، فكأن النشوة بالنصر أعْدت علي النشوة بالخمر ، وعلي كلٍّ فالأخطل « يري الخمر ميدانا تميز فيه وجدد ، وبَذّ فيه معاصريه من المسلمين أمثال الفرزدق وجرير الذين لا يستطيعون أن يعرضوا لها في مدائح الخلفاء » (1) .

ويتجاوز الأخطل هذا الهاجس النفسيَ إلى الغرض الرئيس في القصيدة ، فيمدح عبد الملك في كل أحواله ، مدفوعا بعاطفة الإعجاب به وإكباره ، والإقرار بأياديه ، والاعتراف بمننه ، ويمدحه في أسرته المعرقة في المجد والشرف والشجاعة والأنفة ؛ ويهتبل الشاعر هذه الفرصة ليفخر بنفسه وقومه وبلائهم في الذَّود عن الخليفة ، تدفعه إلى هذا الفخر عاطفة الزهو والتِّيه .. بيْد أن الشاعر - كما يلوح لي - لا يفتخر على عبد الملك ، لكنه يفتخر لعبد الملك فالشاعر وقومه سيوف في يد الخليفة يضرب بها رقاب أعدائه وأعدائهم ، وهم على قوتهم التي يستمدونها من قوة الخليفة وبسالته جُند في كتيبته ، وسهام في كنانته ؛ فما يكون لهم هذا البأس وهذه الشكيمة إلا بانضوائهم تحت لواء الخليفة وقيادته : وهم مدفوعون إلى النضال وبذل المُهج دونه بالحب والطاعة والإخلاص : فهم لذلك حربٌ عوان على مناوئي الخليفة ؛ ومن ثم فالشاعر لا يفتخر على ممدوحه ، وإنما يفتخر لهذا الممدوح الأشمّ .

---

* - القرقف : الخمر . وحمص وجدر : بلدان بالشام . ذات القار : خابية الخمر المطلية بالقار . الكلفاء : التي في لونها كلف ، وهو السواد في صفرة . ينحتُ عن خرطومها : يفض عن فمها . المدر : الطين ، انظر الديوان ص ٩٨ .

١ - التطور والتجديد ص ١٣٧ ( بتصرف ) .

ويستطرد بناء القصيدة الفنى إلى هجو خصوم ممدوحه ، هجوا مُرّا تبعثه عاطفة الازدراء لهم والإزراء بهم والاضطغان عليهم ؛ وهجاء الشاعر إياهم بالخَوَر والضعف وغيرهما من المثالب فى مواجهة قوة الخليفة الضاربة الشموس إعلاء لصرح ممدوحه ، وقيمة فنية رائعة فى هيكل البناء المدحى فى هذه القصيدة .

لقد تضافرت كل الأغراض فى رائعة الأخطل للنهوض بغرضها الرئيس .

فالترابط الفكرى والتواؤم الفنى ناهضان فى القصيدة ، يدْعمان وحدة موضوعها ويدفعان ما قد يبدو من انفراط فى حبات عقدها ؛ وعاطفة الشاعر التى هاجها حدث الظفر ، والتى أرقت الأخطل فانفعل بالتجربة ، وتفاعل مع الموقف ، ما برحت متقدة على امتداد القصيدة ، لم تخب جذوتها ، ولم يخمد تأججها ، وهذا أثر الصدق الفنى العارى عن الافتعال .

وأثر هذه العاطفة يلوح للمتذوق فيما ساق الشاعر فى نسيج قصيدته من صور وأخيلة ، تتسم بالدقة وحسن الأداء ، وتحقيق ما يهدف إليه الشاعر من تأثير وإقناع ؛ كما يلوح أثر العاطفة فى مثل قول الأخطل : « مُسوم فوقه الرايات والقتر » و « ما إن يوازى بأعلى نبتها الشجر » و « إذا ألمت بهم مكروهة صبروا » و « ولو يكون لقوم غيرهم أشروا » و « وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا » .

لقد نجح الشاعر فى القصيدة نجاحا باهرا ، حتى إن القصيدة لتُعَدُّ بحق أنموذجا لشعر الأخطل فى الأمويين ، بل أنموذجا للشعر فى عهدهم على الإطلاق .

**القصيدة بين الإبداع الفنى والتحليل الذّوقى :**

هذه التجربة التى هاجت الأخطل ، وانفعل بها بصدق ، واحتشدت لها طاقته الإبداعية ، صاغها فى عقود من لآلئ اللفظ ، وجواهر الصُّور ، وحلّق فيها خياله ، وتألقت عاطفته ، فى هذه الدُّرة الرائية ، التى تعد غرة فى جبين الشعر الذى مُدح به عبد الملك والأمويون ، ولا غرو ! فمهارة هذا المناضل وفطنته واضحتان فى القصيدة ، لقد أبرز ممدوحيه فى صورة كريمة تجعل نهوضهم بالحكم أمرا طبعيا مقضيا ، وتبدد آمال الطامعين المناوئين ؛ فما أروع الأخطل فى النفح عن الأمويين زما أبدعه فى النضال دونهم .

ويبدو فى هذا البناء الفنى تمكن الشاعر من نواصى اللغة وبراعته فى تشكيلها فى قوالب فنية رائعة .

وها نحن نلقى الضوء على الخصائص الفنية فى إبداع الأخطل ، على مهاد الأبيات المختارة من رائيته ؛ ونتفيأ بداية فى دوحتها ظلال الألفاظ والأساليب ، وفى وارف ظلالها تتبدى لنا عدة خصائص :

- دقة الشاعر فى اختيار ألفاظه وتراكيبه ، التى تنهض بأداء معانيه دونما ونًى أو وهن ، إلى جانب ما تتمتع به من جرْس موسيقى ، وقوة أداء صوتى ، وضخامة وفخامة ، لقد كان ينتقى لبنات صروحه الأدبية انتقاءً ، فى صبر وأناة ودقة وعناية ، ولهذا لا ترى فيها لفظة نابية أو قلقة أو حوشية يستثقل السمع وقعها ، ومن ثم برئت ألفاظه من القلق والأرق ، وسلمت تراكيبه من اللغط والسقط ؛ فإذا كان الأخطل فى الذُّؤابة من قومه ، فصياغته التعبيرية كانت فى الذؤابة من اللغة .

- روعة المواءمة بين ألفاظه وأفكاره ، وحرىٌ بمثل الأخطل أن يتخير الألفاظ الموائمة لطبيعة الفكرة ، فتتعاون معانيها على تجليتها وإبرازها ، فتراه في الظعن والرحلة يستعمل « خفّ ، وراحوا وبكروا والنوى والغير » وفي المدح يستعمل « الإمام والفواضل والهنأ والظفر وخليفة الله والجود والجهارة والشجر والأرومة والحق والأنفة والحلم والرياح وغيرها » وفي الهجاء يستعمل « المضض والإبر والضغينة والعُر والتفارط وغيرها » فهو كالفارس الذى يلبس لكل حال لبوسها ، وهو - بلا ريب - فارس الكلمة ، وخبير دلالتها ، والخرِّيت الذى يعرف لكل مقام مقاله .
- جمال اقتناص الألفاظ الموحية ، التى يشع من حناياها بريقُ صور وأطيافُ فكر ، تلوح للمتأدب المتأمل ، وتبدو لمرهف الحسِّ المتدفق تتغنى بلابلها في أفنان الغرر ، وتطرب لها نفس من رق وشعر ، ورائية الأخطل تصدع بهذه الإيحاءات ، من ذلك « فليهنأ له الظفر » إذ يوحى بالدعاء للخليفة باستقرار الهناء بنابه ، وراحة باله واطمئنان قلبه ؛ فالنصر في ركابه محالفه ، مستمر في معيّته ، قائم في خدمته ، مختص به وله دون غيره فليهدأ بالاً ، فأعداؤه في خذلان ، و « الميمون طائره » يوحى - بجانب الدلالة اللغوية - بذيوع سعده ، وقوة بأسه ، وعلو نجمه ، وتحليقه بأجنحة قوية ، ليجلب الخير لرعيته ، وليحميهم بمظلته . و « يستسقى به المطر » يوحى بتجدد الاستسقاء به وحدوثه ، وبأن ذلك يصدر ممن يعرفه عن كثب ، وممن تسامع بجوده ونداه ؛ وبأن الخليفة بركة من الله في الأرض ، يحيى به الله موات الأرض ، فتهتز وتربو ، وتنبت من كل زوج بهيج ، ويرتوى من فيضه الأحياء ؛ فينتشون ويشكرون ؛ فالخليفة الزكى المبارك دواء الأرض المقفرة ، وطب الأحياء حين يشرفون على التهلكة ، والتعبير باسم الفاعل

« الخائض . المستمر . ناصح » يفيد استمرار الصفة ودوامها ، والتعبير بالأفعال المضارعة « تسأل . يغشى . يبنى . ويهدم . ويعصبون . وتعلو » يفيد حدوث الفعل وتجدده . والتعبير بإنْ فى قوله : « إن فخروا » يوحى بالشك أو الندرة ، فهم ليسوا فى حاجة إلى الافتخار ، لأن أعمالهم ومآثرهم وأصولهم تشهد لهم ، وتدل عليهم ، وثقتهم بأنفسهم تربأ بهم عن ميدان الفخر ، لأنهم أهل المفاخر ، وسدنة المآثر ، فهم فوق الفخر ، وموطن الفخر من غيرهم .

• براعة الاعتداد بالصور والأخيلة والأساليب البلاغية .

استهل الشاعر هذا الصرح الإبداعى بهذا الأسلوب الخبرى « خف القطين » ليجذب إليه ممدوحه ، ويحفز خاطره ، فيضمن إصغاءه ، فقد حفزه للوقوف على مفزع القطين ووجهتهم ، حتى إذا ما استقروا فى رحاب الممدوح طار الشاعر فى خفة ورشاقة يخلع عليه صورا رائعة ، تتلاحق وتتكاتف لإبراز معالم شخصية ممدوحه ، ففى صورة استعارية بارعة جعل كرم الخليفة يغادى الناس ولا يغادرهم « لا تغادينا فواضله » ويكنى عن شجاعته وتغلبه على الشدائد بقوله : « الخائض الغمر » ، وعن يمنه وبركته بقوله : « الميمون طائره » و « يستسقى به المطر » ويشبه جوده بنهر الفرات حين يعلو فيضانه ويشتد ، وتبدو طرافة الصورة عند الأخطل فى أنه جعل جود الخليفة أعلى من الفرات ، وأن الفرات على هيئته تلك أدنى من جود الخليفة ، وأنه شبهه به أيضا فى الجسامة والروعة والفخامة ، بل جعله فوق الفرات فى هذه الصفات ؛ على أن أصل هذا التشبيه للنابغة الذبيانى حين شبه كرم النعمان بالفرات .

وفى البيت الحادى عشر صورتان بيانيتان رائعتان « تستبين لأقوام ضلالتهم ، ويستقيم الذى فى خده صعر » ويشبه بنى أمية بالنبعة فى

الرسوخ والعظم والصلابة ، ويشبههم في عنف عداوتهم وشدة بأسهم بالفرس الشموس الجموح « شمس العداوة » في صورة استعارية جدّ دقيقة طريفة ، ويكني عن صلابتهم وشدة مراسهم بقوله : « لا يبين في عيدانهم خوَر » ويجعلهم أسرع إلى فعل الخيرات والمحامد من الريح في استعارة لطيفة « هم الذين يبارون الرياح » ويشبه قوله في أعدائهم بالإبر في النفاذ والأثر ، وتبدو طرافته في أنه هون من أثر الإبر بالقياس إلى أثر هجائه « والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر » ويتفوق الأخطل فيشبه الضغينة وهي داء معنوي بالجرب وهوداء حسي ، رغبة في تشخيص داء الحقد وتجسيد الضغينة ، والتحذير منها ، فهي تكمن كهذا الداء الوبيل ، ويقصي كليبا عن السبق إلى المحامد بكناية رائعة في قوله : « ليس لهم عند التفارط إيراد ولا صدر » ويتألق في إبداعه في هذا التنكير « المشتمل عليه البيت الأخير في : « أمر . أرحام . عذر » فقد أفاد في « أمر » التهويل وفداحة الخطب ، إنّ هذا الجرحَ الدامي لن يلتئم بأرحام هانت ، ولا بأعذار بانت ، فلقد غدا الشر مستطيرا ، والشاعر في درته الإبداعية هذه كثيرا ما يلجأ إلى الأساليب الخبرية ، ولعله لم ينس موقعه في النضال عن الأمويين ، ولم يغفل هدفه في إقناع خصومهم والتأثير فيهم ، وهو لذلك يُلقي تقاريره ويطلب منهم أن يذعنوا لها ، وأن يبدو اقتناعهم بفكره ، فما الجدل أو الحوار من حقهم !! وكأني به يسد عليهم كل المنافذ ؛ ولم يلجأ إلى الإنشاء إلا وهو يدعو للخليفة « فليهنأ له الظفر » أو وهو ينادي الأمويين « بني أمية » وكأنه مضطر في هذين الأمرين إلى التوجه نحو الإنشاء ، ودعاؤه مشعرٌ بالحب والسعادة ، ونداؤه مشعر بالقرب والتودد .

وفى القصيدة تبدو إلى جانب هذه المعالم الفنية معالم أخرى بديعية كالطباق بين « راحوا وبكروا » و « يبنيها ويهدمها » والمقابلة الرائعة فى الأبيات :

الخامس عشر «وإن تدجت ...» والثامن عشر «شمس العداوة ...» والتاسع عشر : « لا يستقل ذوو الأضغان ... » والتجنيس الاشتقاقى كما فى : « أظفره والظفر » و « يغتره وغرر » و « الفخر وفخروا » والتجنيس فى التقفية كما فى « غِير وغَرَر » و « قدروا وقتروا » ، وحسن التقسيم وجمال التلوين فى البيتين : الثالث « الخائض الغمر ... » والرابع عشر «حشد على الحق ...» والمشاكلة الدقيقة فى البيت السابع عشر « لم يأشروا فيه ... » .

وما أكثر الأساليب البلاغية فى هذه الرائية ، وما أكثر ما تفيض به هذه الأساليب من المعانى والقيم الفنية والجمالية .

وبعد : ففى القصيدة تحتشد اللغة المنتقاة بوعى وأناة ، والفياضة بالأصوات والصور ؛ والأبنية الذكية بالصور والموسيقى ، والألوان البلاغية الريانة ؛ مما يدل على براعة الشاعر ، وروعة تألقه الإبداعى ، وتفوقه الأدبى .

**موسيقى القصيدة :**

يمتاز الشعر عن غيره من الكلام بموسيقاه التى تتآزر مع عناصر اللغة التأليفية الأسلوبية التصويرية والعاطفة والخيال وغيرها ، بغية استيلاء ذلك اللون التعبيرى على قلب قائله وفكره ، وامتلاك حواس متلقيه ومشاعره ، فيجذبه إلى شاعره ، ويجعله يشاركه تجربته الشعرية .

ولا ريب فالبناء بالموسيقى صدر مكونات التجربة الشعرية وواجهتها ، والأبعاد الجمالية للنص الشعرى متعددة ، وجميعها تنبثق من الطاقة الشعورية المنسابة فى تضاعيف النص والمتدفقة فى أوصاله وشرايينه ، والنص الشعرى بدون هذه الطاقة يغد ونهرا بلا ماء ، وحديقة بلا أزاهير ، وأفقا منطفئ النجوم (*) فالعلاقة بين الموسيقى والشعر علاقة عضوية ، وهى لا تحتاج إلى الإيغال فى التدليل ؛ وقد كان النظام الدقيق للشعر العربى وإيقاعاته وقوافيه السبب المباشر فى ظفره بكل شعر لقيه بعد الفتح الإسلامى ، فلم يثبت له الشعر الفارسى ولا غيره ، بل كان كلُّ شعر يلقى له عن يد ، وكيف لا ؟ ! وهو بحر متلاطم من النغم ، وكل من يقف على شطآنه يأخذه الانبهار والعجب ! !

أما الأخطل فقد أودع درته بحر « البسيط » واتخذ من أوزانه إطارا لموسيقى قصيدته ، وتتشكل موسيقاه من « مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن » فى كل شطر ، فيتحقق التجاوب والتناغم الموسقى بين وحداته ، وقد كان الخبن (**) فى عروضه وضربه هدهدة من كثرة السواكن فيه ؛ وهو من أحفل بحور الشعر بالفخامة والرصانة والعمق ؛ وفيه طواعية

* - راجع : عود على بدء ، دراسة فى إيقاع الشعر . د. شفيق أبو سعدة . وموسيقى الشعر بين الثبات والتطور د. صابر عبد الدايم .

** - حذف الثانى الساكن فى فاعلن فتصير « فعلن ... » .

لظاهرة الإنشاد ، فهو يعطى التموج والانسيابية والإيقاع الذى يمنح النفس حالة من حالات السمُو والصفاء »[١] ومن هنا يأتى فى مقدمة البحور التى يكثر فيها الشعر العربى ، ويحتفل بها الشعراء . وهو بخصائصه تلك موافق لموضوع القصيدة وأفكارها وكل ما تضمنته من عناصر التشكيل الجمالى .

والشاعر قد توج هذا الإيقاع الموسيقى بالتناسق النغمى عن طريق وحدة القافية . وقد جعل الراء المضمومة « رويا » لقصيدته ؛ والراء صوت مجهور لثوى متكرر ، لأن طرف اللسان حين ينطق به يحدث طرقا لينا مرتين أو ثلاثا ؛ وهو صوت وسط بين الشدة والرخاوة ، ولهذا كان من أوضح الأصوات الساكنة فى السمع ، وضمته تزيده فخامة ، ومن ثم فاضت أوزان القصيدة وقوافيها بالتناغم والإثارة واليقظة ، وكأن الأخطل قد ضبط إيقاعه على نفسه ، وعلى نفسية الناس ، وقد رأيناه عملاقا فى الانسياب الموسيقى فى تضاعيف الأبيات ، فرأينا التماثل النغمى فى تقفية المطلع ، ورأينا الانسجام الموسيقى ( أو الإيقاع الباطن ) تبعثه موسيقى الحرف والكلمة والنظم والألوان البديعية كالتجنيس وحسن التقسيم والتكرار والمشاكلة ، وبمثل هذه الموسيقى بتفاضل الشعراء ، لقد استطاع الشاعر أن يوظف كل هذه الطاقات الموسيقية فى التعبير عن عاطفته وأفكاره ، وأن يجعلها تتدفق أنغاما موثرة ، وألحانا معبرة على أوتار قيثارته .

---

١ - دراسات فى النص الشعرى ، د. عبده بدوى ص ٧٢ .

**نظرات نقدية فى رائعة الأخطل :**

ليس فى مقدور النقد الموضوعى إصدار حكم عام ، مُفاده : أن كل ما فى رائية الأخطل من أفكار ومعانٍ وصور وأخيلة مُتسم بالجدة والطرافة والابتكار ، فمن ذا الذى ترضى سجاياه كلها ؟! وإلا كان هذا الحكم التعميمى - إن وجد - أثرا من جموح الهوى ، والعصبية الممقوتة ، وطغيان الذاتية على الموضوعية ؛ وما أرقى النقد وأوفاه حين يعتدل وينصف !!

إن الأخطل بارع رائع ، له أفكاره السامقة ، وصروحه الشاهقة ، وأخيلته المحلقة ، بيْد أن منها ما يتسم بالابتكار والجدة ( أولية الاختراع ) ، ومنها ما يتسم بمحاولة الإطراف فيه ، لسبق غيره إليه ، أو لكونه من عادات العرب ومن أمثالهم ، أو من صور بيئتهم ؛ وهذا يعنى أن جانبا - ليس بالهين - من أفكار القصيدة وصورها تجديدى لا جديد ، لثقافته وبيئته أثر فيه ؛ وما النهج الفنى الذى ارتضاه فى بداية رائيته ، والذى حذا فيه حذو زهير فى معلقته إلا أثر لثقافته الأدبية ، ولغرام الرجل بشعراء الجاهلية .

وهو من هذا المنطلق يستعير صورة قديمة للنابغة الذبيانى فى مديح النعمان بن المنذر ، إذ يقول :

وما الفرات إذا هبَّ الرياح له
تمْرى أواذيُّهُ العبْريْن بالزبَد ...
يوما بأجود منه سَيْبَ نافلةٍ
ولا يحول عطاءُ اليوم دونَ غد

فهل هذه الفكرة - يا ترى - فكرة شعرية تخطر ببال الشعراء

لشهرة هذا النهر في البلاد العربية بعامة ، وفي بلاد تغلب بخاصة ، لموقعها من الجزيرة الفراتية ؟ أم أن الأخطل كان يطلع على شعر النابغة ؟ والمرجح أن الأخطل كان يطلع على شعر النابغة ، وكان يروقه ، وأنه أخذ الفكرة وبناءها الاختصاصي وكثيرا من ألفاظها ، وصاغها في مدح عبد الملك ( في الأبيات : السادس والسابع والثامن ) .

« غير أن من يقرن هذه الصورة الجاهلية إلى صورة الأخطل يلاحظ أن الشاعر كان ينظر في الشعر الجاهلي ، ويستعير منه كثيرا من الصور ، ولم يكن يقف في ذلك عند حد التقليد ، بل كان يحاول التحوير في الصور والتجديد فيها ، فالنابغة يكتفي في المقارنة بين النعمان والفرات بالجود أما الأخطل فيمد المقارنة إلى الجهارة والروعة ، وهذا هو معنى أن الشاعر الأموي كان يطلب التجديد في شعره »[1] .

نعم كان للثقافة العربية القديمة أثرها في توجه الأخطل الإبداعي ، ومن ذلك أنك تسمع صدى قول زهير في حصن بن حذيفة :

وأبيض فياض يداه غمامةٌ
على معتفيه ما تغب فواضله

في بيته ( الثاني والعشرين ) .

ومدح الأخطل الأمويين بإغاثة الممحلين المجدبين في البيت ( العشرين ) صورة مدحية قديمة منذ هاشم بن عبد مناف الذي قيل فيه :

عمرو والعلا هشم التريد لقومه
ورجال مكة مسنتون عجاف (*)

وصورة هجاء الكليبيين في البيت ( الخامس والعشرين ) بأنهم لا

---

١ - التطور والتجديد ص ١٣٩ .

★ - البيت لمطرود بن كعب الخزاعي .. معجم الشعراء للمرزباني ص ٣ .

يتسابقون إلى الماء ، صورة عربية قديمة ، وليس للأخطل فيها إلا بعثها من مرقدها ؛ فالأخطل والفرزدق مسبوقان إليها بالنجاشى فى هجاء بنى العجلان . والصورة أثر من آثار البيئة البدوية .

ولا ريب !! ففى القصيدة تأثر واضح بحياة العرب فى الجاهلية وعاداتهم وأخلاقهم وبيئتهم ، من ذلك قول الأخطل : « الميمون طائره » فهو إشارة إلى تفاؤل العرب بالطيور فى بعض أحوالها . وقوله «يستسقى به المطر» صورة مستمدة من بيئة تعتمد فى حياتها على المطر ، وقوله : « ويستقيم الذى فى خده صعر » صورة منتزعة من بيئة للإبل فيها أثرها وخطرها ، فهى سفن الصحراء ، والصورة فى البيت « العاشر » مقتنصة من عادات العرب فى الحرب والملاحم ، فهم لا يستخدمون السهام والقسى حين التحام الجيشين ، إنما يطعنون بالسيوف والرماح .. والصورة فى البيت « الرابع والعشرين » منتزعة من البيئة وأثر الجرب فى الإبل .. ومن الصور الشعرية المنتزعة من حياة العربى قول الأخطل : « شمس العداوة » فقد جعل عنف عداوة ممدوحيه وضراوتها فرساً شامساً جامحا .

ونلمح فى القصيدة معانى مستمدة من الثقافة الإسلامية . على غرار ما فى الشطر الثانى من البيت ( الثالث ) ( خليفة الله ) والأبيات : ( الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر ) وما فى الشطر الثانى من البيت ( الواحد والعشرين ) وما فى الشطر الأول من البيت ( السادس والعشرين ) ( أمير المؤمنين ) .

وتبدو فى القصيدة نزعات قبلية وسياسية ، مما كان ديدن بعض الشعراء فى العصر الأموى .

وكان لرائية الأخطل دويها فى عالم الإبداع ، وقد تأثر بها

كثيرون، منهم : عبد الله بن سنان - المعروف بأعشى بنى هزان - الذى تأثر بمطلعها وقافيتها وموسيقاها فى قصيدته التى أولها :

خفّ القطين فـراحـوا منك أو بكروا

وودعـوك وداع البين صَـدروا (١)

وبعد : فهذا الأثر الأدبى القوى الذائع يلقى ضوءا على الخصائص الفنية لشعر الأخطل ؛ ويبقى هذا الأثر مثالا حيا عملاقا للشعر فى عهد الأمويين على الإطلاق .

---

١ - انظر : المؤتلف والمختلف للآمدى ص ١٣ .

## جرير بن عطية (١)

**التعريف بالشاعر :**

أحد ثلاثة هم أشعر أهل العصر الأموى ، اذ كان لثلاثتهم التأثير الواضح فى دفع الشعر الى التصوير الجديد ، والتعبير عن طاقات جديدة ، وهم الأخطل والفرزدق وجرير ، وشاعرنا هو : جرير بن عطية ابن الخطفى ( والخطفى لقب غلب على جده حذيفة ، لوقوع هذا اللفظ فى شعر له ، ومدلوله اللغوى السير السريع ) .

ويكنى جرير بأبى حزرة ( ابنه الأكبر ) وهو من عشيرة كليب ، وكليب غصن من غصون يربوع التميمية ، وقد انقطعت أسباب المآثر والأمجاد فلم تصل كليبا هذه فكانت من الطبقة الدنيا ، التى لم تتسنم الذرا اذ كانت فى السفوح ..

وأبوه عطية كان خامل الذكر متخلفا فى المال . أما جده الخطفى فقد كان ذا مال ، وكان شاعرا . وأمه هى أم قيس بنت معبد بن عمير بن مسعود ، من نفس عشيرته ، وكان لجرير أخوان ــ ينظمان الشعر أيضا ــ هما عمرو وأبو الورد (١) .

---

(١) جرير فى الأغانى ج ٨ ص ٢٧٤٩ وما بعدها ( طبعة دار الشعب ) ، وخزانة الأدب ج ١ ص ٧٨ وما بعدها ( الطبعة السابقة ) ديوان جرير ، شرح محمد بن حبيب ، تحقيق : د. نعمان طه ( طبعة دار المعارف بمصر ، الشعر والشعراء ص ٢٨٣ وما بعدها ( الطبعة السابقة ) ، والكامل فى اللغة والأدب للمبرد ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار نهضة مصر ، الموشح ص ١٨٧ وما بعدها ( الطبعة السابقة ) وغيرها من المراجع .

**حياته وأخلاقه :**

فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ولد جرير حوالى سنة ثلاثين للهجرة ، فى قرية ( حجر ) احدى قرى اليمامة ، وتقع فى الجنوب الشرقى من نجد ( وهى المسماة الآن بالرياض ) ونشأ بين عشيرته ـ التى عرفت آنذاك برعى الغنم والحمير ـ نشأة البدوى الفقير، وجرير لم ينكر أن قومه لم يكونوا أصحاب ابل وخيل (١) .

بيد أنه اذا كان الشرف والسيادة والمجد المؤثل قد فات جريرا ، فان كل هذه المكرمات والمعالى لم تفته فى الشعر والفن ، فالقدر اذا لم يكن قد أسعده بالنشأة فى بيت مجد وسؤدد ، فقد أسعده بالنشأة فى بيت شعر وفن، وظل الشعر يتوارث فى أبنائه وعقبه اذ كان بيته على الرغم من فقرهم يغلب عليهم الشعر ، وقد وجد جرير ـ الذى تفتحت موهبته الشعرية مبكرة ـ فى جده أستاذا لقنه الشعر وأوقفه على دروبه ومساربه . وقد استهل حياته الشعرية بهجاء غسان السليطى ، حين رآه يهجو قومه ، والذى تمادى الهجاء بينهما حتى نضب معين غسان ، فاستعدى عليه البعيث ( من بنى مجاشع قوم الفرزدق ) ففلجه جرير ، وطعنه ونساء عشيرته مجاشع طعنات نافذة ، جعلت نساء مجاشع يستغثن بالفرزدق ، فيضطر الى منازلة جرير ، ويستعر لظى الهجاء بينهما ويشتد احتدامه ، ويظل الهجاء بينهما قائما طوال حياتهما .

مكث جرير يهجو الفرزدق بضع سنوات وهو مقيم

---

(١) انظر الشعر والشعراء ص ٥٧ ، ٢٨٣ ـ ٢ ـ أنظر الأغانى ٢٧٤٩/٨ وما بعدها .

فى بادية اليمـــامة ، والفـرزدق مقيم فى البصرة وهى ـ اذ ذاك ـ موطن العلماء والأدباء والشـعراء والرواة الذين يشيدون بشعر الفرزدق وينشرونه ، فألحت يربوع على جرير يهبط البصرة ليهاجى الفرزدق وجها لوجه ، فانحدر اليها ، وطالت اقامته فيها .

ويظهر أن الرجل ـ حين نزح الى العراق ـ لم يكن له مذهب سياسى محدد ، فنجده حين بايعت العراق ابن الزبير يدلى بدلوه معهم ، ويحطب فى حبلهم ، ويمدح ولاة ابن الزبير ، ويشيد بقيس ـ مما جعل الصدام بينـه وبين الفرزدق يشـتد ـ وهذا يؤكده اقصـاء بشر بن مروان ـ أخى عبد الملك ـ الذى ولى العراق بعد القضاء على ابن الزبير ـ له ، ودعوته الشـعراء الى هجـائه ، وكأنه كان يتمثله خصما سياسيا . الا أن جريرا سرعان ما ارتمى فى أحضان بنى أمية ، حين عاد اليهم أهـل العراق ـ فكأن جريرا كان يساير المواقف ـ فيمدح بشر ابن مروان ، ويصبح شاعر الحجاج بن يوسف الرسمى ، وقد أسـهم وقوفه الى جانب قيس فى رضا الحـجاج ـ القيس عليه وتقريبه منه .

وهو فى شعره فى الحجاج مصور بارع ، يصور لك شخصيته تصويرا ، ويجعلك تكبرها وتجـلها ، ويبرز قسوته فى صورة القسوة الضرورية التى لا يستتب الأمن الا بها ، ويوقفك منه على سياسة رشيدة حازمة .

وصلت أصـداء شـعره فى الحجـاج الى مسامع عبد الملك بن مروان ، فقد ذاع وانتشر ، فحسد الحجـاج عليه ، واعتملت فى صـدره أمنية مدح جرير له ، وقد أدرك الحجـاج ذلك ، فبعث الى الخليفة بدرته الثمينة ـ جرير ـ مع ابنه محمد ، فمدحه ـ بعد تمنع عن استماع

مدحه لاقتصاره على الحجاج – فأعجب به عبد الملك وأكرم وفادته ومنحه جائزة سنية (١) .

صار بعد ذلك شاعرا أمويا يتشيع لهم وينهض بدعوتهم وينافح عنهم وينفخ في بوقهم مع من ينفخون، يدعو لعبد الملك وأبنائه فى العراق ، بل فى العالم الاسلامى كله منه أن مسته يد عبد الملك السحرية ، وقد أضفى عليهم كل ما أضفاه الشيعة على أئمتهم ، وزحم الفرزدق على أبواب الملوك والتكسب بالشعر .

والرجل – على الرغم مما كان يصب فى يديه من مال الممدوحين – كان بخيل النفس كزا شحيحا الا على أهله وأولاده ، وقد جر عليه بخله مهاجاة بعض الشعراء له ، كما أن نشأته بالبادية قد طبعت أخلاقه بطابع المغالبة ، فأسرفت نفسه فى العداوة والانتقام والحقد ، اذ كان يصب جام غضبه ، ويلهب بسوط هجائه من سولت له نفسه أن يعرض بالشاعر أو بقومه وما أمر هجاءه وأوجعه ، اذ يتخذ اليه كل الأسباب التى تكفل له النيل من الخصم ، من افتراء على الأبرياء ، وقذف المحصنات الى غير ذلك .

ولعله كان يرى أن فى مثل هذا ذودا عن حياض نشأته وخمول عشيرته .

وكان – الى جانب هذه الهنات – عميق الايمان ، مؤديا للفرائض ، عفيفا لم يدنس بفسق أو يقترف محرما (٢) وكان كثير الاستغفار مما يأتى به في شعره

---

(١) انظر صلة جرير بالحجاج ، ومناسبة قصيدته فى مدح عبد الملك بن مروان فى : الاغانى ( طبعة دار الكتب ) ٦٨/٨ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ١٩٠/١ .

(٢) يقول ابو الخطاب الأخفش : كان جرير اعلم الناس بالشعر ، وأنقدهم له ، وأحسن الرواة دينا وثقة ، الموشح ص ١٩٣ .

من قذف وافتراء على المحصنات ، وكثيرا ما كان يعلن طهر ساحتهن ، ويرى أن قذفهن ظلم منه مقابل ظلم أوليائهن اياه ، يروى الرواة أن الفرزدق رأى جريرا محرما فقال : والله لأفسدن عليه حجه ، ثم جاءه مستقبلا له ، وقال :

وانك لاق بالمشاعر من منى
فخارا فخبرنى بمن أنت فاخر ؟!

فقال جرير : لبيك اللهم لبيك ولم يجبه (١) وفى هذا دليل على تدينه وعمق ايمانه ، وقد ظل جرير يصول ويجول حتى وافته منيته فى سنة احدى عشرة ومائة للهجرة .

**الآثار النفسية :**

كان لنشأة جرير المتواضعة أثرها على نفسيته ، وقد انعكس هذا الأثر على شعره ، ولا ريب فالشعر تصوير لأعماق صاحبه وسبر لأغواره ومرآة تشف عن نفسه ، فنراه لذلك :

لم يعتز بآبائه وقبيلته اعتزاز الفرزدق بهما ، وان كان قد فاخر بهما الشعراء ، فهذا مرجعه الى اثبات وجوده من جهة ، وجريا على عادتهم فى الفخر من جهة أخرى ، وتفاخره لم يصل درجة الاعتزاز ، بدليل أنه كرس حياته وجند شعره للمنافحة والذود عن القيسيين ، هؤلاء الذين كانوا يدرون عليه من أموالهم الكثير ، ووجود الشاعر الى جانب قيس طوال حياته يرجع الى

---

(١) البيان والتبين ج ٢ ص ١٨١ والاغانى ( دار الشعب ) ٢٧٧٩/٨ .

فقدانه الاحساس بقومه ، ويؤكد على أن نفسية جرير لم تستشعر العصبية القبلية .

لم تعرف نفسية جرير الطريق الى العنجهية والعنف والتمرد ، وانما عرفت نفسيته بأنها هينة لينة ، رقيقة فيها تواضع واستكانة ، بدليل : اعتذاره المتكرر عن قذف المحصنات وتبرئته ساحتهن ، فلم يشتط - اعتدادا بأرستقراطيته وأمجاده - كما كان الفرزدق . وبدليل : سهولة شعره وصفاؤه ورقة لفظه وعذوبته مما أدى الى سيرورته ووقوف العامة والخاصة عليه ، والشعر جزء لا يتجزأ من نفس صاحبه ، فسهولته تعنى سهولة النفس ولينها ، وصعوبته تمثل صلابة النفس وتمردها .

هذه السمات التى اتسمت بها نفسية جرير تثبت تعمق الاسلام فيها من جهة والتواضع الذى لازم جريرا فى نشأته وأسرته من جهة ثانية .

جرير كان يتخذ من مثالبه مفاخره ليثبت تفوقه وجدارته وعلو كعبه ، فكان لا ينكر ان قومه كانوا يرعون الغنم والحمير ، وأنهم ليسوا أهل ابل وخيل ، الا أنه كان يرى نفسه زهرة جميلة نبتت فى تربة ليس من شأنها أن تنبت الزهر ، فهو عصامى - كما يقولون - وهذا أدعى الى الاشادة به والاطراء ، فلم يجعل لكل هذه المثالب سبيلا الى نفسه بالغض أو الازراء ، فقد سما فوق هذه المثالب الاجتماعية وتفوق عليها وقهرها ، واعتلى مكانة رفيعة فى الشعر والفن ان لم تسم على مكانة الفرزدق ذى الجاه والحسب والمكانه الاجتماعية فلن تقل عنها ، وهو مدفوع الى هذا التفوق بما خيم فى نفسه من عقد اجتماعية ، وما أنطوت عليه نفسه من حزن عميق - لنشأته - صفى جوهرها .

مكانته الأدبية :

ملك ناصية امارة الشعر فى تميم والعراق عامة شاعراها : الفرزدق وجرير ، وقد تنفس شعر جرير عن مكانته كالصبح اذا تنفس ، فشعره يكشف عن طبع دفاق وموهبة فياضة ، فلا تكاد تقع فيه على تكلف أو حشو أو تعقيد أو اضطراب أو قلق ، فالفاظه ومعانيه مؤتلفة ، وقوافيه متسقة ، فكأنه كان يرمى من شعره الى بهجة نفسه به وغبطتها ، واعجاب غيره به وامتاعهم .

ولقد كانت رقته وطبعه مثار اعجاب عامة النـــاس بشعره ، فتناقلوه وسار على السنتهم فضلا عن اعجـاب خاصتهم وعلمائهم به ، بخـــلاف شعر الفرزدق الذى لم يتعد الخاصة ، لذلك قالوا : جرير يغرف من نهر والفرزدق ينحت من صخر (١) .

واعجاب الناس بشعره وسيرورته على السنتهم يدل على تمكنه من قلوبهم وتاثيره العميق فى نفوسهم .

وقد قال جرير الشعر فى كثير من أغراضه وفنونه وأجاد فيهـا ، ولكن غلب عليه المدح والفخر والهجـــاء والغزل ، كقوله (٢) .

لقـد كتمت الهـــوى حتى تهيمنى
لا أستطيع لهـــذا الحب كتمـانا
ان العيون التى فى طرفها حـور
قتلتنا ثــم لم يحيين قتـــلانا
يصرعن ذا اللب حتى لاحراك به
وهن أضـعف خلق الله انســانا

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ص ١١٠ .
(٢) الديوان ( الطبعة السابقة ) ص ١٦٢ ( مجلد أول ) .

وهو كما ترى يمتاز بالرقة والعذوبة ، وخفة الوقع فى السمع ، وعذوبة النغم والجرس والموسيقى ، وقوة الحركة فى النفس .

وجرير قد استطاع بمقدرته الفنية أن يصب معانيه — على الرغم أنها كانت معانى فطرية منتزعة من الهيئة البدوية — فى قوالب الألفاظ الجزلة ، وأن يزملها بالأساليب ذات الفحولة ، وأن يخلق إنسجاما بينها ، وأن يراعى وقعها وحسن جرسها ، وتأثيرها فى النفوس .

ومما يثبت مكانة جرير الأدبية أيضا : أنه — كما نقل الأصفهانى فى أغانيه — عن الأصمعى (١) — كان ينهشه — أي جريرا — ثلاثة وأربعون شاعرا ، فينبذهم وراء ظهره ويرمى بهم واحدا واحدا ، ويقول — فى موضع آخر — انه كان يهاجيه ثمانون شاعرا غلبهم جميعا ، وكان يقول : انهم يبدءوننى ثم لا أعفو ، كما كان يقول : اننى لا أبتدىء ولكن اعتدى ، ولم يثبت لجرير سوى الفرزدق والأخطل ، وقد شهد له أعداؤه بتفوقه وعلو مكانته الأدبية ، يروى أن الراعى النميرى سمع راكبا يتغنى (٢) :

وعاوعوى من غير شىء رميته
بقافية أنفاذها تقطر الدما
خروج بأفواه الرواة كأنها
قرا هندوانى اذا هز صمما (٣)

فسأل عن صاحب البيتين ، فقيل له جرير ، فقال :

---

(١) جـ ٨ ص ٢٧٥٤ .
(٢) الأغانى ٢٧٥٥/٨ ، والشعر والشعراء ص ٢٨٥ .
(٣) خروج : كثيرة الخروج ، أى كثيرة الانشاد ، قرا : متن وظهره . صمم : قطع اللحم وبرى العظم .

والله لو اجتمع الجن والانس على صاحب هذين البيتين ما أغنوا فيه شيئا ، هل ألام على أن يغلبنى مثل هذا الشاعر ؟!

وقيل : ان الفرزدق والأخطل قد اجتمعا فتذاكرا شعر جرير ، فأقرا أنه أسير منهما شعرا ، لهذا وغيره أعجب المتقدمون بشعره وأشادوا بمكانته ، وأخذوا منه النموذج الفذ الرائع فى كل فن من فنون الشعر (١) ؛ فقالوا : أمدح بيت قالته العرب قول جرير فى عبد الملك بن مروان :

ألستم خير من ركب المطايا
وأندى العالمين بطون راح

وأهجى بيت قول جرير فى هجاء الراعى النميرى:

فغض الطرف انك من نمير
فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وأفخر بيت قوله :

اذا غضبت عليك بنو تميم
رأيت الناس كلهم غضابا

وأشد بيت تهكما قوله للفرزدق :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا
أبشر بطول سلامة يا مربع

الى غير هذه من النماذج فى شتى الأغراض .

والواقع أن جريرا كان شاعر الأحاسيس دقيق

---

(١) النماذج هذه فى : الاغانى ٢٨٥٢/٨ ، والشعر والشعراء ص ٧ ، ٣٠٩ ، وخزانة الأدب ٧٨/١ .

الخواطر رقيق المشاعر ، لا يبارى فى عذوبة لفظه وحلاوة نغمه ، يشف شعره عن ذوق مهذب صاف ، ونفس تفيض رقة ولينا ، فكأنك وأنت تقرأ شعره تسبح فى جدول رقراق ، اكتست ضفافه بأشجار وارفة الظلال ، يمتعك الجرس الموسيقى ، ويستولى عليك النغم الحالم .

... والآن حان الوقت لنعيش مع رائعة من روائع جرير .

قال جرير يمدح عبد الملك بن مروان (١) :

أتصحو أم فؤادك غير صاح ؟
عشية هم صحبك بالرواح (٢)
تقول العاذلات علاك شيب
أهذا الشيب يمعنى مراحى ؟ (٣)
سيكفيك العواذل أرحبى
هجان اللون كالفرد الللياح (٤)
تعزت أم حزرة ثم قالت
رأيت الواردين ذوى امتناح (٥)
تعلل - وهى ساغبة - بنيها
بأنفاس من الشبم القراح (٦)

---

(١) القصيدة فى ديوان جرير شرح ابن خبيب المجلد الأول ص ٨٧ ، وفى شرح ديوان جرير للصاوى ( طبعة بيروت ) ص ٩٦ .

(٢) تصحو : تترك الباطل وتقلع عن الهوى ، الرواح : الذهاب عشية .

(٣) مراحى : تبخترى ونشاطى واختيالى .

(٤) أرحبى : نسبة الى أرحب والمعنى : فحل نجيب ، هجان : أبيض الفرد : المتفرد . اللياح : يريد الثور الوحشى بياضة وعظم قوته .

(٥) أم حزرة : زوجة جرير ، الواردون : الذين يردون الماء بأبلهم ، ويروى : ذوى لقاح : واللقاح جمع لقحة وهى الناقة الحلوب ، ذوى امتناح أى أخذ عطاء .

(٦) تعلل : تشغل وتلهى ، ساغبة : جائعة ، النفس من الماء : الجرعة الشبم : الماء البارد ، القراح : الماء الصافى .

سـأمتاح البحـور فجنبينى
أذاة اللـوم وانتظرى أمتياحى (١)
ثقـى بالله ليس لـه شـريك
ومن عنـد الخيفـة بالنجـاح
أغثنى يا غداك أبى وأمى
بسيب منك انك ذو ارتياح (٢)
فانى قـد رأيت علـى حقـا
زيـارتى الخليفـة وامتـداحى
سأشكر ان رددت على ريشـى
وأنبت القـوادم فى جنـاحى (٣)
ألستم خـير من ركب المطـايا
وأندى العـالين بطـون راح (٤)
وقـوم قد سـموت لهـم فدانوا
بدهـم فى ململـمة رداح (٥)
أبحت حمى تهـامة بعـد نجـد
وما شىء حميت بمسـتباح (٦)
لكم شم الجبـال من الرواسى
وأعظم سيل معتلج البطـاح (٧)

---

(١) امتاح : من منح الماء اى استقاه واستخرجه من البئر والمراد العطاء .

(٢) السيب : العطاء ، ذو ارتياح : هش النفس للعطاء والسرور له ، أى الكرم .

(٣) القوادم : الريش فى مقدم جناح الطائر ، وهى جمع قادمة ، وهى كبار الريش ، ويقابلها الخوافى .

(٤) المطايا : جمع مطية وهى ما يمتطى اى يركب ، الراح : جمع راحة بطن الكف .

(٥) سموت لهم : خرجت عليهم محـاربا : دانوا : خضـعوا ، دهم : خيل سود والمفرد : ادهم والمراد : الجيش الكثير ، الململمة : الكثيرة المجموع بعضها الى بعض ، الرداح : الكتيبة الثقيلة الجرارة .

(٦) ابحث : حللت ، والحمى : ما يحميه الانسان ويمنعه : اشارة الى حروبه فى بلاد العرب وغلبته على ابن الزبير .

(٧) شم الجبال : اعاليها ، معتلج : مجتمع يقال اعتلج الرمل =

دعوت الملحدين أبا خبيب
جماحا ، هل شفيت من الجماح؟ (١)
فقد وجدوا الخليفة هبرزيا
ألف العيص ليس من النواحي (٢)
فما شجرات عيصك في قريش
بعشات الفروع ولا ضواحي (٣)
رأى الناس البصيرة فاستقاموا
وبينت المراضى من الصحاح (٤)

**مناسبة القصيدة :**

كان جرير عند الحجاج بن يوسف الثقفى بالعراق ، وكان قد ملأ بمدحه الأرض وذاع شعر جرير فى الحجاج ذيوعا مستفيضا حتى وصل الى سمع عبد الملك بن مروان فى دمشق ، فأضحى وهو يغبط الحجاج عليه لروعة شعره ومهارته فى المديح ورأى الحجاج - حينئذ - أن يهديه الى الخليفة ، وأن يحسن الى جرير بهذا الصنيع ، فقد وجد عنده رغبة صادقة فى أن يمثل بمديحه بين يدى الخليفة ، فأوفده اليه فى صحبة ابنه محمد ، أى ابن الحجاج . فى وفد ضم تسعة آخرين فلما مثل جرير بين يدى عبد الملك سأل عنه ، فقال محمد بن الحجاج : هذا

---

=

أى اجتمع البطاح : جمع بطحاء ، مسيل واسع من الماء فيه حصى دقاق .

(١) ابو خبيب : عبد الله بن الزبير . الجماح : العناد والخلاف والنفور .

(٢) هبرزيا : أسد ناقدا فى الامور ماضيا ، ألف : ملتف ، العيص : الشجر الكثير ، النواحى : البعداء جمع ناحية ، فهو من صميم العز وليس من نواحيه .

(٣) عشات الفروع : دقيقة الاغصان لسوء منبتها ، الضواحى : جمع ضاحية وهى : البادية العيدان ولا ورق فيها ولا ظل لها :

(٤) البصيرة : العبرة والعظة : المراض جمع مريض اى المعوج ، بينت : تبينت واتضحت .

يا أمير المؤمنين ابن الخطفى ، فقال : مادح الحجاج ؟ قال جرير : ومادحك يا أمير المؤمنين ، فأذن لي في الانشاد ، فطلب منه ان ينشده شعره في الحجاج ، فأنشده ، فما يكاد يفرغ من قصيدة حتى يعلو الغضب وجه الخليفة ، ثم طلب من الاخطل - وكان جالسا أن ينشده مديحا في أمير المؤمنين - وكأنه يريد أن يروح عن نفسه - فأنشده ، ومن هنا حجب جرير عن الخليفة ، بينما الوفد دونه قد دخل أفرادة فأعطوا جوائزهم واستعدوا للرحيل ، فتوسل محمد بن الحجاج لجرير عند عبد الملك لما آلى جرير أنه لا يبرح أو يرضى عنه الخليفة ، حتى آذن له ، فاندفع جرير يقول :

أتصحو أم فؤادك غير صاح ؟
عشية هم صحبك بالرواح ؟!

فقال عبد الملك : بل فؤادك أنت .

وما زال ينشد حتى بلغ قوله في مدح عبد الملك :

ألستم خير من ركب المطايا
وأندى العالمين بطون راح ؟

فجعل عبد الملك يقول : نحن كذلك ومازلنا كذلك ، ثم قال : ردها على ، فردها فطرب ، ثم أمر له بمائة من الأبل وثمانية أعبد ، وكان بين يدى الخليلفة صحاف من فضة ، فقال جرير ، المحلب يا أمير المؤمنين ، فرمى اليه بواحدة منهن ، وقال : خذها لا نفعتك ، فقال جرير . والنشوة تسرى في أوصاله - بلى ، كل ما أخذته منك ينفعنى ان شاء الله . وصار جرير يفد على عبد الملك

من ذلك الحين وينـال جوائزه وجوائز من مدحهم من خلفاء بنى أمية بعده ·

**الغـرض منها :**

تضمنت القصيدة الى جانب الغرض الأصلى أغراضا أخرى ، اذ ان الغرض الأصلى فيهـا هـو المدح ، مدح الخليفة عبد الملك بن مروان والأمويين ، والشاعر قد مزج مدحه بغرض آخر هو الاستجـداء وطلب النوال ، واتخذ من الشكوى مطية الى بلوغ هذه الغـاية ووسيلة اليها ، وهو يشكو من الشيب والفقر معا · ثم ضم الشاعر الى هذين الغرضين غرضا آخر هو الهجاء المتزمل برداء السياسة ، هادفا الى سحق المناوئين للخليفة ، وتوسيع دائرة مدائحه فيه ، فخذلان هؤلاء المناوئين يعنى حسن بلاء الخليفة وعظم قوته وسلطانه ، وبالتالى يؤدى الى سعة ملكه ·

والشاعر قد بدأ قصيدته بالشكوى والاستجداء ليثير مواطن الأحاسيس الانسانية النبيلة فى ممدوحه ويؤجج الرحمة والعطف فى قلبه ويهز أريحتيه للعطاء والـكرم فشكا الشيب الذى أجهده ، وأقعده عن السعى والكسب ، وجعل العاذلات يسخرن منه ويتهكمن عليه ، بعد أن كن يتحببن اليـه ويتقربن منـه ، واليوم يصـادرن تبختره واختياله ويأبين عليه مثل هذه الأشياء ، وقد وجـد فى الخليفة خير من يكفيه هـؤلاء العوازل ، ثم اتجـه فى شكواه الى الفقر الذى اصطلح عليه وعلى زوجته وأولاده، فباتوا يتضورون جـوعا ، وباتت زوجته تلهى أولادها بالطعام وقرب نضجه ، فيمم جرير وجهـه شطر الخليفة مستغيثا بسيبه وكرمه : وقد جاء هذا الغرض فى ثمانية أبيات من ١ ـ ٨ ·

وهنا وصل الى الغرض الأساسى للقصيدة ـ المدح ـ فمدح الخليفة والأمويين فى ستة أبيات ـ ٩ ـ ١٤ .

ثم أتى غرض الهجاء ، فندد فى شعر سياسى بخصوم الخليفة ومنافسيه وأثبت فى تضاعيفه مدائح أخرى لعبد الملك وبنى أميه ، وجاء ذلك فى بقية القصيدة وهذه الاغراض على الرغم من تنوعها وتعددها تتعاضد وتهدف الى غاية واحدة فقد استطاع الشاعر بما أوتى من مقدرة وحاسة فنية أن يبرز غرضه الأصلى وأن يجعل كلا من الغرضين الآخرين وسيلة الى بلوغ هذه الغاية ، فنراه يفزع الى الخليفة طالبا منه العون على العواذل ، وفى فزعه اليه مدح له ، وحين تسور داره الفقر واقتحم ساحتها لم يجد أمامه من ملجأ الا أن يلجأ الى الخليفة ، وفى لجوئه اليه مدح له ، كذلك حين هجا أعداء الخليفة ، فقد هجاهم بالضعف والخور والالحاد والحيدة عن الطريق السوى ، ومدح الخليفة باضداد هذه الصفات اذن فقد قامت لحمة بين الاغراض ، وكأنما اجتمعت لتتآزر جميعها على بلوغ ما يصبو اليه الشاعر فالقصيدة تتمتع بالترابط والتطور .

فما الغرض الأول الا مقدمة وتوطئة الى الغرض الأصلى ، وما الغرض الأخير الا توسيع لدائرة الغرض الأصلى ، على انه ليس من العيب أن تنضوى القصيدة الاموية والجاهلية من قبل تحت أغراض متعددة .

**المعنى :**

حجب الخليفة الشاعر أياما عن الدخول عليه ، جزاء عكوفه على مدح الحجاج كادت نفسه خلالها أن تتمزق ، ودنا وقت الرحيل ولما يظفر شاعرنا بما يأمل من الخليفة ، بينما الوفد دونه قد عب ونهل ، واعتصره

الألم وفعلت به الهواجس أفاعيلها ولهذا ما كاد الخليفة يأذن له حتى أقبل عليه يسأله فى لوعة ومرارة ؛ أترك ما هو سادر فيه وأقلع عن غيه ، ولاذ بالحكمة والرشاد ، أم لا ؟ فقد طال تمنعه عليه حتى فات الوقت وحانت ساعة الرحيل ، ولم يستمتع بمدائحه الرائعة ـ انه يجذب اليه انتباهه ويحفزه للاستماع والاصغاء ٠

وانطلق فصور شيبه الذى اشتعلت منه رأسه ، وأغرى اللائمات به فصددن عنه وانكرن عليه تبختره واختياله ، وهو ازاء هذا الصدد ينكر عليهن ما ينكرنه عليه ويلمنهن ويطمئن نفسه الذائبة ألما وحسرة على شبابه الذى ولى وأدبر بنصرة الخليفة له واظهاره على هؤلاء العوازل ، ولم لا ؟ والخليفة القوى الفتى الكريم الأصل ٠

لقد جلب عليه شيبه وضعفه الفقر وكساد الرزق ، فهو وزوجته وأولاده يعانقون المسغبة ويقاسون ويلات الحرمان ويعانون آلام الجوع ، غير أن بارقة أمل لاحت فى سماء زوجته « أم حزرة » مبعثها هؤلاء الذين يردون الماء بأيلهم ، وهى تمنى نفسها بالغنى بعد سد العوز ، وقد حملتها أمنيتها على أن تسرى عن نفسها ما هى فيه وتتعزى انها وهى الجائعة الساغبة تشغل أولادها وتلهيهم بماء فوق نار تغليه لتوهم فلذات أكبادها بقرب نضج الطعام ، وتعدهم بمأدبة شهية ، وهى تغلى غليان المرجل لجوعها وحسرتها على أولادها ٠

وقد حثته هذه المكابدة والمعاناة على أن يؤم ساحة الخليفة ليغترف ـ كما يغترف الناس ـ من فيض بحوره ، فهو البحور عطاء وندى ، وهذه الفكرة راقته فرحل عن زوجته وأمل كبير يحدوه الى الخليفة ، ولهذا طلب منها ٠ فى أسلوب الأمر المتفائل ان تكف عن لومه فاللوم يؤذيه أيما أيذاء ، وأن تنتظر الثراء الذى سيعود به اليها

من الخليفة . وهنا يقفز ايمانه وتدينه ، فيدعو زوجته الى الثقة بالله الذى يعطى من يشاء ويهب ويسبب له الأسباب ، والى الثقة بالظفر بالمأمول من الخليفة ، وبلوغه النجاح عنده ، فالذين يستميحونه يعودون من عنده بجر الحقائب قد ملأوها بالعطايا والهبات .
فاستغاث بالخليفة ، وجعل أباه وأمه - الشاعر - فداءه ، وطلب منه فى لهفة وحرقة أن يمن عليه بعطاء منه يسد حاجته وحاجة أسرته التى تتضور جوعا ، وحرك فى الخليفة سجيته وطبعه ، فجعله يهش للعطاء ويسر له ، فالكرم فطرى فيه .

نفذ الشاعر من هذه المعانى الى مدح الخليفة ، فقرر أن مدح الخليفة حق عليه ، وواجب لا انفكاك منه ، لأن الخليفة الذى اختاره الله ليسوس الأمة فطاعته واجبه ، ومدحه واجب .

والى جانب الزيارة والمدح يقوم الشكر ، والشاعر يجعل شكره مقابل ما ينعم به عليه ، فله فيه آمال تتمثل فى اعزازه بالغنى ، وتقويته بالجاه .

وما يصبو اليه الشاعر قد جعله هينا يسيرا على الخليفة وقومه ، فهم أشجع من ركب وامتطى ، وأكرم من أقلتهم هذه الغبراء وأظلتهم هذه الزرقاء .

والخليفة قد اتسم بالقوة وتفرد بالشجاعة وعرف بالكياسة وفن الحرب ، ولهذا خضع له هؤلاء القوم الذين سولت لهم نفوسهم الخروج عليه حين خرج لمحاربتهم فى جيش لجب ، مكون من كتائب جرارة ، تتآزر جميعها وتتعاضد على الفتك بهم فأسقط فى أيديهم وبلغت قلوبهم الحناجر ، فخضعوا وأذعنوا . وقد دلل الشاعر على هذه القوة بحروب الخليفة فى بلاد العرب ، وقضائه على ابن الزبير القضاء المبرم ، واستخلاص

الحجاز منه ، واعادتها الى سلطانه وحاشا لحمى الخليفة ان يستباح فالخليفة وقومه قد عظم سلطانهم ، فملكوا كل شيء ، الجبال الشامخة ومصاب المياه ومسايلها فى الأرض .

ثم التفت الى ابن الزبير فقرعه والذين اتبعوه ، ورماهم بالالحاد والعزوف عن جادة الصواب ، ووصف خروجهم بالعناد والنفور ، وعاد يشمت فى انهزام ابن الزبير ويهجوه .

ومضى من ذلك الى مدح الخليفة ، فجعل اعداءه يصورونه بالأسد الهصور ويقررون كرم أصله وطيب محتده ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

ويلح على هذا المعنى فيجعل الخليفة خير القرشيين ، كريم المنبت لبيته فضل وآثار وأمجاد وارفة ظلالها دانية قطوفها .

لهذا انقادت له الأمة واجتمعت تحت لوائه ، فقد رأى الناس فيه هداهم فنفضوا أيديهم مما أعوج ، ولاذوا بالاستقامة والطاعة ، بعد ان تبينت لهم الأمور واتضحت وتكشفت الحقائق وانبلجت .

أرايت أن جريرا فى هذه القصيدة ليس مادحا فحسب ، بل هو محام عن عبد الملك وحكمه ، يدافع عن حقه فى الخلافة ، ويندد بخصومه ومنافسيه ويهجم عليهم هجوما عنيفا ، ويسدد سهامه اليهم ، وهو من هذه الناحية يعد شاعرا سياسيا .

**الأفكار :**

اتسمت أفكار القصيدة الأساسية بالوضوح والترتيب

والتسلسل ، فقد نهجت نهجا منطقيا سليما اذ دارت حول تحبيذ الخليفة وتحفيزه الى استماع مدائحه فمادحه قد أزمع الرحيل ، ولما ضمن استماع ممدوحه اليه شكا اليه شيبه وضعفه وطلب منه المدد والعون ، كذلك شكا اليه ما ألم به من فقر نتيجة ما نزل به من شيب وضعف وصغر أولاد ، ووضع أمام ناظره صورة الأم الجائعة وهى تلهى أولادها بوضع الماء على النار لتوهمهم بقرب نضج الطعام ، وهذا كله قد حمله على أن يقصد الخليفة ليغترف من بحور نداه وكرمه ، وقد ترك أولاده وزوجته بعد أن مناها بالغنى ، ودعاها الى الثقة بالله ، واليقين من نجاحه وبلوغه المأمول من الخليفة الذى استغاث به عندما مثل بين يديه ٠

خرج من ذلك الى مديح عبد الملك ، فقرر أن مديحه حق وواجب عليه ـ أى على الشاعر ـ لأنه الكريم المعطاء ، وأنه الذى تفوق على سائر الناس فى الخيرية والكرم والشجاعة ، التى ظهرت فى حرب الخارجين عليه وفى قضائه على الفتن فى ضمه الحجاز اليه بعد أن قضى على ابن الزبير قضاء مبرما ، وأن الخليفة وقومه قد ملكوا كل شىء فاستولوا ببأسهم وقوة جيوشهم على رءوس الجبال وسمايل البطاح ٠

ثم انطلقت أفكاره تذود عن حياض الأمويين وتوبخ الخارجين عليهم ، ووقف عند ابن الزبير فندد به ووصف خروجه بالعناد وحب الخلاف ، وأبرز ضعف هؤلاء الخارجين المناوئين ، وأشاد بقوة الخليفة فجمع له القوة والشجاعة والندى والكرم وأصالة المحتد وعلو الشرف وبعد الهمة ونفاذ البصيرة وانقياد الامة له واجتماعها تحت لوائه ، لأن الخليفة وأسرته هم الجديرون من بين القرشيين بالخلافة ، بهذا التقرير يختم قصيدته ٠

والأفكار كلها ، كما ترى مترابطة ، تتآزر جميعها للنهوض بالغرض الأصلي وأنها تتسلسل تسلسلا منطقيا، فكل فكرة تسلم الى أختها وتعضدها ، وعلى هذا فالقصيدة تتمتع بوحدة تربط بين أفكارها وان تعددت أغراضها .

ـ لقد استطاع جرير بما أوتى من مقدرة فنية أن يأتى بهذه اللفتات الذهنية فى تسلسل ووضوح ، فما فى أفكاره هذه فكرة غامضة أو مبهمة ، وما فى القصيدة وصف الا وينطبق على حال موصوفه . وذلك راجع الى أن جريرا لم يوغل فى الأفكار البعيدة الغور ، ولم يجنح الى التكلف ، فأفكاره تكاد تكون فطرية قريبة تجرى على طبعه فى اللين والتواضع .

الى جانب أنه لم يشأ لصفاته أن تأتى على نحو من التداخل بعضها فى بعض .

ـ ويلاحظ على هذه الأفكار : الاسهاب والالحاح على الفكرة ، وذلك حين يرغب الشاعر فى جلائها وعلاجها فى أبين صورة ، ولهذا يختار لها أوجها وصورا جديدة ، ففكرة البيت الحادى عشر نراه يلحف عليها ويأتى بها فى البيت السادس عشر ، ويؤكد عليها ويعلل لها فى البيت السابع عشر .

ـ وهذه الظاهرة تكشف لنا عن الوصوح والاشراق الذى يتمتع به شعر جرير .

ـ قربها من الواقع ، وصلتها بالبيئة ، فالشاعر يلجأ الى مظاهر البيئة الطبيعية من جبال وسيول تغمر الأرض

وأسـود وابل وثيران وأشجار ملتفة ، يستعين بها على توضيح أفكاره وتقريرها ٠

ـ تصويرها الدقيق لنفسية الشاعر : يكشف عن هذه الظاهرة اللين والتبسط والقرب ، والتدين والثقة بالله على نحو ما حمل الينا البيت السابع ٠

## الخصائص الفنية

## فى الأسلوب والصور الأدبية

لا شك أن الأسلوب انما هو الصدى الحقيقى لقوى المشاعر والعواطف والانفعالات التى يعبر عنها ، وهذه الأبيات قد تضمنت أفكارا كثيرة متنوعة وعواطف متباينة متعددة، أثرت فى النفس تأثيرا بالغا واستحوذت عليها ذلك لأن الشاعر قد تخير لها معرضا رائعا من معارض القول المهذب المصقول والا فما يكون لها أن تبلغ هذه الدرجة من التأثير فى النفس ، إذ ان الأفكار والعواطف لا تستوى على النفس ولا تصل الى نياط القلب الا اذا كان ثوبها الذى تعرض فيه قشيبا رائعا حسن الديباجة ، جميل السمت ليس باليا مهلهلا أو سوقيا مبتذلا أو رثا ركيكا ، فالألفاظ المنتقاة المختارة تضفى على العواطف والأحاسيس بهاء ونضارة ، وتخلع على الوجدانات والمشاعر ألوانا وظلالا ، وتكسب المعانى والأفكار جلاء وخلودا .

وأفكار ومعانى جرير الفطرية انما نبلت وعظمت فى أعين أولى البصر بالشعر لأنه صبها فى قوالب الألفاظ الجزلة ، والعبارات الرصينة المنسجمة والأساليب الشامخة المتسمة بالضحولة ، ومن أجل ذلك كتب لشعره الخلود واحتضنته القلوب والنفوس ، ولثمته العيون والآذان .

والذى يسعى وراء خصائص الشاعر الفنية فى الأسلوب يجدها متمثلة فى :

هذه اللبنات اللفظية التى شيد منها صرحة الأدبى، فهى جميعها تتمتع بالنقاء والجلاء والجزالة والدقة

والاحاطة بالمعنى وحسن الجرس الموسيقى وخفة الوقع على السمع ، فلا ترى فيها لفظة نابيه مبتذلة أو قلقة فى مكانها أو غريبة نافرة أو وحشية تستثقل الأذن وقعها أو جرسها الموسيقى ، لهذا كله فأنت لا تنكر منها لفظة واحدة .

وكأنى بالرجل قد تضافرت معه شفافية نفسه ورهافة حسه وعلمه باللغة فانتقى ألفاظه انتقاء ، وأتت تحمل كل سمات الحسن والروعة من صفاء ودقة ووقع أخاذ . الألفاظ الموحية : تلك التى تحمل فى تضاعيفها الى جانب معناها معانى أخرى ، فهى ذات أشعاع تدرك النفس تأثيره ، فمثل هذه الألفاظ يشع بريقها وتأثيرها فى أرجاء النص الأدبى وينعكس على نفس المتأمل المتذوق ، وهذه الألفاظ تحمل الى الفكر من الصور والظلال والمعانى والايحاءات ما لا ينهض بأدائه غير الكلام المسهب المطنب .

وقصيدة جرير هذه تعج بهذه الايحاءات التى تسطع أمام المتأمل المتذوق ، من ذلك : لفظة « تقول » فهى توحى - الى جانب معناها - بتجدد حسرة الشاعر وتلاحق أساه ازاء طعنات العاذلات المتلاحقة ، فكأنه غارق فى أساه سابح فى دماء طعناتهن ولفظة « تعلل » تشعر - بالاضافة الى مدلولها - بأن هذه الأم كثيرا ما كانت تفعل ذلك مع أولادها الذين يتضورون جوعا وبالحافهم فى طلب الأكل ، فكأنهم ينامون فينهضهم الجوع ، وتتكرر هذه المأساة ، كما تصور الأولاد فى صورة من لم يبلغوا بعد درجة الادراك والوقوف على الحقائق .

وما أجمل ما اعترض به بين الفعل والمفعول حين قال : « وهى ساغبة » فهى جملة تؤكد جوع الأم أيضا وسغبها ، وتوحى بأنه قد اجتمع عليها ألمان : ألم الجوع

وألم ما تعانيه من جوع أولادها ، وعدم قدرتها على أن تصنع لهم شيئا يرد عنهم غائلة الجوع .

وكلمة « أنفاس » توحى بالتقليل والتحقير ، وقد كان بارعا عندما أتى فى البيت التالى مباشرة بكلمة « البحور » موحية بالخير والفيض العميم ، فبينما أم حزرة لم تجد الا أنفاسا حقيرة من الماء اذا بالخليفة بحور تحوى كل الخير والنماء وفى هذا تصوير لأولاده وزوجته حين أشرفوا على الموت جوعا بصورة الأرض التى أوشك زرعها على الجفاف بسبب نضوب الماء ، فهو يسعى الى البحور من أجل أن تمده برافد يعيد الى أهليه الحياة بعد ما كادت تجف ، وهذا الذى يسعي اليه لن يكلفه من أمره عسرا ، لأن كرم الخليفة وجوده طبيعة وغريزة فيه ، فلا يحتاج ليفيض سيبه الى كثير قول أو اطالة رشاء ، فالحصول على عطاياه سهل وميسور ، كما أوحت عبارة « سامتاح » .

ولفظة « النجاح » تضفى علينا شعورا باحساس الشاعر بقدومه على امتحان صعب يامل فيه النجاح والتفوق ، ولم لا ؟ وبلاط الخليفة يغص بفحول الشعراء؟ هذا من جانب ، ومن جانب آخر ادراكه مغبة موقفه من الخليفة باقتصاره على الحجاج . وجملة «أنبت القوادم» توحى بأحاسيس ومشاعر استولت على الشاعر ، فأنبت توحى بعدمه وفاقته ومحله وجدبه ، فهو مملق لا يملك من حطام الدنيا شيئا ، وبأنه مثل التربة الطيبة الصالحة للزرع ، وهذه الصلاحية تعنى طاعته للخليفة واعتناق مذهبه السياسى ، ولهذا فهو أهل لاسباغ النعمة وجريان الرزق عليه . والايحاء فى القوادم - وهى التى تحمل الطائر على الطيران - يأتى من أنه أراد بالنعمة التى يسبغها الخليفة عليه أن تكون كفلق الصبح وضوحا ، يتحدث بها الركبان وتتناقلها الأخبار ، لا تسد رمقه فحسب ، وانما تحلق به بأجنحة قوية فى صفوف الأغنياء .

الى غير هذه من الألفاظ الموحية كلفظة « سموت » التى تحمل ـ الى جانب معناها ـ معنى آخر ، فتوحى بسمو الخليفة على الجميع وعلوه فوقهم والفاء فى « فدانوا » اذ تشعر بهيبة الخليفة البادية وجلاله وقوة جيوشه ، مما جعل أعداءه يخضعون له ويذلون منذ أدركت أبصارهم عظم سلطانه وجلاله بهائه ، فتبصروا على التو فداحة ما هم مقدمون عليه ، فعادوا فى سرعة البرق وأنابوا وأذعنوا . ويضيق بنا الوقت والمقام اذا تلمسنا كل الألفاظ الموحية ولهذا نكتفى بما أشرنا ، اعتمادا على ذوق القارىء وحسن تأتيه وسيره على الدرب .

ملاءمة الألفاظ للمعانى : معروف ان الألفاظ ليست بمثابة واحدة وأنها ـ كما يقول ابن الأثير فى كتابه « المثل السائر » ـ تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر وقد حملت هذه القصيدة الينا ما يكشف عن ادراك الشاعر وتقديره للأبعاد الفنية لهذه الحقيقة ، فنراه قد أبدع حين لاءم بين الفاظه ومعانيه ، ولا ريب فهو عندما شكا شيبه وفقره وجوع أولاده واستجدى جاء بألفاظ وعاء لهذه المعانى تفيض رقة وعذوبة وتذوب شفافية ولطافة ، فناسبت معانى هذا اللون ولاءمته خير ملاءمة ، فالشكوى والاستعطاف لا يلائمها الا هذا النوع من الألفاظ ؛ وعندما مدح الخليفة وأشاد بحروبه أتى بألفاظ جزلة قوية تلائم معانيها ، كدهم ، وململمة ، ورداح ، وحمى ، وشم الجبال ، والرواسى وهبرزى ، وغيرها من هذه الألفاظ التى تحمل مهابة ووقارا وتتضح قوة واقتدارا ، فألفاظه ومعانيه متلاقية متآخية ، يأخذ بعضها بحجز بعض .

جمال البناء : فالشاعر فى هذه القصيدة لم تخنه قدرته الفنية على تجويد الرصف وحسن التأليف بين مفرداتها ، فجاءت لهذا تراكيبه مترابطة قوية واضحة ،

لا تفكك بينها ولا تعقيد فيها ولا التواء ، يغلب عليها الايجاز غير المخل .

التصوير الأدبى : وهو ينهض على التشبيهات والاستعارات الكنايات والمجاز ، والتجسيم والتشخيص، الى جانب الحقيقة والتقرير ، وجرير فى هذه القصيدة شاعر مصور ، فقد أمده خياله اللماح بكثير من الصور، جعلت معانيه حبيبة الى النفوس شديدة التأثير فيها قريبة من القلوب كثيرة الاستحواذ عليها ولذا رأيناه يشبه الخليفة بالثور الوحشى لبياضه ، حين أراد ان يجمع له القوة وطيب المحتد . ( فى البيت الثالث ) ويشبهه بالأسد وبالأشجار الطيبة الكثيرة الملتفة حين شاء أن يصف قوته وعظم قدره وكرم أصله ( فى البيت السادس عشر ) فضمته البيت تشبهين ونجده يشبه نفسه بطائر ثم يحذف المشبه به ويرمز اليه بشىء من لوازمه وهو « القوادم » على سبيل الاستعارة المكنية ، ويأتى بعبارة « فى جناحى » ليرشح الاستعارة ويقويها ، ومن الممكن أن يكون هذا الشطر كناية عن التقوية ـ ومن الصور التخليلية استعاراته التى جمعها بيته الأخير حيث شبه انبلاج الحقائق ووضوحها بالبضيزة ، وشبه معوج الأمور بالمراض اللائى لا يقوين على شىء من حركة أو نهوض أو استمرار ، وقويم الأمور بالصحاح ، واسناد الفعل « بينت » اليها ترشيح لها وتاكيد ، الى جانب ما فى هذه الاستعارات من تجسيم ـ هذه الأشياء المعنوية ـ وتشخيصها ، ومن قبل نراه يحلق فى البيت السادس فيستخلص لممدوحه استعارة تمثيلية رائعة الحسن فاتنة ساحرة .

وهذا التخيل عن طريق الاستعارة يجمل المعنى ويجعله قريبا من النفس وأشد لصوقا بها ، وهذه الصور والأخيلة تجلعنا نمضى مع النص ـ وما أحلى المضى معه ـ

فتطالعنا الكنايات كالتى فى قوله : «رددت على ريشى» وهى كناية عن اغنائه أى الخليفة للشاعر ، وفى الشطر الثانى كناية عن التقوية ، وفى البيت الرابع عشر كناية عن عظم سلطان الخليفة وسعة ملكه ، وفى البيت السابع عشر كناية عن طيب أصول الخليفة وعراقة نسبه ، وفى قوله : «علاك شيب» مجاز عقلى حيث أسند الفعل الى الشيب الذى يكون نتيجة توالى السنين وتتابعها . وجدير بالذكر أن نشير الى أن التصوير لم يقف بالشاعر عند هذا الحد ، فبيته الحادى عشر يحمل صورة تقريرية لفته فى ثوب الحقيقة ، فقد أخرج معناها مخرج الأمر المقرر المسلم به ، والذى لا سبيل الى انكاره ، فى هذا الأفق الأعلى ، فأمال به عطف ذلك الخليفة الغاضب عليه واستفزه من موطن حلمه ، فقد خرج من بين نفييه الكامنين فى الاستفهام ولستم بالاثبات لأن نفى النفى اثبات ـ كما يقول النحاة ـ فأنت لذلك لا تملك الا الاقرار والجواب ببلى ، والاعجاب كما أعجب به المتقدمون ووصفوه بأنه أمدح بيت قالته العرب .

والشاعر الى جانب هذا كله ملم بما يمنحه جمع المعانى المتآلفة أو المتناقضة فى النفس من زيادة الايضاح والتبيين ، ومن ثم فلم يفته ان يوشى أسلوبه ببعض ألوان البديع ، دون أن يتكلف لها أو يسرف فيها ، لذلك نجده يطابق بين : أتصحو وغير صاح ، وبين سموت ، ودانوا ، وأبحت وحمى ، والجبال والسيل ، والمراض والصحاح .

ويجانس جناسا اشتقاقيا فى قوله : سأمتاح وامتياحى ، ويجانس جناسا ناقصا فى القوافى تكشف لنا عنه « امتناح وامتياحى وامتداحى ، ونجاح وجناح وراح ورداح ، ونواحى وضواحى .

كذلك رد الاعجاز على الصدور ، كما فى البيت

السادس والبيت الثــالث عشر والبيت الخامس عشر ٠
والتجريد ، اذ يقول : دعـــوت الملحدين أبا خبيب ٠٠
جمـــاحا فقد جرد من مهجوه ملحدا نافرا ، زيادة فى
المبالغة فى طعنه وسحقه ، والالتفات وفيه يجول الذاهن
من أفق الى أفق آخر جديد ، شأنه فى ذلك شأن الطـائر
الغرد يتنقل من فنن الى فنن ومن غصن الى غصن ، ولذلك
نراه ينتقل من خطاب الخليفة الى قول العاذلات له ـ أى
الشاعر ـ الى نفسه فيتساءل ، الى انسان جرده من نفسه
فتحـــدث اليه ، الى الحديث عن أم حزرة ، وهكذا نراه
ينتقـــل من مخاطبة عبـــد الملك الى ابن الزبير ، الى
الحديث عن عبدأ الملك ثم الحديث اليه ٠

وأسلوبه موزع بين الانشاء والخبر ، وهو فى كلتـا
الحالتين مستحوذ على انتباه واهتمام سامعه ، وظافـر
بمشاركته اياه ما هو بصدده ، وجامع بيديه معاقد قلبه
وخاطره ووجدانه ، فقد جود فى اهاب الأسلوب الخبرى
ونفخ فيه من روحه ، انظر الى ذلك الأسلوب الانشـائى
فى « أغثنى » تراه مشعرا بلهفة الشاعر وحرصـه البالغ
على عطاء ممدوحه ، ومصورا حرقته ومدى ما يعانيه ،
والى ذلك الأســلوب الخبرى فى تقريره الرائع « انك
ذو ارتياح » تراه وصـــفا دقيقا بارعا لطبيعة الممدوح
الذى جبل على الكرم ، فتهش نفسه للعطاء ويســعد به
ويسر ، لأن الكرم غريزة فطرت عليها نفسه وليس صفة
مكتسبة ٠

أرأيت أن كلا الأســلوبين فخم ورائع ورائق عنـد
الشاعر ، وأن كليهما يتمتعان بالرواء والبهاء والمائية ٠

هذا بالاضافة الى أن الشاعر برع باستخدامه أسلوب
الحوار الذائع فى القصيدة لقدرة هـذا الأســلوب على
الجذب الوجدانى والمشاركة الشعورية كما تتجلى لنـــا
براعته فى تصويره لأحاسيسه النبيلة البادية فى هـــذا
الموقف الانسانى المتلألىء فى البيت الرابع حتى الحادى
عشر فى قالب قصصى ٠

## الاثار العاطفية والنفسية

لما كانت العاطفة الأدبية تعنى تلك القوة التى يثيرها الشاعر فى نفوس قرائه ومتذوقيه . ولما كان الشاعر لا يتكلف التماس الوسائط الى سامعه أو قارئه وانما يهدف ويقصد الى مصارحته وايصال تجربته الشعرية اليه ، رغبة فى أن يشاركه السامع فيها ويكون كأنه هو نفسه قد جربها وعاشها ، فيشعر شعوره ويحس احساسه ، فان القارىء المتذوق يعيش تجربة جرير هذه بكل أبعادها ، ولا يكاد يفرغ منها الا حين ينهيها الشاعر . وذلك لانها :

بريئة من الفراغ والسكون ، خالية من التعطل والجمود ، اذ أنها حافلة بالحركة والحياة ، غنية بالعواطف الانسانية ، زاخرة بالانفعالات النفسية ، فأبياتها تفيض بالعواطف المختلفة ، وتزخر بالاحاسيس المتباينة ، وتصور نفسا شفها الأسى واللوعة ، ورفقها الحزن والحنين والاشفاق والحذر ، واقض مضجعها شيب وفقر ثم نهض بها أملها الذى لاح فى سماء الخليفة الى جانب الاكبار والاعجاب بهذا الممدوح ، وألهبها الغيظ والغضب من منافسى ممدوحه .

فانت لاتكاد تنتهى من التأثر بعاطفة حتى تشعر بعاطفة أخرى تغمرك وتستولى على أفئدتك ، فالعاطفة فى قوتها وصدقها وعمقها واثارتها مطردة فى القصيدة وفنونها ، على الرغم أن المديح من الأغراض التى تقل فيها مظاهر العواطف المتقدة ، لأنه قليلا ما يتصل بالقلب ، فالشاعر قد واتته حاسته المرهفة ومقدرته الفنية أن يلون قصيدته – حتى المديح فيها – بلون شعوره ووجدانه وأن يصبغها بأحاسيسه ، وأن يجعلها مرآة تكشف عن خاطره

ونفسه ، ومن هنا يتضح لنا أن عاطفة الشاعر فى هذه القصيدة نابعة من قلبه فهى لهذا صادقة .

ومظهرها فى الغرض الأول ـ الشكوى ـ الحسرة على الشباب الذى أدبر والأسى لهذا الشيب الذى حل بساحته ، والتبرم والضيق بقول العاذلات .

ثم هذا الاحساس النبيل ، الذى فاض به الشعور الأبوى الرحيم تجاه صغاره الذين لم يبلغوا بعد درجة الادراك ، وعاطفة الامومة التى تاججت فى صدر أم حرزه . ان الشاعر قد صاغ احساسه فى حرارة وصدق ، فقرن خفقات قلبه بخفقات قلوب زوجته وأولاد ، وقد دثر أحاسيسه النبيلة بعاطفة المرارة والخوف والاشفاق والحذر ، والصدق العاطفى واضح أتم وضوح . ثم يسرع جرير الى فن آخر هو المدح ، وفيه تبرز عاطفة الاكبار والاعجاب بالممدوح ، والشاعر كان موفقا حين عمد فى نقل هذه العاطفة للنفوس الى الاكثار من تعداد السجايا الكريمة ، واسباغه على ممدوحه صفات موحية عربية أصيلة ، استطاع عن طريقها أن يكبح جماح نفسه ، وأن يستولى على قلبه الذى كان قد عزف عنه ، وأن يقيم منها البراهين على تفوق ممدوحه على سائر الناس ، ولهذه الغاية لجأ الشاعر الى الشعر السياسى فانتصر للخليفة وندد بخصومه ومنافسيه ، وهنا أظهر عاطفة الغضب والكراهية والموجدة ، ليصب ويلات غضبه ونقمته على هؤلاء المنافسين وقد أبدع اذ اتخذ من مثالب الخصوم ومعايبهم مفاخر ومآثر لممدوحه فشاد بأصله وحسن بلائه وتغلبه على هؤلاء الاعداء .

والعاطفة فى هذين الفنين تحمل فى تضاعيفها من قلب الشاعر عاطفة لا تخفى آثارها ولا تغيب عن الناظر ملامحها من الود والحب ، وسماتها من التأييد والقرب والدفاع والمحاماة .

والقصيدة بعد هـذا كله تكشف عن نفس الشـاعر وتصورها تصويرا دقيقـا ، وقوتها تكشـف عن حالتـه النفسية ، فالخليفة ـ كما رأيت ـ ينأى عنه ويتمنع ، وقد أوشك الشعراء على الرحيل ، بيد أنه لم يظفر من الخليفة بجـائزة كان يطمح اليهـا ، وفى حرمانه من الجـائزة خسارة مادية وأدبية معا ، ففى الحرمان ضياع عياله ، وضياع مجده الأدبى وهو مجـد حريص عليه فى الموقفين فكان لهذا تتحرق نفسه وتذوب ألما ولوعة ، فأبدعت هذا النمط من الجمال الفنى الرقيع ليستل سخيمة الخليفة ، ويحول غضبه عليه الى رضا عنه ولعله لكل ما عانى من تطلع وترقب والتياع وتحرق استهل قصيدته بهذا المطلع الذى عابه عليـه النقـاد ، وهم لو أدركوا ما عـانى ما عابوه .

وهذا المطلع يحمل الى جانب تصويره نفس الشاعر ادراكه لمكانته الأدبية التى أعلى صرحها فى ظل الحجاج ، وتألقـه فى فن النقائض ، وسيرورة شـعره ، وهـذا الاحساس يتراءى لنا فى قوله يخاطب الخليفة :

أتصحـوا أم فؤادك غير صـاح
عشـية هم صحبك بالرواح ؟

فهو يحمل استعلاء الشاعر بنفسة ، ويقينه من حاجة الخليفة اليه ، وكأن جريرا يمنحه فرصة أخيرة لن يظفر بمثلها اذا يترك ما هو سادر فيه من اقصاء له وتجـاهل لأمره ..

والقصـيدة ـ بعد هـذا العرض ـ تصور ذوبان الشاعر فيها بمشـاعره وأحاسيسه وعكوفه على نفسـه وتحليلها ، لذلك فالانسان يجد فى مثل هذا الشعر تجاوبا مع نفسه فى منحى من مناحيها ، فالأحاسيس الانسانية

النبيلة العميقة يشـــترك الناس جميعا على اختـــلاف ألوانهم ـ فى الاحساس بها والتجاوب معها .

ولا شك : فشعر جرير يصدر عن طبع دفاق ، وعاطفة فياضـة .

## الموســـــيقى :

من المقرر الثابت أن الشعر الذى يفقد الموسيقى انما يفقد أهم مقوماته ، وأن الشاعر المبدع الخلاق هو الذى يبرع فى ايجاد التناسب الموسـيقى وخلق التناسق الفنى بين فقرات قصيدته جميعها ، وجرير قد توفر على هذا الابداع فى هذه القصيدة فموسيقاه تتمشى مع أفكاره ، وتتساوق مع معانيه ، وتتجاوب أنغامه ونبراته مع حالته النفسية ، فأنغامه صدى ورجع عاطفته ، ولهذا بلغ شعره من نفوسنا مبلغا عظيما ، فليس الشـعر فى الحقيقة ـ كما يقول الدكتور ابراهيم أنيس ـ الا كلاما موســـيقيا تنفعل لموسيقاه النفوس ، وتتأثر بها القلوب (١) :

وجرير قد أودع درره التى حملتها هـذه القصـــيدة بحر « الوافر » وأوزانه « مفاعلتين » مفاعلتن «مفاعل» ـ أو فعولن ـ مكررة فى كل شـــطر ، وفى هـــذا البحر تناسق موسيقى مطرد فى كل شـطر وانسياب فى النغم ، ويتمتع بالتـــدفق ، غير أن نغمه المتدفق ينبتر فى آخـر الشطر ، فيحدث هذا الانبتار مفاجأة شديدة ، يكون له أثر عظيم فى موسيقاه وأنغامه ، اذ يضفى هذا الانبتار على موسيقى الوافر رنة قوية ، تجعله فائق القدرة على الاداء العاطفى ، ولهذا اختـــار بحر الوافر ليصب فيه عواطفه المتعددة فبحر تلك طبيعته يتســـع لعواطف الشـــاعر ،

---

(١) موسيقى الشعر .

ولا تضيق ساحته بنفس الشاعر وأحاسيسه ، ومن هنـــا نرى أن الشاعر قد وفق فى اختيار هذا البحر ، الى جانب انه قد وفق فى اختيار قافيته التى اختار لها حرف الحـاء المكسورة لتكون حرف روى ، تسبقت بحرف مد هو الالف وهو ـ كما يقول العروضـــيون ـ ردف ، فقافيته تمثل نفسه وعاطفته خير تمثيل ٠

والوزن والقافية يبعثان فى القصيدة وحدة وارتباطا فى موسيقاها لأنهما يشكلان معا مفتاح القصيدة ، وهما ـ أى الوزن والقافية ـ يحكمان الموسيقى الخارجية فى القصيدة والتى قامت الى جانبها موســيقى أخرى داخلية تحكمها قيم صوتية باطنية ٠

ومن ثم فجر يرقد أبدع فى موسيقاه الداخلية ، فقـد استطاع بحاسته المرهفة ومقدرته الفنية أن يشــيع فى تضاعيف قصيدته ألوانا من الموسيقى رائعة ، فنراه يعمد الى اختيار كلمــات ذات جرس موســيقى وزنة لفظية ويكررها ليبــالغ فى جرســها كقوله فى البيت الأول : اتصحوا أم فؤادك غير صـاح ؟ وتكراره للفظة الشيب فى البيت الثانى وهو هنا يفيد معنى الحسرة ٠

ويرد أعجاز الكلام على صــدره ، كما فى البيتين : الثالث عشر ، والخـــامس عشر وهــو يكسب البيت الذى يكون فيه أبهة ويكســوه رونقا وديباجة ، ويزيده ، مائية وحلاوة ويجانس فيســبغ الجناس على البيت الجرس والموسيقى والدندنة نتيجة وحــدة الجرس اللفظى ، ثم يطابق فينوع هذه الوحدة الموسيقية ٠

كذلك نجد أن الموسيقى الداخلية فى القصيدة تتبـع فى بعض الأبيـــات من ســيطرة حرف أو حرفين على البيت ، كالتاء المسيطرة على البيت الرابع ، والتى جاءت

على مســـافات معينة ، ومجيئها على هــذا النحو يعطى ايقاعا موسيقيا خاصا .

والحاء فى البيت الثالث ، فهى التى تمســـك بزمام النغم فى البيت الى غير هذه من ألوان الموسيقى الداخلية فى القصيدة .

والحق أنك لن ترى فى موسيقى هذه القصيدة نشازا أو نتوءا ، وانما ترى الألحان تتهادى،وتنساب رقيقة كالماء لطيفة كالنسيم ، ولست ترى فى قوافيه قافية مجتلبة ، أو مستكرهة على مكانها ، فقوافيها متمكنة ، تشير الى قدرة صـــانع أنغامها ، فقد عنى جرير بموســـيقاه الخارجية والداخلية عناية واسعة ، فمثلته خير تمثيل .

## القصيدة بين التأثر والتــأثير

تكشف القصيدة عن العوامل التى أثرت فى الشاعر ، والتى تمثل فى :

تأثره بالروح الدينية ، وهذا التأثر يبرز عمق ايمانه وثقته بالله عز وجل ، كما وضح فى قوله : ثقى بالله ليس له شريك ، ونبذه الالحــاد والمروق على حدود الله والى هذا يشير قوله الذى رمى به الخارجين على الخليفة :

دعــوت الملحــدين أبا خبيب
جماحا هل شفيت من الجماح ؟!

تأثره بالقصة الانســانية الخالدة ، قصــة عمر بن الخطــاب والعجوز أم الاولاد ، فقد اســتقى منها فكرته ونسج على غرارها قوله :

تعلل وهى ســاغبة بينها
بأنفاس من الشــبم القراح

تأثره بقول زهير بن أبى سلمى فى حصن بن حذيفة الفزارى :

تــراه اذا ماجئتــه متهــللا
كأنك تعطيه الذى أنت ســائله

فقال جرير فى عبد الملك :

أغثنى يافــداك أبــى وأمى
بسيب منــك انك ذو ارتيــاح

فكان أكثر توفيقا من سابقه ، فكل منهما جعل الكرم طبيعة فى ممدوحة غير أن جريرا ســد الذرائع أمام من تسول له نفســه الشــك فى الممدوح ، فهيهات لنفس أن تشك ، أما بيت زهير فقد رأى فيه قوم ما لم يخطر للشاعر على بال حين توهموا أنه يؤدى الى فـكرة الرغبــة فى الحرص على المال الذى يجود به الممدوح ، ومثل هذا لم يتطرق الى بيت جرير ، لوضـــوح معناه ونصاعته ، ولذا فلا يعتريه شىء من الغموض فى أذهان الناس .

ولنبل هذا المعنى تأثر به أبو نواس فقال فى الأمين يمدحه (١) :

على الأمـــين يمـين ... بالـلــه رب محمـــد
ألا يقـــول لـــراج ... رجـــاء : لا عن تعمد

بيد أن أبا نواس لم يوفق الى ما يصـــبو اليه ؛ فقد صور ممدوحه بالكزازة والشـــح من حيث لا يدرى ، وأن الكرم ليس أصلا أو جبلة فيه ، ولكنه اكره نفسه عليه حين أقسم عليها اليمين . ومما يؤكد الصـــورة عند ممدوحه أيضـــا قوله : عن تعمـــد . كما كان الأوفق تتمة للمدح ألا يجرى الشاعر « لا » على لسان الممدوح ، ليفهم أن من طبع الممدوح أن يقول نعم لمن رجاه .

فجرير على هـــذا أوفق الثلاثة وأبرعهم فى هـــذه الفكرة .

ولجلال الصور الأدبية التى توفرت عليها القصـــيدة فقد وجد فيها الشعراء مجالا للأخذ منها والاحتذاء بها ، بعد أن أثرت فيهم تأثيرا عميقا ، ومن هؤلاء أبو تمـــام

---

(١) ديوان أبى نواس ص ٢١٦ ( بيروت ) .

الذى تأثر بمعنى جرير فى بيته الحادى عشر والســـادس عشر فقال أبو تمام :

فتى فى يديه البأس يضحك والندى
وفى ســـرجه بدر وليث غضنفر

والحق أن جريرا نموذج راق بين الشعراء الأمويين ، وأنه مثل رائع من أمثلة الشعر العربى .

# الفــرزدق (١)

## التعريف بالشاعر :

همّام بن غالب بن صعصعة ، المكنّى بأبي فراس ، والملقّب بالفرزدق * ، شاعر تميمي ، قبيلته تميم من كبرى قبائل العرب وأعزها ، وهي فرع من مضر ؛ كانت العشائر والبطون التميمية تتغلغل في نجد ، وتمتد من اليمامة إلى شواطئ الفرات ، ولذلك كثر اصطدامها بكثير من القبائل اليمنيّة والربعية ، وبالحيرة وملوكها المناذرة ؛ وتميم مجموعة قبائل ، أشهرها : دارم ـ قبيلة الفرزدق ـ ، ويربوع ، ومازن ، ومِنْقَر ، وبنو الهُجَيم ، وبنو أنف الناقة ؛ وفي تميم يقول جرير :

إذا غضبت عليك بنو تميم    رأيت الناس كلّهم غضابا

ومن شعراء تميم المبرزين في الجاهلية : أوس بن حجر ، وسلامة ابن جندل ، وعلقمة الفحل ، وعدي بن زيد ، وفي صدر الإسلام عبْدة ابن الطبيب ، ومتمّم بن نويرة .

دخلت تميم الإسلام بعد فتح مكة ، ثم ارتدت ، فساق إليها أبو بكر الصديق جيشاً بقيادة خالد بن الوليد ، فأخضعها ، وسرعان ما عادت

---

( ١ ) انظر في ترجمته : الأغاني جـ ١٩ ، والأمالي للقالي جـ ٣ ، وتاريخ الطبري جـ ٤ ، وخزانة الأدب للبغدادي جـ ١ ، والشعر والشعراء لابن قتيبة جـ ١ ، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام ، ومعجم الأدباء للحموي جـ ١٩ ، ومعجم الشعراء والموشح للمرزباني ، ومرآة الجنان لليافعي جـ ١ ، وغيرها من المراجع .

* لقب بهذا اللقب : لجهامة وجهه وغلظه ، فالفرزدقة هي : الخبزة الغليظة التي يتخذ منها النساءُ الفَتوت .

تميم إلى الإسلام ، وهبطت البصرة وباديتها ، وشاركت بفاعلية في فتوح إيران وخراسان .

وكانت دارم التميمية شُعَبًا ، أهمها : بنو فقيم ، وبنو نهشل ، وبنو مجاشع ، وفي بيت عريق منيع من بيوتات بني مجاشع ولد الفرزدق في أسرة ذات شرف وسيادة وعزة ومنعة ، فأبوه غالب كان بحراً فياضاً ، من أجواد العرب وشجعانهم ، وفد على عليّ بن أبي طالب ﷺ ـ وغالب آنذاك شيخ كبير ـ ، فقال له عليّ : ما فعلت إبلك الكثيرة ؟ قال : ذَعْذَعَتْها الحقوق ، وأذهبتها الحمالات والنوائب [١] .

ومما يروى من جوده السيال : أن نفرا اختاروه بين طائفة من الأجواد يسألونهم ليفاضلوا بين جودهم ، فما كاد يسمع مسألتهم حتى أعطاهم مائة ناقة دون أن يعرفهم .

وكان جده « صعصعة » عظيم القدر في الجاهلية ، اشتهر بأنه كان يفتدي الموءودات وينهي عن قتلهن ، وقد افتخر الفرزدق بهذه المكرُمة لجده في مثل قوله :

وجدّي الذي منع الوائدا
ت فأحيا الوئيدَ فلم توأد
... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ...

---

( ١ ) ذعذعتها : فرّقتها . الحقوق : ما يلزم من حق الله ، والقريب والجار والضيف . والحمالات : جمع حمالة ـ بفتح الحاء ـ ، وهي الدية يحملها قوم عن قوم لا يستطيعون دفعها . والنوائب : جمع نائبة ، وهي الحادثة .

أبي أحدُ الغَيْثَيْن صعصعةُ الذي
متى تُخلف الجوزاءُ والنجمُ يَمْطُرِ
أَجارَ بناتِ الوائدين ومن يُجِرْ
على القبر يُعلَم أنه غيرُ مُخْفَرِ

وصعصعة كان أحد وجوه الوفد التميمي الذي قدم على الرسول ﷺ في المدينة للإسلام .

وكان الفرزدق يجير على قبر أبيه .

ولم يكن الفرزدق يتلفع بمآزر الشرف من قِبَل أبيه وحده ، فقد كانت أمه من أسرة شريفة ذات حسب ونسب في بني ضبَّة .

### حياته وأخلاقه :

في هذه الأسرة العريقة الماجدة ، وبين ربوع البصرة وبواديها ، وُلد « الفرزدق » حوالي سنة عشرين للهجرة ، في أواخر خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ففي أخبار الفرزدق أنه قال : « كنت أهاجي شعراء قومي وأنا غلام في خلافة عثمان » ، وخلافته امتدت من سنة ثلاث وعشرين إلى خمس وثلاثين للهجرة ؛ وفي أخباره أيضا أن أباه قدّمه إلى عليّ بن أبي طالب بعد موقعة الجمل سنة ست وثلاثين ، وقال له : إن ابني هذا شاعر ، فنصحه أن يعلمه القرآن .

وفي البصرة التي كانت مسرحاً لكثير من الأحداث ، ومنارة للعلم والفكر ورواية الشعر ، وعلى بساط بواديها نشأ الفرزدق ، وقد عُني به أبوه ، فتعهده برواية الشعر وكلام العرب ، وحمله على النظم ، ثم أخذ الفرزدق نفسه بحفظ القرآن ، استجابة لنصيحة عليّ رضي الله عنه ، وأظهر في

ذلك إرادة قوية ، حدّث أحد من رأوه في تلك الأيام ، قال : دخلت على الفرزدق فتحرك ، فإذا في رجليه قيد ، قلت : ما هذا يا أبا فراس ؟ قال : حلفت أن لا أخرجه من رجلي حتى أحفظ القرآن .

وقد نبغ الفرزدق في الشعر منذ نعومة أظفاره ، وكان متأثراً بتاريخ أسرته وأخلاق رجالها ، أكثر من تأثره بالبيئة المتحضرة في البصرة ، لقد عجزت هذه البيئة أن تؤثر في أخلاقه ، فظلت جافة غليظة ، أو في لسانه ، فظل سليم المنطق ، جزل العبارة ، وكان ـ كما كان أهل البادية ـ رحّالة ، لا يقر بمكان ، ولا يطيل بمحل ، يتنقل بين البصرة والكوفة والمدينة وأرض البلقاء بالشام ، كالطائر المغرد يتنقل بين الأفنان .

لقد كان الفرزدق منطويا على الأخلاق البدوية ، بما فيها من عصبية وغلظة وجفوة ، وكان لمفاخر قومه التي لا تدفع أثر عميق في نفسيته ، فقد أورثته هذه المفاخر والمآثرُ الزهوَ والخيلاءَ ، والاعتدادَ الجهير ، حتى إنه ليُعَدّ أضخم صوت تميمي في هذا العصر ، وجعله ذلك متمسكاً بتخرّق آبائه في الكرم ، فإذا باع إبله نثر أموالها على الناس ، لينتسب فيهم ، وظل يجير على قبر أبيه ، كما كان أجداده يجيرون ، وينحر ناقته على قبر صديقه بشر بن مروان ـ والي العراق لأخيه عبد الملك بن مروان ـ على نحو ما كان الجاهليون يصنعون ؛ وإذَنْ فقد كانت أخلاق الفرزدق من هذه الناحية متصلة بأخلاق الجاهلية ، بما فيها من إثم وفسق وشرب خمر ، وعصبية وغلظة ، وهو من هذه الناحية يمثل البدوي التميمي شديد الشكيمة الذي لا يدين بالطاعة للسلطان ، والذي لا يرى كفأ له إلا الملوك ، ولمَ لا وهو القائل ؟!

أمـا الملـوكَ فإنا لا نلـين لهـم
حتى يلين لضِرس الماضغ الحجَرُ

ولعله من أجل ذلك ظل طويلاً بعيداً عن القصر الأمـوي في دمشق .

وقد نشأ الفرزدق حديد اللسان ، يقذف المحصنات ، ويهجو من حوله ، كما في قوله :

لقد آبت وفودُ بني فُقَيْم بآلمِ ما تؤوب به الوفودَ

وقوله في مسكين الدارِميّ ابن عمه حين وجده يتفجع على زياد ابن أبيه عقب وفاته :

أمسكينُ ! أبكـى اللهُ عينَك إنمـا
جرى في ضلال دمعُها فتحدّرا

وكان الفرزدق ينفق أيامه ولياليه في اللهو والاختلاف إلى دور القيان ، وفي ذلك يقول :

إذا شئتُ غنّاني من العاج قاصفٌ
علـى معْصَمٍ ريّان لـم يَتَخَـدَّدِ (١)

على أنه لم يكن منسلخاً من الدين جملة ، بل كانت عاطفته الدينية تستيقظ أحياناً ، نلمح ذلك في مثل قوله :

---

( ١ ) أراد بالعاج : أساور العاج . وقاصف : من القصف ، وهو الجلبة . ريان : ممتلئ . يتخدّد : يتجعد .

أخاف وراء القبر إن لم يعافني
أشدَّ من القبر التهابا وأضيقا
إذا قادني يوم القيامة قائد
عنيف ، وسوّاق يسوق الفرزدقا

وفي تقريعه نفسه التي أطاعت إبليس تسعين عاما :

أطعتك يا إبليس تسعين حِجّة
فلما انقضى عمري وتمّ تمامي
رجعت إلى ربي وأيقنت أنني
مـلاقٍ لأيـام المنـون حِمامي

وكان الفرزدق مزواجاً ، تزوج زنجية ، وأعقب منها ابنته مكيّة ، وتزوج رهيمة النمرية ، وطيبة المجاشعية ، وتزوج النَّوار ابنة أعين بن ضُبَيْعَة المجاشعي راغمة ، فما زالت تغاضبه وتشاجره حتى طلقها ، وندم على طلاقها ندما شديداً ، يصوّره قوله :

ندمتُ ندامة الكُسَعِيِّ لما غـدت مني مُطلّقـةً نَـوارُ
وكانت جنة فخرجت منها كآدم حين أخرجه الضِّرار
وكنت كفاقِئٍ عينيه عمـدا فأصبح ما يضيءُ له النّهـار

يذكر ابن قتيبة أنه وُلدَ له لبَطة وسبَطة وخبَطة وركضَة من النوار ، وولد له أيضا زمْعة ، وكان شاعرا وإن لم يبلغ مبلغ أبيه في الشعر ؛ وفي تسمية الشاعر لأبنائه ما يدل على غلظ نفسه .

**شـعـره :**

كان الفرزدق في شعره يمتح من معين نفسه الحافلة بالعنجهية ، المقرورة بالصلف والكبرياء .

تهيأت للفرزدق أسباب الشعر منذ صغره ، وما زال يتدرج في مراقي الشعر حتى أصبح شاعراً فحلاً لا يشق لع غبار ، فقد مكنت له في ميدان الشعر عوامل كثيرة ، من أهمها :

ـ موهبته القوية وملكته الفذة اللتان ظهرتا في نفسه ولسانه باكرا .

ـ موروثه الشعري عن جده « صعصعة » وخاله العلاء بن قرظة ، اللذين كانا يقرضان الشعر ، ويبدعان في ساحته .

ـ تعهّد أبيه إياه برواية الشعر وكلام العرب ، مما كان له أثر في تفتق موهبته عن أكْمَامها .

ـ شرف قبيلته ووفرة مآثرها جعل صوته جهيراً في دنيا الفخر .

ـ بيئة البصرة التي في روابيها نما ، وفي سمائها سما ، والتي كانت وقتذاك مركز الأدب والشعر والعلم والفكر ، كما كانت موطنا لـ « سوق المربد » فيها الشعراء والخطباء والعلماء يتبارون ويتنافسون على منابرها .

ـ اتصاله بحكام عصره جعله يجوّد شعره ويتألق .

ـ مكانة الشعر الأدبية والسياسية والاجتماعية والماديّة .

ـ المعركة الهجائية التي دارت رحاها وحمى وطيسُها بين الفرزدق وجرير ، قد صقلت موهبته ، وفجّرت في صدره ينابيع القريض .

لكل هذه العوامل وغيرها نبغ الفرزدق وتأنق .

وشعره يمتاز بفخامة العبارة ، وجزالة اللفظ ، وكثرة الغريب ، والمعاني الدقيقة ، وكان يجري على أسلوب الجاهلية في شعرهم ، وهو يشبه من الجاهليين زهير بن أبي سلمى ، ولاهتمامه بالغريب في شعره قيل : لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث اللغة .

تناول الفرزدق في شعره أغراضاً متعددة ، يأتي في مقدمتها : الهجاء ، والفخر ، والمدح ، والرثاء ، والوصف ، ويقل في شعره الغزل ، ويُجافيه صدق العاطفة .

ومن شعره في هجاء جرير :

ولو تُـرمَى بلـؤم بنـي كليب　　نجوم الليل ما وضحت لِسـار
ولو يُرمَـى بلؤمهـم نهــار　　لدنس لؤمهم وضحَ النهـار
وما يغـدو عزيزُ بنـي كليب　　ليطلب حاجـة إلا بجـار

وفي الفخر قوله :

وكنـا إذا الجبـار صعّر خـدّه　　ضربناه حتى تستقيم الأخادع

وقوله :

حُلَـلُ الملـوك لباسُنا فـي أهلنـا
والسّابغاتِ إلى الوغى نتسَرْبل

وما أبرع الفرزق في نسْجه ازدواجية فنية بين الفخر والهجاء ، على شاكلة قوله :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم      إذا جمعتنا يا جرير المجامع

وفي المديح قوله في بشر بن مروان صديقه :

يا بشر إنك سيف الله صِيلَ به
على العدوّ وغيثُ ينبِت الشجرا

ومعروف أن الفرزدق إنما مدح بني أمية بأخرة ، وأن سليمان بن عبد الملك كان أول من وفد عليه من خلفاء بني أمية ، وها هو يقول لسليمان :

تركت بني حرب وكانوا أئمة
ومروانَ لا آتيه والمتخَيَّرا

أباك وقد كان الوليد أرادني
ليفعل خيرا أو ليُؤْمن أَوْجَرا[1]

فما كنت عن نفسي لأرحل طائعا
إلى الشام حتى كنت أنت المؤَمَّرا

ومن هنا راح يمدحهم مسرفا ، ويدافع عن خلافتهم مبالغا ، ويضفي عليهم هالات قدسيّة ، حتى ليقول في يزيد بن عبد الملك المعروف باللهو والمجون :

ولو كان بعد المصطفى من عباده
نبي لهم منهم لأمر العزائم

---

(١) الأوجر : الخائف .

لكنت الـذي يختـاره الله بعـده
لحمْل الأماناتَ الثقال العظائم
ورِثْتُم خليلَ اللهِ كلَّ خِزانـة
وكُلَّ كتاب بالنبوّة قائِم

والعجب أن يصدر منه مثل هذا القول في ذلكم الماجن العابث ، في الوقت الذي يقول في زيد العابدين بن علي بن الحسين الميمية العصماء التي أولها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه والحل والحرم

ولهذا أنكر الأصفهاني نسبة القصيدة إليه [١] ، لأنها تخالف نَسْجَه كما تخالف نفسيته .

وفي الرثاء قوله في بشر بن مروان :

أَعَيْنَيّ إلا تسعِداني [٢] أَلُمْكُما
فما بعد بشر من عزاءٍ ولا صبر
وكنا ببشر قد أمنّا عدونا
من الخوف واستغنى الفقير عن الفقر

---

( ١ ) انظر : الأغاني ١٤/ ٧٥ .

( ٢ ) تسعداني : تسعفاني .

وفي الوصف قوله في ذئب :

وأطلس عسّال وما كان صاحباً
دعوت لناري موهناً فأتاني

فلما أتى قلت : ادْنُ دونك إنني
وإياك في زادي لمشتركان

فبتّ أقدّ الزاد بيني وبينه
على ضوء نارٍ مرةً ودخان

ولو غيرنا نبّهت تلتمس القِرى
رماك بسهم أو شباة سنان

وفي الغزل ـ وهو في شعره قليل ، والعاطفة فيه باهتة ـ قوله :

إذا اغرَوْرَقَت عيْناي أسبلَ منهما
إلى أن تغيب الشِّعْريان (١) بكائيا

لذكرى حبيب لم أزل مذ هجرته
أعدّ له بعد الليالي لياليا

ومن غزله في مطلع طويلته الفائيّة :

عـزَفْتَ بأعشاش وما كنْت تعـزف
وأنكرتَ من حَدْراء ما كنت تعرف

من هذه الجولة في شعر الفرزدق نلحظ : أن الفنون التي دار في فلكها شعره ، هي فنون الشعر الجاهلي ، بيْد أن معظم هجائه كان سلاحاً

(١) الشعريان : مثنى مفرده : الشِّعْري : وهو كوكب .

سياسياً ، وأن نَفَس الشاعر لم يكن ليطول إلا في أهاجيه ونقائضه ، أما في غير الهجاء فقد كان الفرزدق يرى أن القصائد القصار أسرع سيرورةً ، وأشد علوقا بالذهن .

وأنه كان يصدِّر قصائده بمقدمات غزليّة أو طلليّة على عادة شعراء الجاهلية .

وأن شعر الرجل ـ على الرغم من فسقه ومجانته ـ مطبوع بروح الإسلام وثقافته .

وأن صوره وأخيلته متصلة بالبادية ، مرتبطة بها ، ولهذا ندر في شعره الخيال اللماح ، والصور النابضة بالحياة .

وأن أساليبه تمتاز بجزالة اللفظ ، وقوة الرصف ، وضخامة التراكيب ، ضخامة نفسه الصلبة التي قلما تعرف اللين والرقة .

وأن في شعره حشداً من غريب اللفظ ، ولهذا احتفل به علماء اللغة ، وعدّوا شعره أحد المصادر اللغوية .

وأن شعره يعتبر سجلاً حافلاً بأحداث العصر والقصص والأخبار والأشخاص ، حتى قالوا : لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس .

وأن شعره ينبي عن قدرة الشاعر في اختيار موسيقاه ، بجرسها المؤثر ، وإيقاعها المثير .

### مكانته الأدبية :

الفرزدق علم بين أعلام الشعر ، وقمة من قمم القريض ، أفصح شعره عن مكانته إفصاح الصبح ، وقد أجمع أولو البصر بالشعر على تفوق الفرزدق على سائر شعراء عصره في الفخر بآبائه وقبيلته ، وأنه في هذا المضمار قد بلغ الغاية القصوى ، على شاكلة قوله :

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا
وإن نحن أومأنا إلى الناس وقّفوا

... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ...

إن الذي سمك السماء بنى لنا
بيتا دعائمه أعز وأطول

وقد عُني بشعره اللغويون ، واعتبروه أحد مصادر اللغة ، حتى قالوا : « لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب » ، ومن هنا دارت أشعاره في كتب اللغويين والنحاة ، كقوله :

وعضُّ زمانٍ يا ابنَ مروان لم يدَعْ
من المـال إلا مسحتا أو مُجَـرَّفُ

وكان القياس أن يقول مجرفا بالنصب ، ولكنه رفع على الاستئناف ، جريا على رويّ القصيدة ، وقد كان يعترض عليه وينقده النقاد اللغويون ، ومن أشهر هؤلاء الذين اعترضوا طريقه ونقدوه كلما أتى بشذوذ نحوي : عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ، حتى ضاق به الفرزدق فهجاه قائلا :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكـن عبد الله مولـى مواليـا

فاعترض عليه الحضرميّ قائلاً : وأخطأت في هذه أيضاً ، إذ كان عليك أن تقول : مولي موالٍ .. على حين أنصف الفرزدق هنا بعضُ النحاة .

وإذنْ فقد كان الشذوذ النحوي عند الفرزدق مجالاً لإثراء دائرة النقد والدرس وإعمال العقل .

وحفلت بشعر الفرزدق كتب التاريخ والأخبار والتراجم ، لصلته الوثقى بأحداث الدولة الإسلامية في عصره وأيام العرب ومناقبهم ومثالبهم والقصص والأعلام .

أكْبَرَ الحطيئة إبداع الفرزدق حين سمعه ينشد سعيد بن العاص ـ والي المدينة من قِبَل معاوية ـ لاميّته المدحية ، التي منها :

ترى الغُرَّ الجحاجح من قريش
إذا ما الأمر في الحدثان غالا

قياما ينظرون إلى سعيد
كأنهمُ يرون به هلالا

فقال الحطيئة : هذا والله الشعرُ لا ما نُعَلَّل به منذ اليوم .

وقد كان الفرزدق مهيبا تخافه الشعراء ، وكان لمهابته يغير على أشعارهم ، فيأخذها لنفسه ، ولا يستطيعون له ردا ، وموقفه من الشَّمَرْدل ابن شريك اليَرْبوعيّ يؤكّد هذه الحقيقة ، فقد أغار الفرزدق على بيت الشمردل :

فما بيْن مَنْ لم يُعط سمعا وطاعة
وبين تميم غيْرُ حَزِّ الحَلاقم

قائلا للشّمردل : لَتَدَعَنَّ هذا البيت أو لتدعنّ عرضَك !! .

ومن الشعراء من كان ينتصر للفرزدق على جرير في معركتهما الهجائية « النقائض » ، إما حميّة أو عصبية ، وإما رعاية لمكانته الاجتماعية ، فقد انتصر له الراعي النميري في رائيته التي أولها :

يا صاحبيّ دنا الرواح فسيرا

غلب الفرزدق في الهجاء جريرا

وانتصر له الأخطل وفضّله ، وهاجى جريرا بقوله :

فانعق بضأنك يا جرير فإنما

منّتك نفسك في الخلاء ضلالا

منتك نفسك أن تكون كدارم

أو أن توازي حاجبا وعقالا

وقد جُمعَتْ هذه النقائض ونُشِرَتْ ، فكانت وثيقة عظيمة لمفاخر العرب وأيامهم ، وصورة صحيحة لما كان بين الشاعرين بخاصة ، وبينهما وبين من اقتحم ميدانهما بعامة ، من فوارس الكلم .

ومعلوم أنه كان لكل من جرير والفرزدق أنصار ، يفضلون ويتعصبون ، ومعركة أفضليّة أحدهما على الآخر معركة حامية الوطيس ، تبارت في ساحتها الآراء ، وتلاحمت أسلات الأقلام .

والحق أن الفرزدق كان نبعاً فياضاً من ينابيع الشعر ، بيد أن هذا النبع إنما كان يتدفق من نفس صَلْبة ، ولعل ذلك ما جعل الإغراب والالتواء والشذوذ يكثر في أساليبه ، وذلك ما جعل شعر الفرزدق أثيراً لدى الخاصة ، بينما شعر جرير كان مثار إعجاب الخاصة والعامة على السواء ، من هنا قالوا : « جرير يغرف من نهر ، والفرزدق ينحت من صخر » [1] ، وإنما تكون مسألة الرقة والصلابة والسهولة والتوعر

---

(١) انظر طبقات ابن سلام ص ١١٠ .

بحسب اختلاف الطباع وتركيب الخلقة ، فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة ، وإلى هذه الحقيقة أشار القاضي الجرجاني في وساطته [١] .

والعلماء بالشعر مختلفون حول أفضلية أحد الشاعرين ، حتى قال أحدهم : ما شهدت مشهداً قط ذكر جرير والفرزدق فأجمع أهل المجلس على أحدهما .

فالأكثرون يرون أن جريراً أشعر ، وجماعة من كبار الرواة والشعراء يفضلون الفرزدق ، حتى كان البحتري يقول : لا أرى أن أكلم من يفضل جريراً على الفرزدق ، ولا أعدّه من العلماء بالشعر ، وكان يرى أن الفرزدق أعمق معاني ، وأحسن اختراعاً لها من جرير ، وقد أنصف أبو الفرج الأصفهاني في قوله : أما من كان يميل إلى جودة الشعر وفخامته وشدة أسره فيقدم الفرزدق ، وأما من كان يميل إلى أشعار المطبوعين ، وإلى الكلام السمح الغزِل فيقدم جريراً .

وقد قال مروان بن أبي حفصة :

ذهب الفرزدق بالفخار وإنما حلوُ الكلام ومرُّه لجرير

وهذا هو القول الفصل في هذه القضية ، فلكلٍّ وجهته وميزته .

وواضح أن الفرزدق أمضى حياته في المديح والهجاء ، وهو في مديحه يتخلف عن جرير والأخطل معاً ، لخشونة نفسه وصلابتها ، وهو كذلك يتخلف عن جرير في الهجاء ، لأن نفس جرير كانت محملة

---

( ١ ) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٢٣ .

بمرارة مسرفة ، إذ لم يكن له ما للفرزدق من شرف المحتد ، ونبل القبيلة ، فكان ينقض على الفرزدق وعلى غيره من مهجو به ، انقضاض الصقر الجارح ، ونفس الفرزدق الخشنة الصلبة أقعدته عن البراعة في الغزل ، يقول الجاحظ : « وهذا الفرزدق وكان مستهتراً بالنساء ، وكان زيرَ غَوانٍ ، وهو في ذلك ليس له بيت واحد في النسيب مذكور ، ومع حسده لجرير ، وجرير عفيف لم يعشق امرأة قط ، وهو مع ذلك أغزل الناس شعرا » [١] ، وكان جرير يتقدمه كذلك في الرثاء ، إذ كانت نفسه لينة رقيقة ، والموضوع الذي يتفوق فيه الفرزدق على جميع شعراء عصره هو الفخر ، إذ كان معتد بآبائه وقبيله اعتداداً لا يحدّ ، ومن ثم بلغ في الافتخار بهما الغاية القصوى :

فادفع بكفك ـ إن أردت بناءنا ـ
ثَهلانَ ذا الهضباتِ هل يَتَحَلْحَلُ ؟! [٢]

وللفرزدق أبيات سائرة ، تجري مجرى الأمثال ، وتعرف عند النقاد بالمقلَّدات ، لأن البيت المقلّد هو المستغني بنفسه ، ومن هذه السّوائر :

ـ أحلامنا تزن الجبال رزانة      وتخالنا جنا إذا ما نجهل [٣]

ـ ترى كل مظلوم إلينا فرارُه      ويهرب منا جهدَه كلُّ ظالم

ـ وجدنا أعزّ الناس أكثرهم حصى
وأكرَمَهُم من بالمكارم يُعرَف

---

( ١ ) البيان والتبيين ١/٢٠٨ .

( ٢ ) انظر العصر الإسلامي د. شوقي ضيف ص ٢٧٤ .

( ٣ ) نجهل : نغضب .

- وما قـام منا قائم فـي نَديِّنا فينطق إلا بالتي هي أعرف

- سيعلم من سامى تميماً إذا هوَتْ
قوائمُه فـي البحـر من يتخلّـفُ

والحق أن الفرزدق كان نبعا دفّاقاً من ينابيع الشعر الراقي ، يتدفق من نفس قرارها العنجهية ، وقوامها الصلابة وملء بَرديها الصلف .

وقد وافته منيته في سنة عشر ومائة للهجرة ، وصمت صوت الشاعر بعد أن خلف لكل من له ذوق أدبي تراثاً ضخماً رائعاً :

لقد غيبوا في اللحد من كان ينتمي
إلى كل بدر فـي السماء محلّق

ولَعَمْري لقد حزن جرير لوفاة الفرزدق ، ورثاه رثاءً حاراً ، إذ يقول :

فُجعنا بحمّال الدّيات ابن غالب
وحامي تميم عرضها والمراجم [1]
بكيناك حدثـان الفـراق وإنمـا
بكيناك شجـواً للأمـور العظائم

* * *

---

(١) المراجم : المناضل .

# الفرزدق يفتخر ويهجو جريرا

## في قصيدته « الفيصل »

### البالغة أبياتها أربعة ومائة بيت

١ ـ إنّ الذي سمك السّماءَ بَنَى لنا
بيتا ، دعائِمُه أعزّ وأطول

٢ ـ بيْناً بناه لنا المليك ، وما بنى
حَكَمُ السّماءِ فإنه لا يُنْقَل

٣ ـ بيتاً زُرارةُ مُحْتَبٍ بفنائه
ومُجاشِعٌ وأبو الفُوارس نَهْشَل

٤ ـ يَلجون بيتَ مجاشع وإذا احْتَبَوْا
برَزوا كأنّهم الجبال المُثَّلُ

٥ ـ لا يَحْتَبي بفِناء بيتك مثلُهم
أبدا إذا عُدّ الفَعَال الأفضل

٦ ـ ضربَت عليك العنكبوتُ بنَسْجها
وقضى عليك به الكتابُ المنْزَل

* * *

٧ ـ يمشون في حَلَق الحديد كما مشَتْ
جُرْبُ الجمال بها الكُحَيْلُ المُشْعَل

٨ ـ ومُعَصَّبٌ بالتّاج يخفقُ فوقه
خِرَقُ الملوك له خَميسٌ جَحْفَل

٩ ـ ملِك تسوقُ له الرِّماح أكُفُّنا
منه تُعَلّ صدورُهن وتنْهَل

١٠ـ قد مات في أسَلاتنا أو عَضّه
عَضْبٌ برَوْنقه الملوك تُقَبَّل

١١ـ مُتَخَمِّطٌ قَطِمٌ له عاديَّةٌ
فيها الفَراقِد والسِّماك الأعزَل

* * *

١٢ـ وإذا بَذَخْتُ ورايتي يمشي بها
سفيانُ أو عُدَسُ الفَعال وجَنْدَل

١٣ـ الأكثرون إذا يُعَدّ حَصاهم
والأكرمون إذا يُعَدّ الأوّل

١٤ـ إن الزّحام لغيركم فتَحَيّنوا
وِرْدَ العَشيّ ، إليه يَخْلُو المَنْهَل

١٥ـ حُلَلُ الملوك لباسُنا في أهلنا
والسّابغات إلى الوغى نتسَرْبل

١٦ـ أحلامنا تزن الجبال رزانةً
وتخالنا جِنّاً إذا ما نجْهَل

١٧ـ فادْفعْ بكفِّك ، إن أردْتَ بناءنا
ثَهلانَ ذا الهضَبات ، هل يَتَحلْحَل ؟!

١٨ـ فرعان قد بلغ السماءَ ذُراهما
وإليهما من كلِّ خوف يُعْقَل

١٩ـ إنا لَنَضرب رأسَ كلّ قبيلة
وأبوك خلف أتانه يتَقَمَّل

٢٠ـ وشُغِلْتَ عن حبّ الكرام وما بنوا
إن اللئيم عن المكارم يُشْغَل

٢١ـ إن التي نُقِئَتْ بها أبصارُكم
وهي التي دَمَغَتْ أباكَ الفَيْصَل

٢٢ ـ وَهَبَ القصائدَ لي النّوابغُ إذ مضَوا
وأبو يزيدَ وذو القرُوح وجَرْوَل

**المعنى في ضوء القاموس المعجمي :**

١ ـ سمك : رفع . دعائمه : جمه دعامة ، وهي عمود البيت الذي يعلوه السقف . أعز : أقوى .

٢ ـ المليك : الله جل جلاله . حكم السماء : القوي المقتدر . لا يُنقل : لا ينقض ، وهو يريد أن بيته بيت شرف وعز ومنعة .

٣ ـ زرارة ، ومجاشع ، ونهشل : أولاد دارم ، ومن أجداد الفرزدق الذين يعتدّ بهم . محتب : من الاحتباء ، وهو الاشتمال ، بمعنى أن يجمع الرجل ـ في جلسته ـ بين ظهره وساقيه بثوب ونحوه ، وهو نوع من الجلوس ، خاص بعلية القوم ، ولا تُحلّ الحبوة إلا عند الأحداث الجسام . وفناء البيت : ساحته وامتداد جوانبه .

٤ ـ يلجون : يدخلون ، من « ولج » . والمثّل : جمع ماثل ، وهو البارز الراسي .

٥ ـ الفَعال ـ بفتح الفاء ـ : الفعل الحسن ، والشاعر هنا يخاطب جريرا .

٦ ـ ضربت عليك العنكبوت : بنَت عليك .. إشارة إلى الوهن والضعف والذل .

٧ ـ حلَق : جمع حلقة وهي الذرع . جرب الجِمال : الجمال المصابة بداء الجرَب . الكُحَيْل : القطران . المُشْعَل : الكثير اللامع .

٨ ـ ومعصب : متوّج ، والمقصود به هنا : قابوس بن المنذر ، والواو : واو رُبّ ، ومعصب : مبتدأ ، وخبره : قد مات ـ في البيت الذي يلي البيت التالي ـ . خِرَق الملوك : الرايات . الخميس : الجيش الضخم ، له أجنحة خمسة . الجحفل : الكثير العدد والعدة والخيل .

٩ ـ منه : أي من الملك ، والعلَل : هو الشربة الثانية ، والنّهل : الشربة الأولى ، والمقصود هنا : الدماء ، ومعنى ذلك : أن الرماح ستشرب شربا متابعاً من دماء ملك المناذرة .

١٠ ـ الأسلات : الرماح ، جمع أسلة . العَضْب : السيف القاطع . رونقه : فرنده وجوهره .

١١ ـ متخمِّط : متغضِّب في كبر . قطِم : هائج . عاديّة : أوليّة قديمة . الفراقد : جمع فرقد ، وهو نجم يهتدى به . والسماك الأعزل : يكون في نوء المطر .

١٢ ـ بذخْت : علوت وفخرت في صلف وزهو . وسفيان وعُدَس وجندل : من قوم الفرزدق .

١٣ ـ يعد حصاهم : عددهم الكثير الوافر . الأوّل : يعني من الآباء والأجداد ، أو من المحامد والأفعال .

١٤ ـ الزحام : أي على ورود الماء . لغيركم : أي الأقوياء ذوي الوجاهة . تحيّنوا : ترقبوا وانتظروا واهتبلوا ، ورْد العشيّ : ورود الماء ليلا . المنهل : مورد الماء .

١٥ ـ الحلل : جمع حُلّة ، وهي الإزار والرداء . السابغات :

الدروع الفضفاضة . الوغى : ساحة الحرب . نتسربل : نلبس الدروع ونتقمصها ( من السّربال ، أي : اللباس ) .

١٦ ـ أحلامنا : عقولنا ، جمع حلم ، وهو الصبر والأناة ، وضده الجهل والسفه . تزن الجبال رزانة : تعدلها ثباتاً ورسوخاً ووقارا . نجهل : نغضب وتثور ثائرتنا .

١٧ ـ ثهلان : جبل عظيم شامخ بنجد . الهضبات : جمع هضبة . هل يتحلحل ؟ : هل يزول ويتحرك ؟ فكذلك عزّنا .

١٨ ـ فرعان : فرع أبيه من دارم ، وفرع أمّه من ضبّة . ذراهما : مثنى ذروة ، وذروة كل شيء : أعلاه . يُعقَل : يلجَأ ، أي يلجأ إليهما الناس عند المخاوف .

١٩ ـ الرأس : رئيس القبيلة . الأتان : الحمارة . يتقمّل : يكثر قمله فيفتّش عنه .

٢٠ ـ شُغِل : انصرف . اللئيم : الدنيء الأصل والبخيل .

٢١ ـ دمغت : أصابت الدماغ . الفيصل : مقطع الحق فيما بيننا وبينكم ، وكانت هذه القصيدة تسمى الفيصل ، وكلمة الفيصل هذه هي خبر إن في أول البيت .

٢٢ ـ النوابغ : شعراء يسمى كل منهم النابغة ، وهم : النابغة الذبياني ، والنابغة الجعدي ، والنابغة الشيباني ، وأبو يزيد : شاعر يسمى ربيعة بن مالك ، وذو القروح : هو امرؤ القيس الكِندي . وجرول : هو الحطيئة الشاعر .

**المعنى الأدبي :**

سيطر على الفرزدق داء العظمة ، فراح يفخر على جرير بأن الله أعطاه وقومه بيتاً يطاول أعنان السماء بشرفه وعزه ومنعته ، وأن شرف بيته ثابت متصل ، يتوارثونه كابراً عن كابر ، فإن الله الذي رفع السماء وأحكم بناءها ، هو الذي تكفّل برعاية مجد قومه المؤثّل ، وما رعاه الله فهيهات هيهات أن يزعزع أو يتحوّل .

وقد نظم حبات عقد هذا الشرف سادة وجهاء ، هم معدن العلا ، وقصبة النُّبل ، هم آباء الفرزدق ، أبناء دارم ... أما أنت يا جرير ففي الحضيض الأسفل ، وليس في آبائك من يداني آبائي ، إذا ما عدّت المكارم والأمجاد ! !

أولئك آبائي فجئني بمثلهم

إذا جمعتنا يا جرير المجامع ! !

وأنّى لجرير أن يدانيهم وهو من بيت مغمور واه ، نسجت خيوطه العنكبوت ، وهو لذلك من أوهى البيوت وأهونها .

ومآثر قوم الفرزدق مما يعتز به عظماء العرب ، كرفعة البيت ، والاحتباء في المجالس ، والتغلب على ملوك المناذرة ، والرزانة في الحلم ، وشدة البطش حين تثور ثائرتهم ، والتخرّق في الكرم ، واقتداء بعضهم ببعض في المكرُمات ، ومباهاة الملوك ، والتزاحم على مناهل الماء ، ومنازلة القروم .

إن الفرزدق هنا ينظر إلى جرير من عل ، ويرميه وقومه بالدّونِيَّة ،

فيراه قميئا مغمورا ، نسجت عليه العنكبوت خيوطها ، فوارته عن الأبصار .

والفرزدق يباهي بآباء أعلام عظام ، تلفعوا بمآزر المجد ، وجمعوا بين كثرة العدد وكثرة الأفعال الحميدة ، ليسوا ضِعافا خاملين كقوم جرير ، أولئك الذين يشربون ـ لضعفهم ومهانتهم ـ من فضل غيرهم .. وإذا كان الأمر كذلك فلن يستطيع جرير أن ينال من مجد الفرزدق المؤثل ، وإن حاول طاشت محاولته ، لأنه لن يستطيع زحزحة ثهلان عن مكانه !! ولا يحاول ذلك إلا غِرّ مأفون !!

ويفخر الفرزدق بالشجاعة التي ارتضع قومه أفاويقها ، والتي نبتت فيهم وأثمرت بين الأروم والقروم ، حتى خنعت لهم رءوس القبائل ، ويفخر بالأمجاد التي يشغلهم إعلاءُ صرحها ، وبالتألق في ميدان الإبداع الشعري الذي ورّثه إياه النابهون العماليق .

ويجرد جريرا من لمح المجد ، ذلك أن أباه مشغول بقمله خلف أتانه ، وأن قومه لئام يرتعون في الخسّة والدناءة والبخل ، وأن جريرا لا ينبغي أن يطمح إلى منافسة الفرزدق في عالم إبداع الشعر ، فقد دمغته هذه اللامية ، وقالت كلمتها الفاصلة بين طموح جرير وحلمه ، وواقعه المخزي الأليم .

### سطور حول القصيدة :

هذه القصيدة إحدى النقائض التي هاجت ريحها واشتدت عاصفتها بين جرير والفرزدق ، وقد إمتزج فيها الفخر بالهجاء ، إذ عادت العصبية القبلية جَذعة من جديد في شعر شعراء النقائض ، ونجمت عن

الأجواء السياسية التي سيطرت في العصر الأموي ، وفي النقائض عودة إلى ما كان الإسلام قد قضى عليه ، من التكاثر بالعدد ، والتفاخر بالأحساب ، وأيام العرب ومآثرهم في الجاهلية ، وفيها خروج على مستلزمات الذوق الرفيع والآداب العامة ، من خلال احتفالها بالهجاء اللاذع المقذع ، بذكر العيوب الخُلُقية النفسية لا الجسَدية ، هذا الهجاء الذي كان قد خفَت صوته في صدر الإسلام .. وقد غضّ بنو أمية أبصارهم عن مثل هذا الهجاء ، وشجعه النقاد وعلماء اللغة والرواة والإخباريون ؛ وتلقفته العامة ، إذ وجدوا فيه ملهاة ومشغلة وتنفيساً ، بانتصارهم لهذا الشاعر أو ذاك ، حتى شاع هذا اللون من الشعر في العصر الأموي شيوعاً مستفيضاً .

لقد أصبح الهجاء قصائد مطولة ، تحتاج إلى ثقافة واسعة بتاريخ القبائل العربية في الجاهلية ، وهذا ما تؤكد عليه نقيضة الفرزدق التي هي موضوع هذه الدراسة ، فهي فخر وهجاء من جهة ، وتاريخ ولغة من جهة أخرى .

والهجاء والفخر هما الركنان الأساسيان في فن النقائض ، يستثير بهما الشاعر خصمه فيرد عليه بنقيضه ، ملتزما فيها بالوحدة الموسيقية - أي الوزن والقافية - ، فالنقائض ثنائية الطابع ، ومن هنا جاءت نقيضة جرير في إطار موسيقى قصيدة الفرزدق ، وناقضة معانيها معنى معنى ، ومنها :

أخزى الذي سمك السماء مجاشعا

وبنى بناءك في الحضيض الأسفل

بيت يحمحم تينكم بفنائـه

دنس مقاعـده خبيـث المدخـل

وقد حفز النقائض في العصر الأموي وأثرتها حوافز ثلاثة : الحافز القبلي ، والحافز الفني الإبداعي ، والحافز السياسي .. ولا ريب في أن انصراف الناس بعصبيتهم القبلية إلى متابعة النقائض والانشغال بأطوارها قد كان من الوسائل التي ساعدت على صرف الأنظار والاهتمامات عن الخلافات السياسية ، وأسهمت في امتصاص طاقة الصراع ، وتحويلها إلى مسارب أخرى ، الأمر الذي جعل النقائض تحظى بتشجيع الأمويين .. لقد هَاجَتْ هذه الغارات الشعرية إلى جانب الغارات الحربية .

ونقائض جرير والفرزدق ومعهما « الأخطل » ـ الضلع الثالث في المثلث الأموي ـ تمتاز بما تزخر به من ثقافة تاريخية ووثائقية ، وما تعكسه من خارطة الحياة السياسية السائدة في عصر بني أمية ، إذ كانت تمثل مواقف سياسية ، واحتفال هـذه النقائض بالنظرية الفنية الجمَاليـة الإبداعية ، وبروز أثر الدرس العميق للحياة العلمية ، وتوظيف عناصر جديدة في الهجاء كالسخرية واستدعاء المُضْحِكات ونقض الصفات التي يعتدّ بها العرب ، كالكرم والشجاعة وما إليهما ، وكانوا يرون دونها خرط القتاد ، إلى جانب ما في هذه النقائض من احتفاء بالعناصر الدينية .. على شاكلة قول جرير في الفرزدق :

أتيتَ حدود الله مـذ كنت يافعـا

وشبتَ فما ينهاك شيبُ اللهـازم

تتَبع في المَاخور كلَّ مُريبـة

ولست بأهل المحصنات الكرائم

## الدراسة التحليلية :

يجري الفرزدق في هذه القصيدة ، بل وفي سائر شعره على أسلوب الجاهلية ، ففي لفظه جزالة ، وفي عبارته فخامة ، وفي أسلوبه ضخامة ، وفي مبانيه دقة ، وفي أفكاره بداوة ، وفي تضاعيف نسجه غرابة ووعورة ، وكأنه ينحت من صخر ؛ وقصيدته ـ موضوع دراستنا هذه ـ تؤكد على جودة شعره وفخامته وشدة أسره ، لأنه شاعر يتعمّق المعاني ، ويُحسن اختراعها .

وقوة أسلوب القصيدة وضخامته ، وجزالة ألفاظها ، وغرابتها وصلابتها ـ كما يبدو لنا ـ ، وبداوة الصور ، كل ذلك مناسب لموضوع القصيدة ، الذي يدور في فلك الفخر والهجاء ، ومناسب كذلك لعاطفة الشاعر ونفسيّته ، فمن بدا جفا ، وكأني بالفرزدق يستعلي على جرير بالمناقب والأمجاد والمكرمات ، التي تربَّع بها وقومُه فوق الشمس ، من جهة ، وبهذه الضخامة الأسلوبية والصلابة اللفظية والبداوة التصويرية ، التي يمتلك نواصيهَا ، والتي لا يقف على منحاها طبع جرير ورقة نفسه من جهة أخرى .. وكأن نفس الفرزدق الصَّلْبة التي تموج بمشاعر الزهو والعنجهية والصلف ، والتي مرَدت على التمرد الطاغي تأبى عليه أن يدلي بدلائه في رقة جرير ، وكأن هذه الرقة لا تناسب فحولة العظماء أمثاله .

وعلى كل حال : فتوَجُّه الفرزدق هذا لم يفسد عليه معانِيَهُ ، ولم يُلبس علينا أفكاره ، ولم يُخِلّ بموضوعه ، ولم يُحدث فجوة بين الشاعر ونفسه .

وأفكار الشاعر ومعانيه ـ في جملتها ـ منتزعة من البيئة البدوية ، ومصورة لكثير من مظاهر البيئة العربية ، فدعائم البيوت « الخيام » والاحتباء في المجالس ، والجبال الرواسي ، والجمال الجرب المهنوءة بالقطران ، وهيئة الحروب وآلاتها ، والنجوم التي يهتدون بها ، والتي يستمطرون ، والازدحام على ورود الماء ، وعزوف القبائل الضعيفة عن التزاحم ، وتأخرهم حتى يصدر الأقوياء ؛ من مظاهر البيئة العربية .

والكرم ومظاهره ، والشجاعة والبأس وقوة الشكيمة ، والحلم والوقار عند الرضا ، والثورة والطيش عند الغضب ، والاشتغال ببناء المكرمات ، والتفاخر بالنبوغ في الشعر ، إلى جانب التطاول بالأحساب والأنساب ، من عادات العربي ومُثُله العليا ، ومن ثم فالمواءمة قائمة بين ألفاظ القصيدة وأساليبها ، وأفكارها ومعانيها .

وعلى الرغم من احتفال القصيدة بالألفاظ الجزلة ، والعبارات الفخمة ، والأساليب الضخمة ، إلا أنها حملت بين تضاعيفها ألفاظاً رقيقة نقية ، وعبارات واضحة جليّة ، وأساليب مشرقة رَويّة ، تحيط بالمعنى ، ويَعْذُب جرسها الموسيقي ، ويخفّ وقعها على السمع ، على شاكلة : « سمك السماء ، الفعال الأفضل ، حلل الملوك لباسنا ، أحلامنا تزن الجبال رزانة » .

وتشيع في القصيدة الألفاظ الموحية ، التي تفيض بالمشاعر والصور والمعاني والظلال إلى جانب دلالتها اللغوية ، من هذا الإيحاء « سَمَك » التي تعني التشييد والارتفاع معا ، ولا تقف دلالتها عند البناء ، فالسُّموك : هو الارتفاع ، والبناء المسْموك : هو العالي ، ويُقال : اسْمُك في الدّيْم ، أي : اصعد في الدرجة .

فالكلمة إذَنْ : توحي بالأصالة وشرف الأُرومَة ورفعة المحتد والوجاهة .

ونسبة هذا البناء إلى المولى عز وجل إشعار بمحاولة الشاعر إسباغ هالة من القدسية على عظمة بيته وفخامته ، فما يبنيه الله سبحانه وتعالى الذي أتقن كل شيء ، لا يمكن أن يقف في وجهه إنسان ؛ ناهيك بقيمة التوكيد « إن » الذي بدأ به اعتداده ، لأن المُفْتَخَرَ عليه « المهجُوَّ » لا يسلم له القياد ، وينكر عليه مناقبَه .

وكلمة « بنى » توحي - إلى جانب معناها اللغوي - بشرف النسب ورفعة الحسب ، من قولهم : بنى على أهله ، أي عرّس وتزوج ، فهم يُحسنون البُنَى ، أي يختارون الأزواج من أعرق البيوتات ، وفي هذا إيحاء بفخامة نسب قبيلته من جهتي : الأبوّة والأمومة ، فكل أبناء بيته مُعِمٌّ مُخْوِل .. وفي عَدْل الشاعر عن ذكر المفضَّل عليه بعد : « أعـزَّ وأطولَ » إيحاء بأن بيته الذي يأتلق المجد فوق مفرقه أعز وأطول من كل البيوتات ، على كثرتها وعمومها ، وهنا يطل بُعدٌ إيحائيٌ آخر يكمن في رغبة الشاعر في إتاحة الفُسحة أمام المتلقِي للتَّخيُّل .. فلْيتخيَّل ما راقه التخيّل وحَلا .

« ومحتب بفنائه » إيحاء بالجو الآمن الذي يعيشونه ، لرهبة الناس من قوة بطشهم ، وشدة بأسهم ، وإيماء إلى ظهورهم وعدم استتارهم حالة الاسترخاء ، دونما خوف أو وجل ، لأن مهابتهم في قلوب القوم قائمة ، ولأن عزّهم يحول بينهم وبين ما يُفَزِّع .

وتأمل ما يحمل لفظ « الفَعال » - بفتح الفاء - من مشاعر وظلال ،

فهو موضوع للفعل الكريم ، والذي يأباه الفرزدق على غير قومه ، والذي يتمثل فيه العلو والانطلاق .

« ومعصّب بالتاج » تومئ - بجانب المعنى اللغوي « المتوّج » - بقوة هذا الملك وعُصبته ، أُولي البأس والعدة والعدد ، من جهة ، وبتفوقنا واستعلائنا عليه وعصبته ، مع القوة والبأس ، من جهة أخرى ، فما أروع الانتصار على الأقوياء .

وانظر من كثب هذا التصوير الدقيق الرائع لحركة الجيش ونظام فرَقه وكثرة عدده وعتاده وخيوله ، فـي تضاعيف كلمتَـي « خميس جحفل » ، وفي « تعَل وتنهل » ، إيحاء بتتابع شرب الدماء وتلاحقه ، وتصوير لبطش المنتصرين الشاربين وفتكهم .. على أن بطش قوم الشاعر وفتكهم بملوك المناذرة وفرسانهم ، إنما يؤكد عليه تَبَلّج الشاعر في استعماله « في » لا « من » أو « الباء » في قوله : « في أسلاتنا » ، إذ توحي برهبة البطش ، وقوة الفتك ، وشدة التمكن في الطعن ، حتى غدا الرمح والمطعون كالظرف والمظروف ، احتواء وتمكّنا وهيمنة ، كما توحي بالاستخفاف بالمطعون والتَّنَدُّر به .

وقد جمع الشاعر على قومه العز والشرف اللذين اعتليا النجوم ، وفيض الكرم بكلمتي : « الفراقد والسماك » وما تحملان من هذه الدلالات الإيحائية .. وكيف لا !! وقومه في السلم ملوك ، وفي الحرب ليوث ، كما صوّر وأوحى البيت الخامس عشر ؟!

إن في هذه القصيدة حشدا من هذه الألفاظ الموحية ، فَلْيَسرِ على الدرب من له حس أدبي ، بغية الوصول ، فمن سار على الدرب وصل .

وَظَّف الشاعرُ عنصرَ التوكيد في تقوية ودَعْم المعاني التي يسعى جاهدا إلى تقريرها وتثبيتها وترسيخها في الأذهان ، فقد لجأ إلى الأدوات المؤكدة المعروفة ، كما اتخذ التكرار وسيلة إلى هذه الغاية ، على غرار تكراره كلمة « بيت » ، ومثلها كلمة « السِّماء » ، وتكراره كلمة « بني » ، وكلمة « فناء » ، و« الفَعال » ، و« الملوك » ، و« محتب » ، و« لا يحتبى » فقد عمد إلى تقليب الألفاظ على وجوهها المختلفة ، إيجابا وسلبا .. وكذلك عمد إلى أفعال التفضيل لهذه الغاية التقريرية التّرسيخية ، على شاكلة « أعز ، وأطول ، والأفضل » .

توظيف الشخصية التراثية في دعم مجده الأدبي ، ومساندة شموخه الفني ، وذلك في قوله :

وَهَبَ القصائدَ لي النوابغ إذ مضوا
وأبو يزيد وذو القروح وجـرول

تألق عنصر الخطاب الموجّه إلى الطرف الثاني في هذه النقيضة ، ولهذا كثرت فيها صيغ الأمر والنداء والاستفهام ، المستهدف منها التعجيز والتنديد والتحقير والتقرير ، نلمح ذلك في قوله مثلا :

- « فادفـع بكفـك ، إن أردت بناءنـا
ثهلان ذا الهضبات ، هل يتحلحل ؟! »

- « ضربت عليك العنكبوت بنسجهـا
... ... ... ... ... ... ... ... ... »

- « إن الزحام لغيركم فتحيّنوا ورد العشيّ ... ... ... ... »

ولا ريب في أن الأخبار في هذه النقيضة إما استعلائية فخريّة ، وإما استخفافيّة تحقيرية .

الازدواجية ـ في القصيدة ـ بين الجمل الاسمية التي تقرر وتؤكد ، وتدل على الثبات والاستمرار ، وتمس الجوهر لا العرَض ، والجمل الفعلية التي تصِف وتمثّل وتقص ، وتدل على التغيّر والحدوث .

احتفال القصيدة بالصور الأدبية ، فقد أعان الشاعر واقعُه وخيالُه على الإتيان بالصورة الأدبية ، البادية في غلالة الصدق الفني ، فنراه يُكنّي عن المجد العالي الشأو والشأن بالبيت الذي عزّت دعائمه وطالت ، وعن الكثرة العددية بالحصا ، ويوظف الشاعر الكناية التي استخدمها على نطاق واسع في الهجاء وفي الإنفضاء بما يريد أن يقذع به مهجوّه من فاحش القول ، فنراه يكني عن ضحالة أصل المهجو بعدم الاختباء ، وعن ضعف قوم المهجو ومهانتهم بعدم الازدحام على السقيا ، وعن حقارة شأن أبي المهجو بكثرة قمله ، في صورة « كاريكاتيرية » ساخرة ، « وأبوك خلف أتانه يتقمّل » ، ويعمد الشاعر إلى التصوير المشهدي ، فيرسم لنا صورة حيّة لجلوس أجداده وآبائه ، في احتباء وبروز ، وقد رفد هذا المشهد بتشبيه رائع مشعر بالتماثل في قوله : « كأنهم الجبال المُثَل » ، وفي صورة مشهدية ثانية يشبه الرجال المحاربين في عِظمهم ولون الحديد عليهم بالجمال المنهوءة بالقطران في قوله :

يمشون في حلق الحديد كما مشت
جُربُ الجمال بها الكُحَيْل المُشْعَل

ويشبه قومه في الرزانة والوقار والحلم ـ حالة السلم ـ بالجبال ،

وفي الغضب والثورة ـ حالة الحرب ـ بالجن ، في قوله :

أحلامنا تزن الجبال رزانة        وتخالنا جنّا إذا ما نجهل

وكان الشاعر قد جعل قومه في السلم ملوكاً ، وفي الحرب ليوثا في قوله :

حُلل الملوك لباسنا في أهلنا
والسابغات إلى الوغى نتسربل

وكان يلهث وراء هذه الفكرة ليبرز مكانة قومه إنْ في السلم أو في الحرب .

والشاعر في صورة مشهدية أخرى ، تنهض على العنصر الاستعاري التمثيلي ، يصور فيها جريراً وبيته ، فيتخيله قميئا مغموراً قد نسجت عليه العنكبوت خيوطها ، فوارته عن الأبصار ، في قوله : « ضربت عليك العنكبوت بنسْجها » .

ويبدع الشاعر في تخيله ، حين جعل الرماح العوالي تشرب شربا متتابعاً « تعلّ وتنْهل » من دماء ملك المناذرة ، في استعارة رائعة ، في قوله :

ملك تسوق له الرماحَ أكفُّنا        منه تعلّ صدورُهن وتنهل

وفي القصيدة حشد من الصور الأدبية ، بيْد أنها ـ في جملتها ـ منتزعة من البيئة ، متصلة بالبادية وواقعها ، لذا تقل فيها الحركة والنبض بالحياة ، ومن ثم فالخيال فيها يفتقد التحليق والتألق ، اللذين يقتضيهما الابتكار والإبداع .. إن ذلك يؤكد سيطرة الروح الجاهلية على الفرزدق ،

فربطت خياله بمشاهد الحياة في البادية ، وجعلته ينتزع صوره وأفكاره من أرض الواقع ، وليس من أجواء الخيال المحلق وآفاقه .

**تأثر الفرزدق بالقرآن الكريم وأساليبه** : فالشاعر ـ على الرغم من بروز الروح الجاهلية في شعره ـ قد تأثر بالقرآن الكريم وأساليبه في هذه القصيدة عن طريق الاقتباس ، فقد اقتبس من قول المولى عز وجل في سورة النازعات : الآية ٢٧ ، ٢٨ : ﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ۝ رفع سمكها فسوّاها ﴾ .. قوله :

إن الذي سمك السماء بنى لنا
بيتا ... ... ... ... ... ... ...

واقتبس من قول الله تعالى في سورة الرعد : **الآية ٤١** : ﴿ والله يحكم لا معقّب لحكمه ﴾ قوله :

... ... ... ... ... وما بنى حكمُ السماء فإنه لا يُنقَل

واقتبس من قول الله سبحانه وتعالى في سورة العنكبوت : الآية ٤١ : ﴿ وإن أوهنَ البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ قوله : « ضربت عليك العنكبوت بنَسْجها » .. لقد أفاد الشاعر من هذه الثروة النفيسة في قصيدته ، وإذا كانت الروح الجاهلية قد سيطرت على الشاعر في فخره وهجائه ، فإن إشراقة دينيّة إسلامية قد لاحت في ثنايا قصيدته .

وقد قدّم الفرزدق موضوعه بما يسمى « براعة الاستهلال » ، ودخل على موضوع القصيدة مباشرة ، ولم يمهد لـه بمقدمة طلليّة أو غزلية .

تأجج عاطفة الشاعر وصدقها وعمقها في هذه القصيدة ، التي تدور في رحى غرضين ، هما : الفخر ، والهجاء ، وقد واكبتهما عاطفة الشاعر المتقدة ، فلَوَّنَهما بلون شعوره ووجدانه ، وصبغهما بأحاسيسه ومشاعره ، ووضحت فيهما صفحة نفسه المتمردة الطاغية ، فباعث الفخر الاستعلاء والزهو ، وباعث الهجاء الازدراء والاحتقار ؛ والعاطفتان ـ بهذا التشكيل ـ توائمان نفسية الفرزدق الفيّاضة بالصلف والصلابة ، وكأنى بالفرزدق هنا يمتح من معين هذه النفس الزاخرة ببواعث الفخر والهجو ، دونما تكلف أو معاناة ، وإنما على السّجيّة والطبع ، ولذلك جاءت العاطفة في القصيدة قوية متأججة صادقة عميقة ، منسابة في يُسر وعَفْوِيَّة في أرجاء القصيدة ، مشبوبة الأوار في غرضها ، لم تخمد جذوتها في الفخر أو الهجاء ، لفيضها من النفس ، وجريانها مع الطبع .

والشاعر من منطلق التدفق العاطفي ، والثورة الانفعالية العارمة ، التي تموج بها نفسه ، ويغلي منها فؤاده ، لم يأبَهْ بـ « التقفية » بين صدر البيت الأول وعجزه ، على العادة الغالبة في الشعر ؛ وكأن الشحنة العاطفية الانفعالية لم تمهله لمثل هذه « التقفية » .

**موسيقى القصيدة** : إن لكل قصيدة نغمتها الخاصة التي تتفق وحالة الشاعر النفسية ، والإيقاع الموسيقي يمثّل عنصرا بارزا في ضبط انسياب موجة النغم الموسيقي ، والفرزدق قد اختار لقصيدته هذه أوزان « بحر الكامل » الذي هو أكمل بحور الشعر ضرباً وحركةً ، وهو من البحور الصافية ، والمترعة بالموسيقى ، وهذا البحر يتفق مع الجوانب العاطفية المحتدمة داخل الإنسان ، ويجمع بين الفخامة والرقة ، وتغلب

في هذا البحر الحركات على السكنات ، ففيه ثلاثون حركةً ، لم تجتمع في غيره ، وأوزانه :

« متَفاعلن ، متفاعلن ، متفاعلن

متفاعلن ، متفاعلن ، متفاعلن »

وهذا يؤكد جانب الجزالة ، خاصة إذا ظهرت فيه ظاهرة التشديد ، وبهذا يكون الفرزدق قد زاوج بين حالات النفس وطبيعة الموضوع في حبات عقد موسيقى بحر الكامل .

والقافية تمثل عنصراً إيقاعياً قوياً ، وتربط بين الوحدات الشعرية المتمثلة في أبيات القصيدة ، وتحدث توازناً يحسه الإنسان في النص والنفس معاً ، والقافية في نفس الوقت متممة للمعنى في البيت ، فتأتي كالموعود المنتظر يتشوقها المعنى بحقه ، واللفظ بقسطه ، وإلا كانت قلقة في مكانها ؛ وقد اختار الفرزدق قافية « اللام المضمومة » ، وهي « أسنانيّة لثوية » تمنح أواخر الأبيات لونا من ألوان الإحساس بالجزم والقطع والتحدي ، وبهذا يكون الشاعر قد عقد اتفاقاً بين هذه القافية وموضوع قصيدته من جانب ، وبين هذه القافية ونفسه من جانب آخر .. فالوزن والقافية هما مفتاح النغم في القصيدة ، وهما الناهضان بموسيقى القصيدة الخارجية ، أما موسيقاها الداخلية فتنهض بها عناصر تشكيلية أخرى ، منها اختيار الكلمات ذوات الجرس الموسيقي وتكرارها ، والطباق « محتب ـ احتبوا ـ لا يحتبي » ، والمقابلة ، والجناس ، وردّ الأعجاز على الصدور ، وسيطرة كلمة أو حرف على البيت ؛ إن جميع عناصر الشكل تتآزر في إعطاء القصيدة لونها .

**البُعْد التّأثري والتأثيري في القصيدة :**

ألمحنا ـ سلفا ـ إلى أثر القرآن الكريم في هذه القصيدة .

ونغُزّ الركب تنقياً عن أثر الشعر العربي في هذه اللامية ، وتأثيرها في ساحة الشعر العربي ، ويظهر لنا أن الفرزدق حين قال في هجاء جرير :

إن الزحـام لغيركـم ، فتحيّنوا
ورد العشيّ ، إليه يخلو المنهل

إنما كان متأثراً بقول النجاشيّ الشاعر في هجاء بني العجلان * :

ولا يـردون المـاء إلا عشيّة
إذا صدر الوُرّاد عن كل منهل

ويتضح تأثر الفرزدق في قوله التعجيزيّ :

فادفـع بكفـك ، إن أردْت بناءنـا
ثهلانَ ذا الهضبات ، هل يتحلحل ؟!

---

* لما استعدى بنو العجلان عمر بن الخطاب ﷺ ، على النجاشي الشاعر حين هجاهم :

قبيلته لا يغـدرون بذمـة    ولا يظلمون الناس حبّة خردل

قال عمر : ليت آل الخطاب هكذا ، فقالوا : وقال :

ولا يردون الماء إلا عشيّة    ... ... ... ... البيت

قال عمر : ذلك أقل للمكاك .

راجع : الشعر والشعراء ص ٢٩٠ ، والعمدة ١/ ٢٧ وما بعدها .

بقول الأعشى :

كناطح صخرة يوما ليوهنها
فلم يضرْها ، وأوهى قرنَه الوَعِلُ

كذلك يبدو لنا ـ نتيجة الاستقراء ـ أن قصيدة الفرزدق هذه قد راقت في عيون الشعراء ، فهذا ابن عمار الأندلسي وزير المعتمد بن عباد يعجب بقول الفرزدق :

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنا إذا ما نجهـل

فيقول مادحا المعتمد :

من لا توازنه الجبال رزانة
من لا تسابقه الرياح إذا جرى

ويحلو بيت الفرزدق في لسان صفي الدين الحلي ، فيقول مفتخرا بقومه ، متأثرا به :

قوم إذا استخصموا كانوا فراعنة
يوما ، وإن حكموا كانوا موازينا
تدرعوا العقل جلبابا ، فإن حميت
نار الوغى خلتهم فيها مجانينا

بيد أن الحلي لم يصل إلى فحولة الفرزدق وفخامته .

فالفرزدق شاعر متلفع بمآزر المجد من جهتَيْه : الاجتماعية والأدبية.

والشعر قطعة من نفس صاحبه .. واختيار المرء قطعة من عقله .

# أضواء على الكميت(١)

## وحيـــاته

الشاعر : هو الكميت بن زيد الأسدى ، ينمى نسـبه الى مضر بن نزار ، وهو شاعر حضرى ، اذ ولد فى الكوفة عام ستين للهجرة ، ونشـأ بهـا ، وكانت الكوفة موئلا للعلماء والفقهاء ومنتدى للأدباء والشـعراء ، ولم يكد الكميت يشب عن الطـوق حتى شرع يتزود من ضروب المعرفة وأفانين الثقافة ومجالس واصـل بن عطاء رأس المعتزلة ، ولم يلبث أن أصبح معلما للناشئة فى مسـجد الكوفة ، وكان الى جانب هذا خطيبا بارعا لا يجـارى ، كما كان راوية لشعر الأقدمين وأخبارهم ، وقد أشاد من كتبوا عنه بعلمه بلغات العرب ، وخبرته بأنسابها وأيامها، حتى ليقال : انه ناظر حمـادا الراوية فى الرواية فغلبه وأفحمه ؛ ويقال : ما جمع أحـد من علم العرب ومناقبها ومعرفة أنسابها ما جمع الكميت(٢) بالاضـافة انه كان فقيه الشـيعة الزيدية . ثم لم يلبث الكميت أن برع فى الشـعر وعالم القريض ، وبز فيه أقرانه ، لدرجة أن من أهل الذوق من اعتبره أشعر الأولين والآخرين (٣) ؛ يقول

---

(١) الكميت فى الأغانى ج ١٨ ص ٦٢٦٥ وما بعدها ( الطبعة السابقة ) ، البيان والتبيين ج ١ ص ٤٥ ، ح ٢ ص ٢٣٩ . تحقيق عبد السلام هارون الطبعة الرابعة ـ مكتبة الخانجى ـ ، أمالى المرتضى تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم طبعة الحلبى ( ط. الأولى ) ٦٦/٢ ، ٩٩ ـ ٢ / ، خزانة الأدب ج ١ ص ١٣٨ وما بعدها ( الطبعة السابقة ) ، الشعر والشعراء ص ٣٦٨ وما بعدها ( الطبعة السابقة ) الموشح ص ٣٠٢ وما بعدها ( الطبعة السابقة ) وغيرها من المراجع . والكميت شتق من الكمتة ، والكمتة ن الخبل بين الأسود والأحمر .

(٢) الموشح ص ٣٠٢ ، عده الجاحظ من الخطباء والشعراء فى البيان والتبيين ٤٥/١ .

(٣) كالهراء فى الأغانى ٦٣٠٢/١٨ .

أبو عكرمة الضبى : « لولا شعر الكميت لم يكن للغة ترجمان ، ولا للبيان لسان » ويقول أبو عبيدة : « لو لم يكن لبنى أسد منقبة غير الكميت لكافهم ، حبهم الى الناس وأبقى لهم ذكرا »(٤) .

ويبدو ان الله حباه ذكاء ولو ذعية منذ صغره ، وهذه الواقعة التى جرت بينه - وهو صبى - وبين الفرزدق تؤكد هذا الاستنتاج ، فقد وقف على الفرزدق وهو ينشد، فأعجب الفرزدق حسن سماعه ، فلما فرغ قال : يا غلام كيف ترى ما تسمع ؟! قال الكميت : حسن يا عم . قال : أيسرك أنى أبوك ؟! قال : أما أبى فلا أبغى به بدلا ، ولكن يسرنى أنك أمى ! فحصر الفرزدق وقال : « ما مر بنا مثلها »(٥) . والكميت كان من شعواء حضر وألسنتها المتعصبين على القحطانية ، المقارعين العالمين بالمثالب (٦) .

وكان شيعيا يتدفق حبا لآل البيت ، وينفطر أسى لما ينزل بساحتهم ، ومن هذا الحب الفياض والايمان الراسخ بمذهبهم ، تعصب فى شعره للهاشميين وجاهر بذلك ، فى رباطة جأش وقوة يقين وثبت جنان ، ودافع عن حقهم فى الخلافة ، وندد بالأمويين وحكمهم ، وسل يراعه وعاطفته وعقله فى وجوههم ، وشدد الحملات عليهم ، غير عابىء بغضبهم أو نقمتهم ، وله فى هذا الميدان القصائد المشهورة ، والتى تعد أجود شعره ، والمعروفة « بالهاشميات »(٧) .

وقد استخلصه لنفسه امام الشيعة الزيدية : « زيد بن

---

(٤) خزانة الأدب ١ / ١٣٨ .
(٥) الشعر والشعراء ص ٣٧٠ .
(٦) الأغانى ١٨/٦٢٦٨ .
(٧) المرجع السابق ١٨/٦٢٦٦ .

على » فاذا الكميت مناضل عنه ، أشرب قلبه حب الهاشمين ، فانقطع لهذا الحب ، وصوره فى شعره ، فأحسن فيه كل الاحسان ، حتى قال الفرزدق ( المتوفى سنة عشر ومائة ) فى الكميت وشعره : انه وجد آجرا وجصا فبنى ؛ أى أنه وجد مادة غنية لأشعاره فأحسن فى نظمه .

والواقع أن حب الكميت آل البيت ودفاعـــه عنهم لم يكن مشوبا برغبة دنيوية ، كالمطمع فى مالهم ، أو الرغبة فى عطاياهم ، فالدنيا لم تكن معهم ، وانمـــا كان يدخره أجرا عند الله ،ويتخذه وسيلة عند رســـول الله ، بدليل ما أخبرت به المصادر (١) من أن الكميت دخل على « على بن الحسين الملقب بزين العابدين » فقال : انى قد مدحتك بما أرجو أن يكون لى وسيلة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أنشده قصيدته التى أولها .

من لقلب متيم مستهام
غير ما صبوة ولا أحلام ؟!

فلما أتى على آخرها قال له : ثوابك نعجز عنـــه ، ولكن ما عجزنا عنه فان الله لا يعجز عن مكافأتك : اللهم اغفر للكميت ، اللهم اغفر للكميت . ثم جمع له أربعمائة ألف درهم وقال له : خذ يا أبا المستهل . فقـــال له : لو وصلتنى بدانق (٢) لكان شرفا لى ، ولكن ان احببت أن تحسن الى فادفع الى بعض ثيابك التى تلى جسدك أتبرك بها . فقام فنزع ثيابه ودفعها اليه كلها ، ثم دعا له .

---

(١) انظـــر : الأغانى ج ١٨ ص ٦٢٦٦ ، وخزانة الأدب ج ١ ص ١٣٩ وما بعدها ، وأمالى المرتضى ج ١ ، والشعر والشعراء ص ٣٧٠ وغيرها .

(٢) الدانق : سدس الدرهم .

وتكرر منه مثل هذا الصنيع مع جعفر الصادق ، حين نشده قصيدته التى أولها :

ألا هـــل عم فى رأيه متـــأمل ؟
وهل مدبر بعد الاســـاءة مقبل ؟!
وهل أمـة مســـتيقظ لـــدينهم ؟
فيكشف عنه النعسة المتزمـــل ..
كلام النبيين المهـــداة كلامنـــا
وأفعال أهـــل الجاهلية نفعـــل
رضـينا بدنيـــا لا نريد فراقهـــا
على أننـــا فيمها نموت ونقتـــل
ونحن بهـــا مستمسكون كأنهـــا
لناجنة ممـــا نخـــاف ومعقـــل

الى أن وصل الى قوله فى الحسين بن على رضى الله عنهما :

كان حســـينا والبهاليـــل حوله
لأســـيافهم ما يختلى المتبقـــل
وغاب نبى الله عنهم ، وفقـــده
على الناس رزء ما هناك مجلل
فلم أر مخـذولا أجـــل مصـــيبة
وأوجب منـــه نصرة حين يخـــذل

هنا رفع جعفر الصـــادق يديه وقال : اللهم اغفـــر للكميت ما قدم وما أخر ، وما أسر وما أعلن ، وأعطـــه حتى يرضى . ثم اعطاه ألف دينار وكسوه .

فقال له الكميت : والله ما أحببتكم للدنيـــا ، ولـــو أردتها لاتيت من هى فى يديه ، ولكننى أحببتكم للآخرة؛ فأما الثياب التى أصابت أجسادكم فانى أقبلها لبركتها ، وأما المال فلا أقبله .

وكان الكميت على صلة بخالد بن عبد الله القسرى(١) ، والى العراق ( ١٠٥ - ١٢٠ هـ ) لهشام بن عبد الملك ، فلما دعا زيد بن على للثورة وخاصم خالد القسرى - وكان يمنيا - وقف الكميت يؤلب الناس على القسرى ، وتعصب لمضر وهجا اليمن فى قصيدته المعروفة بالمذهبة ، والتى أولها :

ألا حييت عنا يا مدينا
وهل باس بقول مسلمينا

والحقيقة ان الكميت انما يهدف من اثارة هذه العصبية فى هذا الوقت بالذات الى هدف سياسى متمثل فى تهيئة الجو لامامه زيد ليصل الى ما يصبو اليه ، والناس منصرفون الى ما صرفهم اليه بأهاجيه ·

وزج بالكميت بسبب هذه القصيدة فى غياهب السجون ·

على أن هناك رواية أخرى مؤداها : أن الهجاء ثار بين الكميت وبين حكم بن عباس الكلبى - اليمنى - (٢) والذى كان من شيعة خالد ، فأنشد حكيم خالدا ما يقوله الكميت فى قومه اليمنيين ، فحنق عليه ، فدس بعض المغنيات فى بلاط هشام بن عبد الملك فتغنين بهاشميات الكميت ، فأمر هشام بقتله ، وكان الكميت فى حبس خالد ، الذى كان يتعصب ضد الشيعة ويبغضهم ، بيد أن زوج الكميت احتالت فى هربه من الحبس(٣) ، اذ خلعت عليه ثيابها - فى احدى زياراتها له - فخرج على الحراس فى زيها وهيئتها فلم يعرفوه ، وتوجه من

---

(١) الأغانى ٦٢٦٨/١٨ وما بعدها ·
(٢) المرجع السابق ٦٢٧٤/١٨ ·
(٣) المرجع السابق ٦٢٨٤/١٨ ·

فوره الى الشام مستغيثا بأشراف بنى أمية ، فشــــفع فيه مسلمة بن هشــــام عند أبيه ، فعفا عنه ، وأعطـــاه مالا كثيرا ، وكتب الى خالد بالامان له ولاهل بيته ·

وقد اضطر الكميت ازاء هذا الى أن يحطب فى حبال الامويين ، على غرار قوله :

فالآن صــــرت الــــى أميــــ
ــــة والأمور الى مصـــــائر
أهــــل التجــــارب فى المحــــا
فــــل والمقــــاول بالمخاصــــر
أنتــــم معــــادن للخــــلا
فــــة كابرا من بعــــد كابــــر

الا ان هذا من الكميت لم يكن تحولا عن شيعته بنى هاشم ، وانما كان مداراة للامويين ، وتقية ، والتقيـــة فكرة شيعية ، فشعره فى الأمويين لم يكن ذا بال ، لأنه كان شيئا عارضا فى حياته ، وهو لهذا لا يصور عاطفته وذهنه ·

وعاد الى الكوفة موفور الحــــرية ، وسرعان ما عزل القسرى عام عشرين ومائة للهجرة ، وولى يوسف بن عمر الثقفى مكانه ، ليقتل سنة احدى وعشرين ومائة زيد بن على ، ويصلب جسده بالكوفة ، ويرسل برأسه الى هشـــام الذى بعث بها الى المدينة ، وظلت معلقة هناك حتى ولى الوليد بن يزيد فأنزلت وأحرقت ·

وقد ذهب الكميت ــ الذى ما انفك وفيا للهاشـــميين متعصبا لهم ــ يبكى بكاء مراحين قتل امامه زيد بن على، ويهجو يوسف بن عمر هجاء أمر ، على شاكلة قوله :

يعــز على أحمــد بالــذى
أصــاب ابنه أمس من يوسف
خبيث من العصــبة الأخبثين
وان قلت زانين لــم أقــذف

وظل الكميت على هذا الحــال ، ويوسف يتربص به الدوائر ويتحين له الفرص ، حتى اذا كانت ســنة ست وعشرين ومائة وفــد عليه ، فاحتــاط به حفود يوسف ووضــعوا سيوفهم فى بطنه ، فلم يزل ينزف الدماء حتى مات ويقال : انه كان يفتــح عينيه وهو يجود بنفســه ويقول : اللهم آل محمد ، اللهم آل محمد (١) .

لتطوى صفحة عامرة بحب آل البيت حافلة بودهم فى رداء الفضيلة الدامية .

**شــعر الكميت :**

شــعر الكميت يعبر عن حبه لآل البيت وتشــيعه للعلويين ، ونراه فى هاشمياته لا يمدح العلويين فحسب، وانما يقرر ـ الى جانب ذلك ـ عقائدهم وأفكارهم تقريرا ينهض على الجدل والاحتجاج والاستدلال ، وهــذا اللون يعد جديدا فى ذوقه وسمته فى عالم الشعر ودنيا القريض لأنه يجمع بين العاطفة والعقــل ، بل ان القيمة العقلية فيه اوفر من القيمة العاطفية : وبهــذا يتميز الكميت عن سائر الشعراء ويعد من هذا الجانب نسيج وحده وفريــد لونه ، ويعد لهذا شخصية طريفة .

ـ ومن هنا وجدنا الكميت عازفا عن فنون الشعر : من مدح وهجاء وفخر الى هذا النظــام الفكرى المتمثل فى

---

(١) انظر الأغانى ١٨/٦٣١-٦٣١ ، وخزانة الأدب ٢/١٤٠ .

مديح آل البيت وتقرير حقهم فى الخلافة والاحتجاج ودفع مناوئيهم ، ولهذا قال الجاحظ : ان الكميت أول من دل الشيعة على طرق الاحتجاج وعده آخرون خطيبا لا شاعرا .

اذ أنه لا يعنى بفن الشعر عناية شاعر ، وانما يعنى به عناية داعية .

وشعره من هذا المنطلق لم يقف عند حد التعبير عن الاحاسيس والمشاعر والعواطف ، وانما تعدى هذه السمات الى الأفكار وما تثيره من طرق وأحاجى . ولعل قدرته على الجدل والاقناع قد واتته من قبل امامه زيد بن على ، ولعلها واتتهما معا عن طريق واصل بن عطاء ، فقد تتلمذا على يديه .

ومن ثم جاءت هاشميات الكميت مناظرات لا تنهض على الاقناع العاطفى فحسب ، وانما تنهض على الاقناع العقلى فى المقام الأول ، حيث يعتمد فيها على النظر العقلى المحض والعمق الفكرى ، وآى الذكر الحكيم التى تقرر حق الاقربيين . وقد جاءت هاشمياته لذلك مقررة حق الهاشميين فى مهارة عقلية فائقة .

ولا ريب فحبه لبنى هاشم وشغفه بهم جعله يقصر نفسه وشعره عليهم وعلى فكرتهم .

والآن حان الوقت لنعيش مع احدى هاشميات الكميت .

طربت وما شوقا الى البيض أطرب
ولا لعبا منى ، وذو الشيب يلعب
ولم تلهنى دار ولارسم منزل
ولم يتطربنى بنان مخضب
ولكن الى هل الفضائل والنهى
وخير بنى حواء ، والخير يطلب

الى النفـــر البيض الـــذين بحبهم
بـــــالى الــلــه فيمـــا نابنى أتقـــرب
بنـــى هاشـــم رهـــط النبى ، فاننى
بهـــم ولهـــم أرضى مـــرارا وأغضب(١)

* * *

خفضت لهـــم منى جنـــاحى مـــودة
الى كنف عطفــــاه أهـــل ومـــرحب
وكنت لهـــم من هـــؤلاء وهـــؤلاء
مجنـــا ، على أنـــى أذم وأقصـــب
وأرمى وأرمى بالعـــــداوة أهلهـــا
وانـــى لاؤذى فيهـــم وأؤنـــب
فقل للـــذى فى ظـــل عميـــاء جونة
ترى الجور عدلا أين لا أين تذهب ؟!
بـــاى كتـــاب أم بأيـــة ســـنة
تـــرى حبهم عـــارا علـــى وتحسب
وقالـــوا : ترابى هـــواه ورأيـــه
بـــذلك أدعـــى فيهـــم وألقـــب
يعيبـــوننى مـــن خبهـــم وضـــلالهم
على حبكم ، بل يســـخرون وأعجب(٢)

* * *

---

(١) البيض : الغيد الحسان . رســم منزل : اطلاله وأثره . يتطربنى : يدعونى الى الطرب والنشوى . بنان مخضب : اطراف الأصابع المزدانة . النهى : جمع نهية ، وهى العقل . النفر البيض : الأشراف الأجلاء الأعلام . رهط النبى : اهله وعشيرته .

(٢) خفضت لهـم جناحى : تواضعت لهـم عرفانا بفضـلهم ومكانتهم . الكنف : الحمى والموئل . عطفاه : جانباه . المجـن : الترس يتقى به المحارب ضربات العدو . اقصب : اعاب واشتم . فى ظل عمياء جونة : الظل هيا يعنى كظلمة ، والعمياء : الضلالة . والجونة : السوداء الحالكة . وجملة لا اين تذهب : دعاء عليه بعدم الاهتداء الى قصده . ترابى : نسبة الى ابى تراب وهو على كرم الله وجهه . خبهم : خبثهم ودهائهم .

بخاتمكم غصبا تجوز أمورهم
فلم أر غصبا مثله يتغصب
وجدنا لكم فى آل حاميم آية
تأولها منا تقى ومعرب
وفى غيرها آيا وآيا تتابعت
لكم نصب فيها لذى الشك منصب
بحقكم أمست قريش تقودنا
وبالفذ منها والرد يضن نركب
اذا اتضعونا كارهين لبيعة
أنا خوا لأخرى ، والأزمة تجذب
ردافا علينا لم يسيموا رعية
وهمهم أن يمتروها فيحلبوا
لنا قائد منهم عنيف وسائق
يقحمنا تلك الجراثيم متعب
وقالوا : ورثناها أبانا وأمنا
وما ورثتهم ذاك أم ولا أب
يرون لهم حقا على الناس واجبا
سفاها ، وحق الهاشميين أوجب
ولكن مواريث ابن آمنة الذى
به دان شرقى لكم ومغرب
فدى لك موروثا أبى وأبو أبى
ونفسى ، ونفسى بعد يالناس أطيب
يقولون : لم يورث ولولا تراثه
لقد شركت فيه بكيل وأرجب
وما كانت الأنصار فيها أذلة
ولا غيبا عنها اذ الناس غيب
هم شهدوا بدرا وخيبر بعدها
ويوم حنين والدماء تصبب

فــان هن لم تصــلح لحى ســـواهم
فـــان ذوى القربى أحــق وأقـــرب (١)

* * *

أناس بهم عزت قـــريش فأصـــبحوا
وفيــهم خبـــاء المكرمـات المطـنب
أولئك ان شـــطت بهم غربة النـــوى
أمانى نفسى ، والهـوى حيث يسقب (٢)

---

(١) تجوز : تنفذ وتمضى • يتغصب : يغتصب • الفذ : قدح من قداح الميسر له عند الفوز سهم ، وعليه مثله عند عدم الفوز ، فهو اقل الاقداح غنما وغرما ، والرديفان : القدحان التاليان للفذ وهما : التوءم والرقيب ، والدهماء يقامرون على الفذ والرديفين ليسر الغرم فيها اذا خسرت ؛ والعلية من القوم يقامرون بالمعلى وله سبعة اسهم كسبا وخســـارة •

اتضعونا : اخضعونا • اناخوا الاخرى : دبروا الامر لبيعة اخرى• والازمة : جمع زمام • تجذب : تؤخذ غلابا • لم يسيموا الرعية : لم يتركوها تنعم بموارد خيراتها • يمتروها : هنا شبه الرعية بالناقة ، وامترى الناقة : مسح ضرعها ليدر لبنها •

اراد بالقائد والســـائق : الخلفـاء والولاة • يقحمنا : يكلفنا ويحملنا • الجراثيم : جمع جرثومة وهى التراب المجتمع فى أصول الشجر تسفيه الريح فيتاذى منه الناس •

ورثناها : اى الخلافة • سفاها : جهلا وباطلا وخفة حلم •

بكيل وارحب : حيان من همدان •

(٢) وفيهم خباء المكرمات : الخباء : الخيمة او البيت المصنوع من الوبر • والمطنب : المشدود بالاطناب وهى الحبال • شطت : بعدت • النوى : الفراق والبعد • يسقب : السقب : القرب •

## المعنـــى

هـــذه الأبيات نفثة قلب يخفق بحب الهاشميين ، ويخلصهم الود ، ولا يبالى ـ بعد ذلك ـ ما يناله فيهم من غضب الحزب الأموى الحاكم ونقمته ، وتأكيد على أن الذى يجرى فى دماء صـاحب الهاشميات « الكميت » ايمان راسخ بحق العلويين ، وتشيع أبلج لهم ولمذهبهم، وبغض للأمويين وسياستهم ، واراقتهم دماء آل البيت والبغى عليهم .

ولهذا فلم يعد فى الشـــاعر شىء للغزل ولا للحب سوى حب الهاشميين الذى صورت جانبا ، منه هـــذه الهاشمية . ومن ثم فليس مبعث طرب الشاعر حب الغيد الحسان أو ذكر الكواعب الأتراب ، أو الحنين الى العبث الذى عـزف عنه ، رغبة لا عجـزا ، ـ فقد يعبث الشيب ويلهون ـ ولم يـكن الكميت ممن تشـــوقهم الأطـــلال والدمن ، أو تثير الآثـار الدوارس فى حنـــايا نفوسهم الذكريات .

وانما مبعث طربه ومصدر شوقه آل بيت الرسول ، ذوو الفضائل والمكارم والعقول ، ولم لا ؟!! فهم خيـــر الناس خلقا فضلا وبرا ، والخير حفى بأن يســعى اليه ويطلب ، أولئكم الأماجد الأعلام الأشراف يتقرب الشاعر الى الله بحبهم ، وبما يلاقى فى سبيل هـــذا الحب من أذى واضطهاد واحن ، يجد صـــداها فى نفسه حبـــا وشـفافية ونورانية ، فهـــو لا يسره الا ما يرضـــيهم ، ولا يسوه الا ما يغضبهم .

وعلى طـــريق الحب يصـور الشـــاعر ميله اليهم واخلاصه لهم وتفانيه فى تأييدهم ، فيؤكد أن حبــه لهم نابع من منطلق التواضـع والخضـوع والألفة والعرفان

لأقدارهم ومكانتهم اذ يجد فى رحابهم خير الأهـــل ، والمرحبين به ، والمكان الأرحب ؛ لكل هذا نصب نفســه للذود عن حياضهم ، والدفاع عن مناهلهم ، مستهينا بالأذى فى سبيلهم ، غير حافل بعنت أو عذاب .

وهنا يحمجم الغضب فى صدره ، فيعلن مجـاهرا سخطه على أعداء بنى هاشم هـؤلاء الذين يحيون فى غواية وعماية ، والذين قلبوا معايير الأشـياء ، فصور لهم ضلالهم الباطل حقا والجور عدلا ، فيدعو عليهم بعدم الرشاد والبعد عن السداد .

ثم يتحدى من يلومه فى حبه أن يدعم تحديه أيـاه بدليل من كتاب أو سـنة ، ويدمغهم قائلا : لقد انسقتم وراء خداعكم وضلالكم ومينكم وجهلكم ، فرحتم تعيبون تعلقى بالهـاشميين واتخذتمونى موضـعا للسـخرية والازدراء : وهيهات هيهات !! انى من أمركم لفى عجب عجاب !! ثم شرع يقرر حـق الهاشميين فى الخـلافة ، ويناظر الأمويين مغتصبيها ، واستهلها بأن خاتم النبى صلى الله عليه وسلم ، وهـو خاتم الخـلافة ، خاتم بنى هاشم ، وأن بنى أمية اغتصبوه اغتصابا من أصـحابه ، وقد قررت حـق الهاشميين ذوى القربى سـور حاميم وغيرها من مثل قوله تعالى : « قل لا أسالكم عليه أجرا الا المودة فى القربى » وقـوله تعالى : « انمـا يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهـل البيت ويطهركم تطهيرا » وقوله عز وجل : « واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى » وقوله جل وعلا : « وآت ذا القربى حقه » هذه الآيات المحكمات ناطقات بحق بنى هاشم ، وان لبنى أمية منها ــ كما يقول الشاعر ــ لعذابا ونصـبا ، اذ لا يستطيعون تأويلها ، ولا صرفهـا عن وجهها .

ويقرر أن بنى أمية إنما وثبوا الى الخلافة لأنهم من قريش ، وما جعلت الخلافة فى قريش الا لأن بنى هاشم منهم ، فالخلافة حق أولوى لهم ، عدا عليه الأمويون واستبدوا به ولم يكن لهم بدء يذكر فى قيام الدولة الاسلامية ، وتولوا أمر المسلمين يتقدمهم معاوية ـ الفذ ـ أحد سهام الميسر ـ والرّديفيون الذين جاءوا من بعده ، يكرهون الناس على البيعة لأمرائهم واحدا بعد آخر ، ويتوسلون لذلك بالقهر والحيلة ، وان الأمويين ليحكمون رغبة فى الظفر بخيرات الأمة ومواردها ، وحرمان الرعية منها ، وانهم يكلفون الأمة من أمرها عتيا ، ويلهبون ظهور الرعية بالسياط والعذاب والنكال.

وينتقل الشاعر الى الحديث عن قضية الوراثة ، صادرا فيها عن دعوى الأمويين ، التى تزعم أن آباءهم قد أورثوهم الخلافة ؛ وينقض عليهم دعواهم ببطلان ما زعموا وكذب ما ادعوا ، فقد فرضوا أنفسهم على الناس فرضا ، ولو كان الأمر للحق والارث لكان الهاشيمون أولى بميراث الخلافة . لأن محمدا صلى الله عليه وسلم صاحب الحق الأول ، والهاشميون عشيرته وآله الأقربون ، ثم يكشف عما فى حديث الأمويين من بطلان وضلال ، اذ أنهم يدعون الخلافة ، وفى ذات الوقت يذيعون أن النبى لا يورث ، والتناقض واضح ، على أنه ان لم يورث لكانت الخلافة حقا لجميع القبائل ، ولم تقتصر على قريش ، ولو جاز هذا لسعت الى الخلافة سائر القبائل العربية على اختلافها وأحجامها ، ولكان للأنصار فيها الحظ الأوفر والقدح المعلى ، وهم الذين آووا رسول الله وآزروه ، ونصروه على الأعداء والمناوئين فى بدر وخيبر وحنين وغيرها من الغزوات ؛ وهذا ما لم يقل به واحد من الناس ؛ فاذا ثبتت الخلافة فى قريش ، فهى اذن ميراث ، وما دامت ميراثا ، فللمواريث قانون ينبغى أن يراعى ، وأن نرد الخلافة من أيدى مغصبيها

على أهليها الحقيقين بنى هاشــم ، مصابيح قريش وسر عزتها وموطن المكرمات فيها ، والصفوه المختـــارة بين العرب ، حبة عينى ونياط قلبى وخفق جنــانى وموطن حبى على القرب والبعد ، ولا غـــرو فالقلب يتجه بحبه وحنينه وهواه الى من يحب وان شطت به الغربة ٠

## التحليل والتـذوق

**الأفـكار :**

تدور حول موقف الشـــاعر من الهاشميين ، وحبه لهم، ودفاعه عنهم وتأييده لحقهم فى الخلافة، واستهانته بما يناله من أذى أو عنت ، ثم مناهضيته لبنى أميـــة ، واحتجاجه عليهم ، ودحض دعاواهم ومزاعمهم .

تتسم الأفكار فى القصيدة بالقوة والعمق والوضوح والترتيب الدقيـق وحسن التنسيق والتسلسل المنطقى ، وترى لذلك الفكرة تسلم الى أختها التى تليها وتدعمهـا وتؤازرها فى البـــلوغ الى الهدف المنشـــود ، ومن ثم فلا تجد فكرة نابية أو قلقة أو مضطربة .

وسير الأفكار على درب الموضوع لا تبرحه ، وتلاحم أبيات القصيدة فى بنائها ونسقها الغنى ، جعلها بمثابة الجسم المتكامل الأجـزاء ، وألبســها رداء الوحدتين : الموضوعية والعضـــوية . حتى ان الشـــاعر فى مطلع القصيدة لم يقف على الأطـلال ، ولم يبـك على الدمن والآثار . كما كان الحال والشأن عند غيره . تتجلى فيها مقدرة الشاعر الفنية : فى حسن تنقله من فكرة الى فكرة، ومن صورة الى صورة ، وفى عرض أدلته وحججه عرضا منطقيا مرتبا ، فالقصيدة غالبا ما تنهض على الجـدال الصرف والاحتجاج المحض ، فالشعر فيها يتصل بمنابع عقلية تعد جديدة فى عالم الشعر ، والحجج التى تـدفع الخصوم فيها قوية ، لا يتطرق الشك اليها من بين أيديها ولا من خلفها ، لقيامها على قضايا ومقدمات صحيحة .

تعد القصيدة أجمل تعبير وأدقه عن الصياغة الفكرية والذهنية التى وصل اليها العقل العربى ، اذ الشاعر فيها

لم يقف عند حد التعبير عن الصياغة الشعورية الوجدانية .

**العاطفة :**

القصيدة تجيش بالعاطفة القوية المتدفقة المتقدة المشبوبة فى أبياتها جميعها ، ولم تأت فاترة كليلة فى جانب منها ، ولا غرو !! فالشاعر محب ثائر ، وجد فى حبه آل البيت مجالا خصبا لوجدانه الصادق وشعوره الخفاق واحساسه الفياض ، ولهذا أخلص لموضوع قصيدته، ونأى عن المقدمات التقليدية : طلية أم غزلية، وعاطفة الشاعر العميقة انما تصدر فى القصيدة ـ كما يتراءى لنا ـ عن الحب والغضب معا : الحب لآل البيت، والغضب الهادر على بنى أمية ، وقد استطاع الشاعر بذلك أن يلهب المشاعر ، وأن يذكى العواطف ، وأن يؤجج الأحاسيس ؛ وواتته مقدرته الفنية وبراعته الأدبية أن يمزج فى مهارة فائقة بين العاطفة الدينية والاتجاهات السياسية ، مما كان له الأثر الفعال فى جمال القصيدة وروعتها ، وما تحفل به من الصدق الفنى .

الى جانب أن الشاعر فى مطلع قصيدته قد ارتكز على اثارة مشاعر السامعين وجذب انتباههم ، حيث وجدناه يؤخر التصريح بالأسباب المفضية الى طربه ، وبمن يحب ، ليضمن السامعين وقلوبهم من خلال عنصر التشويق .

ان عاطفته الجياشة ـ فى المطلع ـ تنبع من حبه العميق لبنى هاشم ، هذا الحب الذى استوى على أقطار قلبه ونياط جنانه ، وعزف بسببه عن كل ما يغرى فى الحياة ، من جمال أو دلال ، أو رجع الحنين نتيجة

الذكريات ، فمبعث طربه وسر سعادته كامن فى حبه آل بيت الرسول .

**الجوانب التصويرية والأخيلة :**

الشاعر هنا ملك ناصية البيـــان ، اذ انتقى ألفاظه انتقاء ، فجاءت معبرة قوية ، مواكبة معانيه وأفكاره ، فترق فى موطـن الـرقة ، وتعنف وتقــوى فى موقف العنف .

ويبرز الجانب التصويرى عندما يعبر الشـاعر عن عاطفة حبه بنى هاشم ، عندئذ يحلق بنـــا فوق أجنحة الخيال فى عالم التصوير .

ويخبو هـــذا الجانب فى مواقف الدفاع والجـدال والاحتجاج ليظهر على السطح عالم التقرير ، المستند الى الحجج والبراهين والحقيقة والمنطق أكثر من اسـتناده الى الخيال الأماح والتصوير البارع .

وعلى الرغم من غلبة الجانب العقلى الذهنى على الجانب الشـــعورى الوجدانى فلم تخــل القصيدة من اللمحات التصويرية ، وبخاصة فى مقام تصوير الشـاعر لحبـــه بنى هاشم ، وتنديده بالذين يلومونه فى هــــذا الحب .

ففى قوله : « ولم يتطر بنى ابنان مخضب » مجــاز مرسل ، حيث عبر عن الكل ـ المرأة ـ بالجزء ـ البنان ـ فالمرأة كثيرا ما تفتن فى تزيين أناملها بالخضاب . وفى قـــوله : « النفر البيض » كناية عن الاشراف الأعـــلام المصابيح ، ويريد بهم الهاشميين .

وفى قوله : « خفضت لهم منى جناحى مودة » استعارة بالكناية ، فقد شبه نفسه بطائر ذى جناحين ، ثم حذف المشبه به ورمز اليه بشىء من لوازمه،والتعبيريؤكد على أن تواضع الشاعر لهم من منطلق عرفانه بفضلهم ومكانتهم والمعنى مقتبس من قوله تعالى : « وأخفض لهما جناح الذل من الرحمة » وفى كلمة « مجن » تشبيه بليغ يكشف عن صلابة عوده فى الدفاع عن أحبائه ٠ وفى لفظة « أرمى » استعارة تبعية ، فقد شبه اللوم بالرمى ، ثم اشتق منه أرمى بمعنى ألام ٠ ويشبه الضلالة بالعمياء ويضيف الظل اليها ليقوى الاستعارة فى قوله : « ظل عمياء » أو : يشبه ضلال البصيرة بعمى البصر ٠ ويكنى فى قوله هذا عن أعداء بنى هاشم ٠

وفى قوله : « وفيهم خباء المكرمات المطنب ، كناية عن اختصاص الهاشمين بالمكرمات ، وأنهم الأصل فى كل خير وشرف وفضل ، وهذه الكناية تنبع من البادية ، وتتصل اتصالا وثيقا بحياة الصحراء ٠ وتعال الى الاستفهام فى قوله : أين لا أين تذهب ؟ » فهو فى الأولى للتوبيخ والتهكم ، وفى الثانية دعاء بعدم الاهتداء الى الرشاد والاستفهام فى تاليه للنفى والانكار ٠

وفى القصيدة الى جانب هذه الصور محسنات ، كالطباق فى أرضى وأغضب ، والجور والعدل ؛ والجناس ، كالذى فى البيض ، فى البيتين : الأول والرابع ، والتكرار ، فى : طربت وأطرب ويتطربنى ، ولعبا ويلعب ، وخير والخير ، وأرمى وأرمى ، وغصبا ويتغصب ٠ ونصب ومنصب ، وغير ذلك ٠

وفى القصيدة عبارات تجرى مجرى الأمثال ، كقوله : ذو الشيب يلعب ، والخير يطلب ، ذوو القربى أحق وأقرب ، والهوى حيث يسقب ٠

**الموسيقى :**

واضح أن الشاعر قد اختار لأبيات قصيدته موسيقى خارجية تنتظمها أوزان بحر « الطويل » المكونة من : ( فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن ) مرتين وهو بحر تتوازن فيه الحركات والسكنات ، ويتضح فيه الصوت وصداه ، أو النغم وقراره ٠

والطويل بحر الجلالة والروعة والجد والعمق ، ولا تراه الا منحوا نحو الفخامة والأبهة ، ومثله لا يصلح للتعبير عن الرقص والنقزان والخفة ٠

ومن هنا جاء بحر الطويل ممثلا خير تمثيل لموضوع القصيدة وجلاله وعمقه ، ومصورا نفسية الكميت وحبه ، وقيمة هذا الحب ورفعته فى نفسه ٠ والقافية : كما تبدو مواتية للوزن ملائمة لروح الشاعر العاطفية ؛ وهذه الباء المضمومة التى جعلها رويا توحى الى السمع بالاستقرار الموسيقى والاطمئنان اليه ٠ وللوزن والقافية صلة وثيقة بالمعانى التى تدور فى قلب الشاعر ، وتنبعث من أعماق تجربته الى محض البيان ؛ وهما يشيعان فى القصيدة وحده وارتباطا ٠

ويبدع الكميت حين استطاع أن يشيع فى النص موسيقى داخلية ، لا تقل فى روعتها وحلاوتها عن الموسيقى الخارجية ، وقد تأتى من ترسل الألفاظ وانطلاقها واتساقها وما تحمل من شاعرية ، أو من تكرار كلمة لها جرس موسيقى أخاذ ، أو من سيطرة حرف أو أكثر على البيت ، تلون النغم وتسيطر على الايقاع ، أو من بعض ألوان البديع : كالجناس الذى يؤكد النغم ويسبغ الدندنة الموسيقية ٠

وموسيقى الشاعر على هذا ، تزيد من انتباهنا ، وتضفى على الألفاظ حياة فوق حياتها ، وتهب الكلام الفخامة والجمال ، والرفعة ، لتصل معانيه الى القلب ، ويستجيب له العقل بمجرد سماعه .

## قيس العـامرى ومؤنسه (١)

### شخصية الشاعر وحبه :

لا نكاد نذكر الحب والغزل فى شعرنا العربى الأصيل الا ذكر حب قيس وشعره فقيس أبرز الشعراء الغزلين ، وأظهر العشاق العذريين ، هؤلاء الذين جعلوا النـاس يبصرون فى الجمال معانى لم يقعوا عليها ، ويجدون فيه غاية غير ما ألفـوا من غايات ، فقد كان هـؤلاء العذريون أصحاب عواطف بلغت حظـا موفورا من الطهر والسمو والروحانية ، وحبهم يمثل الصراع الـذى ينشب فى الأعماق بين ما تنشده الأرواح وتطمح اليه ، وما تتطلبه الأجساد وتسعى نحوه ، فهو أذن تربية روحية ورياضية أخلاقية ، وهذا ـ بلا شك ـ هو سر تلك القـوة الكامنة فى النسيب الذى صدر عنهم .

وحقيقة الأمر أن هذا الغزل العفيف « مرآة صادقة لطموح هذه البادية الى المثل الأعلى فى الحب من جهة ، ولبراءتها من ألوان الفساد التى كانت تغمر أهـل مكة والمدينة من جهة أخرى » (٢) .

وشاعرنا قد تضـاربت الآراء حوله واختلفت فيه اختلافا ، فمن الناس من ينكر وجوده ويتصوره شخصية

---

(١) قيس فى الأغانى ج ٢ ص ٤١٩ وما بعدها (ط دار الشعب) البيان والتبيين ج ٢ ص ٤١ ( ط الخانجى السابقة ) .
الشعر والشعراء ص ٣٥٥ وما بعدها ( ط ليدن السابقة ) .
الكامـل للمبرد ١٥٤/١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ١٢٥/٢ ( الطبعة السابقة ) . الموشح ص ٣٢٤ ( الطبعة السـابقة ) وغيرها من المراجع .

(٢) أنظر حديث الاربعاء ج ٢ ص ١٩ .

وهمية ـ أو أسطورية كجحا (١) ـ وهذا الفريق من الناس ينسب أكثر ما يروى من شعره الى فتى من بنى مروان كان يهـــوى ابنة عمه ويشبب بهـــا ، ويحرص على سر ما بينهما فيقول فيها الشعر وينسبه الى المجنون أو الى قيس ذلك الرجل صنعه خياله وسماه بهذا الاسم أو وصفه بهذه الصفة ، وأنه عمل له أخبارا وأضاف اليهـــا ذلك الشعر فحمله الناس وزادوا فيه ، وكثير من الرواة يثبت وجوده ويؤكد شخصيته وحقيقته ؛ ومن هؤلاء الأصمعى وأبو عمرو الشيانى وأبو عبيدة والجـــاحظ (٢) ، وابن عدى المرى يؤكد أنه لقيه وتحدث معه ، والتقى بأبيـــه واخوته ، وذكر أنه كان أجمل وأظرف وأروى فتيـــان قومه لأشعار العرب ، وأحسنهم افاضة فى الحديث (٣)

وأريد ان أسأل هؤلاء الذين ينكرون وجود قيس عن الفتى الأموى من يكون ؟ ومن تكون فتـــاته ؟ لأنهم قد قذفوا به فى وجوهنا دون أدنى اشارة الى شىء يفصح عنه ، انهم ان لم يأتونا بمـــا يكشف عنه ـ ولن يأتوا ـ فانكارهم مردود ، لأنه يكون عنـدئذ من قبيل الوضـع الذى يكلمون عنه ، انه لمن العجب العجـاب أن ينكروا شخصية اعترف بوجودها البعض ، وأن يثبتوا شخصية مجهول لم يعرفه البعض ٠

والذين يثبتون وجود قيس ينكرون كثيرا من الشعر المنسوب اليه وينسبونه الى غـــيره ، وفى ذلك يقـــول

---

(١) منهم ابن الكلبى ٠ انظر الأغانى ( ط الشعب ) ٤٢٢/٢ ٠

(٢) يقول المبرد : حدثنى عبد الصمد بن المعذل قال : سمعت الأصمعى يثبته ، ويقول : لم يكن مجنونا ، ولكن كانت به لوثة كلوثة أبى حية الشاعر » الكامل للمبرد ٢٥٤/١ ، ٢٩٣ ، وذكره ابن النديم فى جملة من ذكر من عشاق الجاهلية والاســـلام ٠ فى الفهرســـت ص ٤٢٥ ٠

(٣) الأغانى جـ ٢ ص ١٤ ( ط دار الكتب ) ٠

الجاحظ : « ما ترك الناس شعرا مجهول القائل قيل فى امرأة تسمى ليلى الا نسبوه لقيس بن الملوح ، ولا شعرا هذا سبيله قيل فى لبنى الا نسبوه لقيس بن ذريح » (١) .

والشاعر - على أشهر الأقوال - هو قيس بن الملوح بن مزاحم بن قيس بن عدى من بنى عامر بن صعصعة ، بعض الناس يطلق عليه : مجنون بنى عامر ، ويطلق عليه بعضهم مجنون ليلى ، وهو القائل :

ما بال قلبك يا مجنون قد خلعا
في حب من لا ترى فى نيله طمعا
الحب والود نيطا بالفؤاد لها
فأصبحا فى فؤادى ثابتين معا

وقد جننه العشق ، حيث يقول :

يسموننى المجنون حين يروننى
نعم بى من ليلى الغداة جنون

والمؤرخون جميعا يتفقون على أن المجنون عاش فى عصر دولة بنى أمية ، وأن حياته استمرت حتى عام سبعين من الهجرة .

نشأ فى البادية مشبوب العاطفة متوقد الحس فصيح اللسان مفتونا بالجمال وقد فتن قيس بفتاة من قومه هى : ليلى بنت مهدى بن سعد بن مهدى بن ربيعة العامرية وهام بها حبا ، وقضى فى ساحة هذا الحب ، وأحبته هى الأخرى ومالت اليه ، فأم هذا الحب فى رحاب البادية ، وتحت خيامها ، وفى ظلال كثبانها

---

(١) الأغانى ( ط دار الشعب ) ٢/٤٣٦ .

ومنعطفات أوديتها منذ ان كانا صغيرين ، وشهدت هذه البيئة نموه وترعرعة ، فقد أحبهـا وكلف بها وهمـا لا يزالان صبيين يرعيان فى البادية ، ثم شبب بها بشعر رقيق صادق العاطفة تناقلتة الركبان ودوى صـداه في البوادى وتناشده الناس وحفظوه ، وهوفى شعره يكشف عن حبه المبكر لليلى اذ يقول (١) :

وعلقتهـا غـراء ذات ذوائـب
ولم يبد للاتراب من ثديهـا حجم
صغيرين نرعى البهم ياليت أنـا
الى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم

ويكشف شعره أيضا عن حبه الجارف القوى العارم لليلة ، اذ يقول :

نهارى نهار النـاس حتى اذا بدا
لى الليل هزتنى اليك المضـاجع
أقضى نهـارى بالحديث وبالمنى
ويجمعنى والهم بالليـل جـامع
لقد ثبتت فى القلب منك محبـة
كما ثبتت فى الراحتين الاصـابع

ويتقدم الى خطبتها من أبيها فيأبى ، خوفا من أن يفتضح بين العرب ، لأن التقاليد العربية كانت تحـرم على من يشبب بفتاة أن يتزوج منها ، لأن الزواج حينئذ يكون مبعث ريبة ومظنة تهمة ، فحال القدر المتزمل فى ثياب التقاليد بين الحبيبين ، حيث زوجها أبوها من ورد العقيلى (٢) ، فيذهل قيس ، اذ لم يحتمل وقع الكارثة،

---

(١) انظر الشعر والشعراء ( ط نيدن ) ص ٣٥٦ ، والأغانى ٤٢٩/٢ ، ٤٣٠ .
(٢) انظر الأغانى ٤٣٢/٢ .

ويهيم على وجهه يجوب الفيافى باكيا حزينا شارد اللب، فلا يفيق الا حين يذكر اسم ليلى ، وأنشد فى ليلى من الشعر ما يثير الشجن ويصدع الأفئدة وتتفطر له القلوب، فشعره تصوير لنفس ملتاعة ، شفها الحب ، وآلمها الحرمان ، وصفاها الحزن ، وأرهفها ذلك الحب المحروم، ومن ثم كان قيس أرق الناس شعرا وأرقاهم عاطفة وأصدقهم حبا فلست ترى فى شعره شيئا من تكلف أو صنعة ، لا تملك الا أن تشاركه تجربته الشعرية الانسانية ٠

وهو لم يحفل - من بين فنون الشعر - الا بفن الغزل ، فلم يقل فى غيره فقد قصر نفسه وعقله وأوقف شعره على حبيبته ليلى ، ولهذا كان شعره رقيقا عذبا رائعا جزلا حزينا مؤثرا بما يحمله من لوعة وحنين وأسى وشجن ، يهز العواطف والمشاعر ويثير كوامن الرحمة والشفقة عليه وعلى من على شاكلته من المحبين المحرومين ، وشعره نموذج صادق لحقيقة هذا الحب العذرى ، وعمق ما يكابد العاشق العذرى ، ونبل عاطفته وسمو روحه ٠

لقد حمل العصر الأموى الينا فى مأثور ثروته الأدبية الكثير من القصص والحكايات الغرامية ، تمثل فى جملتها نزعات ذوقية وفنية ، تصور عددا من أهواء القلوب ، وأوطار النفوس ، وأبرز هذه الأقاصيص قصة قيس بن الملوح ، فهى مأساة غرامية جرت أحداثها فى ديار بنى عامر من أرض نجد ، وهى قصة المتيم المكبول الذى يقضى حياته أسيرا لهوى واحد ، شف قلبه واستولى على أقطار نفسه ، ولا يزال عاكفا عليه الى أن يصاب بالجنون : ولما كانت هذه القصة تمثل لونا من ألوان الحياة الغرامية له فى حياة الناس وجود ، الى جانب أنها تمثل منحى من مناحى الحياة الانسانية ، وتصور

آلام المحب المحروم وصراع العاشق العذري ، لما كانت كذلك وجد فيها بعض الشعراء مادة خصبة للشعر التمثيلي ؛ من هؤلاء أمير شعراء العصر الحديث أحمد شوقي فنظم فيها مسرحيته « مجنون ليلى » وهي أروع تمثيلياته وأرق مسرحياته .

وبعد : فقد آن لنا أن ندلي بدلائنا في رائعة من عيون شعر المجنون العامري .

## مجنون بنى عامر

يجن الى ليلى ويصف لوعته ووجده بعد زواجها تذكر وحنين :

**تذكرت ليلـى ، والسـنين الخـواليا**
وأيام لا نخشى من الدهـر عاديـا (١)
ويوم كظـل الرمح قصـرت ظلـه
بليـلى فالهـانى وماكنت لاهيـا (٣)
فياليـل كم من حاجـة لى مهمة
اذا جئتـكم باليـل لم أدر ماهيـا
خليلـى أن لا تبكيـانى التمـس
خليلا اذا **أنزفت** دمعـا بكى ليـا
وقد يجمع الله الشـتيتين بعـد ما
يظنـان كـل الظن ألا تلاقيـا

* * *

---

(١) القصيدة مبثوثة فى الأغانى ( ط الشعب ) ج ٢ ص ٤٥٤ وما بعدها . وذكر صاحب الموشح منها بيتين ص ٣٢٤ واستجاد ابن قتيبة أبياتا منها وذكرها فى الشعر والشعراء ( ط ليدن ) ص ٣٦٤ .

(٢) الخوالى : جمع خالية بمعنى ماضية . العادى : الفاتك المعتدى . فقيس هنا يتذكر حبيبة قلبه وسميرة روحه ليلى فى الأيام الماضية أيام ان كان يسعد بلقياها ويتمتع برؤيتها ويمنى نفسه بالنيل بها ، وكانت هذه السعادة تحمله على ان يأمن الدهر ، فلم يدر بخلده يوما أنه سيعدو عليهما ويحول بينهما ولكن الدهر لا قلب ولا امان له ، فها هو ذا قد نقض عهدهما وغال ودهما وحرمه من حبيبته واقصاها عنه .

(٣) ظل الرمح : مثل عند العرب فى الطول والاستمرار ، ذلك لأن ظله يتحول من جهة الى جهة تبعا لمسيرة الشمس من الشرق الى الغرب ، فهو لهذا دائم مستمر ، فالأيام التى كان يقضيها قيس مع ليلاه — على الرغم من طولها كان يراها قصيرة للغاية ، لأن لقاءه بمحبوبته وحديثه اليها كان يحمل اليه لذة وسعادة واستمتاعا تتدفق بين جوانحه فلا يحس ازاء هذه السعادة الغامرة بطول الأيام .

مأساته وسرها :

لحـــا الله أقواما يقولـــون اننـــا
وجدنا طوال الدهر للحب شـــــافيا (١)
خليلى ، لا والله لا املك الـــذى
قضى الله فى ليلى ، ولا ما قضى ليـــا
قضـــاها لغيرى وابتلانى بحبهـــا
فهـلا بشىء غيــر ليلى ابتلانيـــا
وقـد لامنى اللوام فيهـــا جهـــالة
فليت الهــــوى باللائمين مكانيـــا
وخيــر تمـــانى أن « تيماء » منزل
لليلى اذا ما الصـيف ألقى المراســيا (٢)
فهذى شهور الصيف عنا قد انقضت
فيـــا للنوى ترمى بليلى المراميـــا (٣)
وما طلـــع النجم الذى يهتـــدى به
ولا الصـــبح الا هيجا ذكرها ليـــا
ولا سرت ميـــلا من دمشـــق ولابدا
« سهيل » لأهــل الشـــام الا بداليا (٤)
ولا سميت عندى لهـــا من ســـمية
من النـــاس الابل دمعى ردائيـــا
فان تمنعـــوا ليلى وتحموا بلادهـــا
على ، فلن تحمـــوا على القوانيـــا (٥)

* * *

---

(١) لحا اللـه : قبح ولعن هؤلاء الأقوام لانهم قد كذبوا حين ادعوا ان للحب دواء .

(٢) تيماء : اسم بلد يقع بين الشـــام ووادى القرى ، وتعرف بتيماء اليهودى لأن حصن السـموئل بن عادياء اليهودى كان يشرف عليها .

(٣) النوى : البعـــاد .

(٤) سهيل : نجم بهى يطلع على بلاد العرب فى اواخر القيظ. ( أى الحر الشديد ) .

(٥) اذا استطعتم منع بلادها على فلن تستطيعوا منعى من أن اتغنى بها فى شعرى .

شهادة واعترف :

فأشـــهد عنـــد الله أنى أحبهـــا
فهذا لها عندى ، فما عندها ليـــا
أعـــد الليالى ليلـــة بعـــد ليلة
وقد عشت دهرا لا أعـــد اللياليا
وأخـــرج من بين البيـــوت لعلنى
أحـــدث عنك النفس ياليل خاليـــا
ترانى اذا صـــليت يممت نحوهـــا
بوجهى وان كان المصـــلى ورائيـــا (١)
أصلى فما أدرى اذا ما ذكرتهـــا
أثنتين صليت العشا أم ثمانيـــا ؟
وما بى اشـــراك ولـــكن حبهـــا
كعظم الشجا أعيـــا الطبيب اليداويا (٢)

* * *

قمة الحب :

أحب من الأســـماء ما وافق اســـمها
أو اشـــبهه أو كان منـــه مدانيـــا
خليلى « ليلى » أكبر الحـــاج والمنى
فمن لى بليلى ، أو فمن ذا لهابيا ؟ (٣)
خليلى ما أرجو من العيش بعد ما
أرى حاجتى تشـــرى ولا تشيترى ليا (٤)
تغربت عن قومى وأهـــلى ورفقتى
وســـرت مع الغزلان ، أطوى البواديا

---

(١) يممت : قصدت وتوجهت ، والمصلى : قبلة الصلاة .
(٢) الشجا : ما ينشب فى الحلق من عظم ونحوه .
(٣) الحاج : جمع حاجة وهى المأرب والغاية .
(٤) تشرى : تباع حاجتى اى مأربى من الحياة وغايتى ، وهى ليـلى .

غريب عن الأوطـان ملقى على الثرى
أراعى نجـوم الليل سـهران باكيا
اذا اكتحلت عينى بعينـك لـم تزل
بخيـر وجلت غمـرة من فـؤاديا (١)
فانت التى ان شئت أشـقيت عيشتى
وان شـئت بعـد الله أنعمت باليـا
وانت التى ما من صـديق ولا عـدا
يرى نضـو ما أبقيت الا رثى ليـا (٢)
وتعرض ليـلى عن كـلامى كأننى
قتلت لليـلى أخـوة ومواليـا
وانى لأسـتغشى ومـا بى نعسـة
لعل خيالا منـك يلقى خياليـا (٣)
وانـى لأخشى ان أمـوت فجـاءة
وفى النفس حاجات اليك كما هيـا
وقالـوا : بـه داء عيـاء أصـابه
وقـد علمت ليلى مـكان دوائيـا
هى السـحر الا أن للسـحر رقية
وانى لا ألفى لهـا الدهـر راقيـا (٤)
الا يا حمـامى بطن ودان هجتما
على الهـوى لمـا تغنيتما ليـا (٥)
وأبكيتمـانى وسطحبى ولم أكن
أبالى دمـوع العين لو كنت خاليـا

(١) جلت غمرة : ازاحت غما وأسى وحزنا عن فؤادى .
(٢) النضو : المهزول ، فهو يقصد انه اضحى بقايا نفس ممزقة محطمة .
(٣) استغشى : استحضر النوم ، نعسة ورغبة فى النوم .
(٤) رقية : ما يستعان به على السحر ، لا الفى : لا اجد اى لا اجد لنفسى شفاء من حب ليلى .
(٥) ودان : اسم موضع .

وأيتهـــا القمريتـــيان تجـــاوبا
بلحنيكما ثم اسـجعا علانيـــا (١)
فان انتمـا استطربتما وأردتمـا
لحاقا بأطــلال الغضـا فاتبعانيا (٢)
معذبتي ، قـد طال وجدي وشفني
هواك ، فيا للناس قل عزائيـا (٣)
وددت على طيب الحيـاة لوانه
يزاد لليلى عمرهـا من حياتيـا
يقولون ليلى بالعـراق مريضـة
فيـاليتني كنت الطبيب المداويـا
يقولون سـوداء الجبين ذميمـة
ولولا سـواد المسـك ما كان غاليا (٤)
تمر الليـالي والشـهور ولا أرى
غرامي لهـا يزداد الا تمـاديا

* * *

دعاء وتضرع :

فيارب اذ صيرت ليلى هي المنى
فزني بعينيهـا كما زنتهـا ليـا (٥)
والا فبغضـها الـى وأهلهـا
فاني بليلى قد لقيت الدواهيـا (٦)

---

(١) القمريتان : الحمامتان المفردتان . اسجعا : غردا . عللا : اشفياني من وجدي ولوعتي .

(٢) اطلال الغضا : أي الآثار المتبقية من المكان الذي شـهد احلى ذكرياته مع ليلى .

(٣) شفني : أضناني وأسقمني .

(٤) يعيب الناس ليلى بالسواد وهو من اسباب وله المجنون بها وهيامه في حبها مثلما يغلي سواد المسك من قيمته ويزيد رغبة الناس فيه . والواقع ان طيب المسك هو الذي يغليه ويغليه لا لونه .

(٥) زني : جملني .

(٦) الدواهي : جمع داهية ، وهي المصيبة المهلكة .

على مثل ليلى يقتـــل المرء نفســـه
وقد صرت من ليلى عن الناس طاويا (٢)
خليلى ان ضـــنوا بليـــلى فقـــربا
لى **النعش** والاكفان واســـتغفرا ليـــا (٣)

---

(٢) طاويا : منزويا مبتعدا ، اعانى ما اكابده فى نفسى .
(٣) ضنوا بليلى : حرمونى منها ، قربا : هيئا وجهزا .

هذه الرائعة أطلق عليها ـ كما تحدثت مصادر شعر قيس بن الملوح المؤنسة : ولعل السر فى هذه التسمية يرجع الى شهرة هذه القصيدة وذيوعها وانتشارها ، والى أنها كانت أطول قصيدة انشدها الشاعر ، وواظب على ترديدها وانشادها : فقد كانت أحب قصائده الى نفسه واقربها الى قلبه ، فكان لا يخلو الى نفسه الا انشدها ، فكثيرا ما انسب وحدته وأبهجت خلوته ، ومن ثم سميت بالمؤنسة .

لما كان الشعر مرآة نفس الشاعر ونبض عواطفه ومظهر شخصيته ، فقد جاءت هذه القصيدة مثالا رائعا يدعم هذه الحقيقة ويؤكد عليها ، فهى ـ كما ترى ـ صورة واضحة وضوح الشمس لقيس هذا الحب المعنى ، كشفت عن حاله بعد فراق محبوبته ليلى ، وما يعتمل فى نفسه ، ويعتلج فى صدره ، من لواعج الهوى ومراة الالم ونوازع الحزن والشجن واللوعة والأسى ، التى استولت على مشاعره ، واستوت على أحاسيسه وألبت بخاطره ، وأسلمته الى هم دائم وغم مقيم ، فقد تضافرت فيها العاطفة المشبوبة المتأججة ، والفؤاد المكلوم والشعور الصادق الملتاع ، وحرارة الوجد ولوعة الهيام ، ومن هنا فالقصيدة تشف عن هذا الصراع النفسى الذى كان يعانيه الشاعر ولم لا ؟ فهى انة عاشق مكلوم ، تيمة الحب وأضناه الهوى وأسقيه الوجد ، وبرح به البعد ، وقضت عليه تلك العادة العربية ، التى تحرم زواج الفتاة ممن يشيب بها ، خوفا من أن يظن بها الظنون ، ونزولا على حكم هذه العادة تزوجت ليلى من ورد العقيلى ، فلم يملك قيس الا الدمع يسكبه ، والفؤاد يعتصره ، والاحزان يجترها ، والا أن يصور لوعته وشجاة ، ويصف حرقته وأساه فى قصائده .

هذه القصيدة قد شرحت نفسها في صورة لم يستطيع أن يرقى الى مرتبها أديب مهما أوتى من الحكمة وفصل الخطاب ، فهى نسيج شعرى محكم ، بلغت فى الرقة والعذوبة غاية قلما تدرك ، واتسمت معانيها بالوضوح ، وعباراتها بالايحاء والتصوير ، وأسلوبها بالسهولة واللين ، وتمتعت لهذا بروعة الملاءمة بين ألفاظها ومعانيها .

وقد غمرتها روح البيئة البدوية الأصيلة فأضفت عليها صدقا ورصانة ، ونأت بها عن التكلف وضنت بها عن الصنعة . فجاءت درة فريدة فى جبين الشعر العذرى ، ونسيجا شعريا رائعا يزخر بصدق العاطفة ، وبراعة التصوير ، وحرارة الوجد ، ولوعة الغرام ، الى جانب ما تتمتع به القصيدة من وحدة شعرية ، فكل أبياتها متماسك مترابط ، وكل منها حسن رائع ، هيهات ليد النقد أن تمتد اليه ، وهيهات لمن يأملها أن يلمس فيها شيئا من عيب !! فهى نمط فريد من أنماط الجمال الفنى الذى يؤثر فى النفوس ويستولى على الافئدة ، ولهذا فالمتأمل فى هذه القصيدة لا يملك الا أن يتعاطف مع شاعرها ، وينفعل بانفعاله ، ويتأثر تأثيرا عميقا بما يحمله من لوعة وحنين وأسى ، وأن يأسى لأمثال قيس من هؤلاء العشاق المحرومين .

والقصيدة جاءت فى لحن موسيقى يلذ فى الأسماع جرسه ، وينعش النفوس نغمة ، ويشف عن نفس الشاعر أيما شفافية ، حيث أودع الشاعر قصيدته فى أوزان « بحر الطويل » والذى تقوم أوزانه على « فعولن مفاعلين فعولن مفاعلن » مكررة فى كل شطر ، وهذا البحر يمثل الجلالة والعمق ، ولا ينحو الا نحو الفخامة والأبهة ، فهو يعبر عن أغوار نفس قيس ، ويصور فخامة وأبهة هذا الحب العذرى الراقى الذى يسمو فوق المتع

الحسية ، ويحرص على القيم الروحية والخلقية والمثل العليا ، والذى يبقى ويستمر ويتأجج أواره وتذكو ناره على الرغم من الحرمان ، والذى تعد هـذه القصيدة نموذجا رفيعا له ، لأن شاعرها كان أرق الناس شعرا وأصدقهم حبا وأرقاهم عاطفة .

وهذا اللون ـ « الشعر العذرى » قد اتخذه الصفوة مذهبا لهم فى الشعر ومن أعلامه المبرزين قيس بن ذريح مجنون لبنى ، وجميل بن معمر صاحب بثينة وكثير بن عبد الرحمن صاحب عزة ، وعروة بن حزام صاحب عفراء علاوة على قيس بن الملوح مجنون ليلى ، والذى يعد امامهم ورائد هذا الفن . ولما كانت هـذه القصيدة صورة معبرة عن أحاسيس الشاعر وعمق مكابدته وما تجيش به نفسه من حرقة وألم فانه أصبح ميسورا علينا أن نلمس الفرق بين شعر المجنون ـ والذى يعد نموذجا للشعر العذرى ـ وشعر عمر بن أبى ربيعة ذلك الذى لم يكن يعنيه الا انتهاب اللذة واختلاس المتعة والظفر بأية حسناء يمضى معها الوقت ، فغزله لهذا اباحى لاه ، يتسم بالمرح وتشيع فيه البسمات ، أما غزل العذريين والذى يمثله المجنون وأضرابه فقد كان حزينا بائسا ، ينضح بالشكوى ويفيض بالدمع ويشيد بالقيم الانسانية .

وبعد : فان قيسا وأمثاله العذريين قد أثروا الأدب العربى بفرائد أدبهم وعرائس أشعارهم ، وبما أورثوه من جواهر قيمة وذخائر نفسية ، تشهد لهم بالتفوق والعبقرية وحسن التأتى وجلال القوة الأدبية والروحية ، وتؤكد على خلود شعرهم فى روعته المفتنة وجلاله المرموق .

# رائية أبي صخر الهذلي *

# في الغزل

## النص

- ١ -

لـليـلى بـذات الجيـش دارٌ عرفـتُهـا
وأخـرى بذات الـبين آيـاتهـا سَطـرُ [(١)]

صبَـرْتُ فلـمَّا غَـال نفـسي وشَـفَّهـا
عَجاريفُ نَأيٍ - دونها - غُلِبَ الصبْرُ [(٢)]

وإنّـي لـتَـعْـروني لـذِكْـراكِ هـزّةٌ
كمـا انْتَفَضَ الـعُصْفورُ بَـلّلَه القَـطرُ [(٣)]

- ٢ -

أما والـذي أبكـى وأضحـك والذي
أمـات وأحـيا ، والـذي أمـرهُ الأمـر [(٤)]

---

* هو عبد الله بن سـلمة السهمي ، من شـعراء « هذيل » ، وأبو صخر كنيته ، وهو شاعـر إسلامـي من شـعراء الـدولة الأمويـة ، وكان هـواه مع الأمـويين ، شـديد التعصب لهم ، توفي سنة ثمانين من الهجرة ، وقصيدته هذه تجربة حب عاشها .

( ١ ) ذات الجيش وذات البين : موضعان . السطر : الصفُّ من الشجر وغيره .

( ٢ ) عجاريف النأي : مصائب الفراق .

( ٣ ) تعروني : تنتابني . القطر : المطر .

( ٤ ) أمره الأمر : حكمه هو النافذ .

لقد كـنت آتيها وفـي النفس هـجرُها

بتَـاتاً لأخرَى الـدهر ما طـلع الفـجر (١)

فـمـا هـو إلا أن أراهـا فُـجـاءة

فـأبـهـت لا عُـرف لـديَّ ولا نُـكـر (٢)

وأنسى الـذي قد كنت فـيه هجرتـها

كمـا قد تـنسِّي لُـبَّ شاربـها الخـمرُ (٣)

- ٣ -

وقد تـركتْني أغْبِط الـوحشَ أن أرى

ألـيفَـيْن منهـا لا يَرُوعُـهمـا الذُّعـر (٤)

إنـي لا أدري إذا الـنـفـس أشْـرَفَـتْ

على هَـجْرِها ، ما يبـلُغَنَّ بي الـهجر (٥)

---

( ١ ) أخرى الدهر : آخره . ما طلع الفجر : كناية عن التأبيد .

( ٢ ) فجاءة : فـاجأه مفاجاة ونجـأة وفجاءة : أخذه على غـفلة . بهت كعـلم : دهش وتحير ، وبهت كـظرف مثله ، وأفصح منهـما : بهت ـ بالباء للـمجهول ـ ، قال تعالى : ﴿ فبهت الذي كفر ﴾ .

( ٣ ) لب : عقل . والخمر : فاعل للفعل « انسى » .

( ٤ ) راعه : أفزعه . الذعر : الخوف . الـغبطة : تمنى مثل ما للغير مـن نعمة ، من غير تمنّي زالها عنه ، وهي غير الحسد .

( ٥ ) أشرفت على هجرها : قربت منه .

- ٤ -

تكاديدي تَندَى إذا ما لمستها

وينبتُ في أطرافها الورقُ الخُضْرُ (١)

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها

فلما انقضى ما بيننا سكَنَ الدهر (٢)

فيا حبَّ ليلى قد بلغت بي المَدَى

وزدتَ على ما ليس يبلغه الهجر (٣)

ويا حبها زدني جَوىً كل ليلة

ويا سَلْوةَ الأيام موعدُك الحشر (٤)

- ٥ -

هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى

وزرتُك حتى قيل ليس له صبر

---

( ١ ) تندى - بفتح الدال - : تبتل ، كأنها قد زصابها النّدى .

( ٢ ) سَعْي الدهر : سرعة تنقضي أوقات الوصال ، وسكون الدهر : بطؤه في أيام الهجر ، ومعناه : أن الإنسان يشعر بسرعة سرور أوقات السرور ، وبطء أيام الهموم والأحزان ، وقد يراد بسعي الدهر هنا السعاية التي يقصد بها إفساد ما بين المحبين من حسن المودة ، فلما انقضت المواصلة ، وحلّ محلها الهجر سكن الدهر ، لأنه قضى أربه ، وبلغ مراده ، ومن عادتهم أن ينسبوا ما حدث ، من هجر إلى الدهر ، كما ينسبون إليه الحوادث والنكبات ، كأن الدهر عذول يغار من المتصافين ، وكأنه حسود يتمنى زوال النعم عن أصحابها .

( ٣ ) المدى : الغاية .

( ٤ ) الجوى : حرقة القلب وعذابه . السلوة : النسيان . يقول إنه لن يلتقي بالسلوة إلا في الحشر .

صدقتَ أنا الصَّبُّ المصاب الذي به

تباريحُ حب خامر القلبَ أو سحرُ (١)

فيا حبذا الأحياءُ ما دمتِ فيهم

ويا حبذا الأموات ما ضمكِ القبر

**تحليل ونقد :**

١ ـ الشاعر هنا يصور تجربة حب عاشها ، وهي تجربة طاهرة ، فشاعرنا يبدو لنا صبور في الهوى ، مكابداً أشواقه ، يغلبه صبره فيضيق ذرعا ، إذ تؤرقه ذكرياته .

٢ ـ ابتدأ الشاعر بالحديث عن دارَيْ « ليلى » اللتين لم يبق منهما إلا رسوم بالية .

٣ ـ يقع الشاعر تحت وطأة انفعال جارف ، تنتفض له أوصاله ، ويرتعد قلبه ، ويصير كالعصفور ضعيفا ، وذلك حين يهجم عليه جيش الذكريات .

٤ ـ ثم أقسم بالله ، وكرر القسم للتوكيد أنه كان يحلف ويعزم عزما أكيداً على أنه كان يزورها ، وفي نفسه أن يهجرها هجراً دائما متصلا ، ولكنه ما يكاد يراها حتى يدهش ، فلا يستطيع أن يقول خيراً أو شراً ، وينسى السبب الذي من أجله صمم على هجرها نسيانا بالغا ، كما تفعل الخمر بصاحبها حين تنسيه عقله .

٥ ـ وقد تَرَكَتْني أحسد الوحش حين أرى أليفين منها يأتلفان في

---

(١) الصبّ : العاشق . تباريح الحب : توهجه وآلامه . خامر القلب : خالط القلب .

مرعاهما ، فأتمنى أن تكون حالتي معها كحال الوحوش في ائتلافها .

وإنها لتظلمني ، وأعلم أنه الظلم .

وقد أنشد بعضُ ظرفاء الحجاز هذا البيت :

وأني لا أدري إذا النفس أشرفت
على هجرها ما يبلغنّ بي الهجر

فقال : الموت الأحمر ـ والله ـ يا ابن أخي ، ما دونه شيء ، يريد أن الهجر يبلغ به الموت ، وليس أقل من الموت .

٦ ـ يبالغ في وصف محبوبته هذه ، فيقول إن يده تكاد تبتل بالماء ، إذا ما لمسها للينها وغضارتها ، بل يكاد الورق الأخضر ينبت في أطراف يديه .

ويعجب لتقضي أيام الوصال خفيفة سريعة ، وسير أيام الفراق ثقيلة بطيئة ، ويمكن أن نفهم أن الوشاة كانوا يسعون بينهما بالإفساد ، فلما صار أمرهما إلى القطيعة هدأ هؤلاء ، وسكنوا .

ولكنه لن يتخلى عن حبها مهما لقي في سبيله ، ولن يسلوها حتى يوم القيامة ، وإن كان الحب بلغ به من الحرقة والجوى حداً لا يبلغه هجر حبيب لمحبه .

٧ ـ وأخيرا يشير إلى حالتيه معها ، فقد كان يهجرها حتى يظن الناس أنه لا يعرف الحب ، وكان يكثر من زيارتها حتى يقولوا إنه لا صبر عنده ، وقد صدقوا ، فهو الصب الموله الذي به حب عميق خالط قلبه بتباريحه وآلامه ، أو لعل به سحرا .

وهي - عنده - زينة الأحياء ، وزينة الأموات ، فما أحسن الأحياء ما دامت فيهم ، فإذا ضمها القبر فيا حبذا الأموات .

وتمتاز هذه القصيدة بألفاظها العذبة ، وأسلوبها الواضح الفخم ، ومعانيها البديعة ، وقافيتها ذات الجرس اللطيف .

## نظرات أدبية وبلاغية :

لقد رسم الشاعر « أبو صخر الهذليّ » صورة للغزل الطاهر العفيف ، الذي ينمُّ عن نفس طاهرة عفيفة ، وعاطفة صادقة نقية ، وقد ساعده على إبراز هذه الصورة : سلاحه اللغوي ، وعُدّته البلاغية .

- انظر إلى قوله : « غال » ، و« عجاريف نأى » ، و« غُلب الصبر » لترى ألم الفراق وقسوته عليه .. ، ففي قوله : « غال نفس .. عجاريف نأى » كناية عن سوء حالته من أثر الفراق ، وفي : « غُلب الصبر » استعارة مكنية ، تشخص الصبر إنساناً يقهر ويغلب ، وتوحي بنفاد صبره ، وعجزه أمام نكبة الفراق .

- ثم تأمل الحوار الذي دار بين الشاعر وعقله وقلبه ، فهو يقرر أن العودة إلى الذكريات لا جدْوَى منها ، ولا معنى للذكرى بين الحبيبين ، وهذه ناحية عقلية ، سرعان ما تَتَبدّد أمام عاطفته .

- وتأمل التشبيه التمثيلي في البيت الرابع ، وهو يشبّه نفسه - عندما يذكر محبوبته فيهتزّ كل ما فيه - بالعصفور الذي أصابه المطر فانتابه رعشة ، وهو يبرز مدى اضطرابه مع حياة الذكريات دون أن يسعد بها .

- ثم تأمل « القسم » بعد ذلك ، وما فيه من تأكيد ، وما في جوابه من مقارنة بين الشاعر والوحوش في العشق والهوَى ، وذلك ليستدرّ

عطف محبوبته .

ـ وانظر إلى تكرار كلمة « حتى » فيقوله : « وصلتك حتى » ، و« زرتك حتّى » ، وما يدل عليه من كثرة وصاله وزيارته محبوبته ، ثم تصديقه على ما قالت ، واعترافه بأنه لا صبر له ، ولا هجرَ ينويه .

ـ ثم تبيّن دلالة « تباريح حب » ، و« سِحْر » ، لترى قوة عاطفته وسيطرة الحب عليه .

ـ وتأمل التضاد في البيت التاسع وإبرازه معنى استمرار التعلق بمحبوته حية أو ميتة ، وقوله : « ما دمتِ » الذي يدل على حبه للأحياء ، ما دامت محبوبته بينهم ، فإذا ماتت انتقل حبه إلى الأموات في قبورهم .

ـ ولعلك تحس جمال الصورة التي رسمها ليده عند التسليم والسلام على محبوبته ، وكيف رسمها أرضا نديّة ينبت فيها الورق الأخضر ، ومدى ملاءمة هذه الصورة للمعنى العاطفي الجميل ، وفي هذا البيت إلى جانب الرؤية السابقة مبالغة جدّ لطيفة .

ـ وتأمل التشبيه التمثيلي في البيت بعده ، وهو يصور نفسه عند اللقاء برجل شرب الخمر ، فنَسِيَ ما أعدّ من حلو الكلام ، حتى صار لا يدري شيئا من القول يقوله .

ـ ثم تأمل الاستعارة المكنية في قوله : « فيا حبّها » ، وهو يجسّد هذا الحب ويشخّصه في صورة إنسان ناطق واع ينادَى عليه .

والأمر في قوله : « زدْني » بعد النداء ، يدل على استمتاعه بعذاب الحب ، وتمنيه استمراره .

ثم يؤكد كل ذلك بالصورة التالية في قوله : « يا سلوة الأيام موعدك الحشر » ، ففي قوله : « موعدك الحشر » تصميم على الحب والذكرى ، فلا نسيان ما دامت الحياة .

## لمحات نقدية :

١ ـ النص يمثل « الحب العذري » في العصر الأموي ، وقد شاع هذا الطابع من الحب الذي يدل على العاطفة الطاهرة ، من أثر التحلّي بمبادئ الدين والفضيلة عند كثير من شباب « العصر الأموي » الذي مضى أكثره إلى البعد عن الحياة السياسية ، وخِضَمِّها المتشَعِّب ، فراح يعيش حياته ووجْدانه .

٢ ـ ألفاظ الشاعر واضحة سهلة في الكثير الغالب الذي رأيناه في النص ، وهي موحية معبِّرة ، فيها عذوبة ورقة تناسب موضوع النص .

٣ ـ الشاعر يعتمد في إبراز عاطفته على التعبير التصويري ، كما في قوله : « كما انتفض العصفور بلَّله القطر » ، و« تنْبت في أطرافها الورق الخضر » ، و« فيا حبَّها زدْني ... » ، و« يا سلْوَة الأيام » .

٤ ـ وتَنوّع أساليبه بين الخبر الذي يدل على الثبات والتقرير ، وذلك في نحو قوله : « وإني لتعروني لذكراك هزة » ، وقوله : « وصلْتك حتى قلت لا يعرف القِلى » .

كما استخدمت بعض الأساليب التي تدل على الرجاء والتمني ، في نحو قوله : « فيا حبّها زدْني » .

٥ ـ والشاعر متأثر بألفاظ القرآن ، في قوله : « أمات وأحيا » ، و« أضحك وأبكى » ، و« الحشر » .

٦ ـ إشارة الشاعر إلى موتها في قوله : « ما ضمّك القبر » غير لائقة بمقام الغزل ، أيّاً كان المعرض الذي عرضها فيه ، ويكفي أن ينتقل ذهن المتلقي من الحديث عن الهوى والحب إلى الحديث عن الموت .

٧ ـ محاسن هذه القصيدة كثيرة ، تظهر بالاستقراء والتقصي والتأمل .

* * *

# رفادة ووفادة

## على قيم إنسانية في ثنايا الدرس التحليلي

### ١ . من شعر الحكمة « للصلتان العبدي » *

أشابَ الصغيرَ وأفنى الكبـــ ـــيرَ كرُّ الغداة ومرُّ العَشي (١)
إذا ليلةٌ هرَّمتْ يومَها أتى بعدَ ذلك يومٌ فَتي (٢)
نَروح ونَغْدُو لحاجاتنا وحاجةُ مَن عاش لا تنْقضي (٣)
تموتُ مع المرء حاجاتُه وتبْقَى له حاجةٌ ما بَقي
وسِرُّكَ ما كان عند امْرئٍ وسرُّ الثلاثة غَيرُ الخَفي

**المعنى الأدبي :**

تتجلّى في هذه الأبيات خبرة الشاعر بالحياة ، وصروف الدهر ، وشئون الأحياء .

فهو يرى أن الليالي سببٌ في تعب الناس ، وإحساسهم بالألم ،

---

* هو قُثَم بن خَبِيَّة ، من بني « محارب بن عمْرو بن وديعة بن عبد القيس » ، وهو من شعراء بني أمية المشهورين .

وهذه الأبيات أثر من تجاربه في الحياة والناس في عصره .

والنص من كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ٣٣٩ ، وكتاب « الكامل » للمبرد ٧/ ١٠١ .

وللصلتان قصيدة عينية في الحكومة بين الفرزدق وجرير ، ومنها :

أتتني تميم حين هابت قُضاتها وإني بالفَصْل المبيِّن قاطع

راجع : الشعر والشعراء ٣٣٨ .

( ١ ) العشي : وقت العشاء .

( ٢ ) هرَّمت : أصابته بالهرم ، وهو منتهى الكبَر . يوم فَتي : يوم واضح جلي .

( ٣ ) نروح ونغدو : من الرَّوْحة والغُدْوَة ، والروْحة : آخر النهار ، والغُدْوة : أوله .

فالزمن متقلِّب ، وظروف الحياة متغيِّرة ، وصغيرُ اليوم كبيرُ الغد ، وكبيرُ اليوم ميّتُ الغد ، ومع ذلك فالحياة لا تقف ، فإذا شابَ يوم الليلة ، ففي غدٍ نهارٌ جديد قوي ، تتجدَّد معه أحاسيسُ الناس بالحياة ، ورغبتُهم في الاستمرار .

وهكذا يروحُ الناسُ ويَغْدون في قضاء حاجاتهم ، التي لا تنْتهي عند حد ، فإن الإنسانَ ـ ما دام حيًا ـ فهو يتعلَّق بالحياة وآمالها ، ولا تنتهي مطالبُه ، وتظل دائماً له فيها حاجة ، فإذا مات الإنسان ماتتْ معه حاجاتُه ، وانتهت معه مطالبُه ، وإذا بَقِيَ ظلّت له حاجة ينشدُها ، ويرجوها .

**نظرات أدبية وبلاغية :**

تأمل النص تجد أن الشاعر قد ساق المعاني في أساليب سليمة قوية .

ـ انظر إلى قوله : « أشاب الصغير وأفنى الكبير » ، وتأمل الجمع بين الصغير والكبير ، لتدرك سر « التضاد » هنا . وهو العموم والشمول .

ـ وفي قوله : « كر الغداة » تصوير بلاغي ( استعارة مكنية ) ، حيث شبه « الغَداة » ـ وهي أول النهار ـ بالفرس الذي يكرُّ في ميدان الحياة مقبلاً عليها بقوة .

ـ وانظر إلى : « مرّ العشيّ » ، وكيف صوّر العشاء « يمرّ » في هدوء وسكينة ، وهو عكس « كرّ » التي تعطي قوة تناسب قوة الصباح ، ولا شك أن بينهما وجه فرق ، فأنت ترى النهار صاخباً ثائراً يفجِّر طاقات البشر ، وترى المساءَ سكينةٌ وميلاً إلى النوم والراحة والاسترخاء .

وبين « كرّ » و« مرّ » تقاربٌ صوتي يكسب الكلام موسيقية جميلة .

ـ وانظر إلى الاستعارة المكنية في قوله : « هرِّمت يومها » ، لترى أثرها الفنّي ماثلا في ضعف اليوم عند وداع النهار ومجيء الليل ، ولعله بذلك يرسم صورةً للغروب ، وما فيه من صرعة للنهار .

وتأمل التصوير في قوله : « يوم فتي » لترى أثره في رسم صورة للنهار الجديد ، وهو يبدو كشابّ مليء بالقوة والحيويّة .

ـ ثم تأمل التضاد في قوله : « نروح ونغدو » ، وكيف أنه أفاد استمرار الطلب للحاجات ، وفي قوله : « وحاجات من عاش لا تنقضي » تأكيد لذلك ، وحكمة استقاها الشاعر من واقع الأحياء .

ـ وانظر إلى قوله : « تموتُ مع المرءِ حاجاته » وهو استعارة مكنية ، قيمتها الفنية إبراز أثر الحياة في قضاء الحاجات ، وأن الموتَ نهاية الحيّ ونهاية لحاجاته .

ـ وفي قوله : « وتبقى .. » إلى آخر البيت مقابلة مع الشطر الأول ، لبيان الفرق بين الحياة والموت .

**في ضوء النقد :**

١ ـ الأبيات من شعر الحكمة ، ففيها بعض الآراء العامة التي استقاها الشاعر من الحياة ، والأدب ـ كما نعلم ـ مرآة تعكس ما حولها في شفافية وصدق .

٢ ـ أفكار الشاعر واضحة في قوة تأثير ، فقد جاءت ممتزجة بمشاعره ، مصوّرة وجْدانه .

٣ ـ وألفاظه ملائمة ، حيث عبّرت عن المعنى في سلاسة وقوة أداء.

ـ وقد اعتمد الشاعر على التصوير البياني في حديثه ، بالرغم من أن الموضوع يغلب عليه طابع الحكمة والفكر والتجربة ، وذلك ليكون لأفكاره تأثيرها ، ويبْعد بها عن الجفاف .

ـ كما اعتمد الشاعر على استخدام « التضاد » بين بعض الكلمات ، وقد جاءت بعيدة عن التكلف ، وإنما اقتضاها المعنى ، ورغبة الشاعر في تقوية ما يعرضه من آراء .

٤ ـ والشاعر يبدو من خلال هذه الأبيات صاحب نظرة عميقة للحياة ، يستخْلص الدرس مما يمرّ به وبالناس من أمور ، ويقدمه مصباحاً لهم في هذه الحياة .

* * *

## ٢ . حوار بين الشاعر وزوجه لأعشى همدان

قالت تعاتبني عرسي وتسألني
أين الدراهمُ عنا والدنانير ؟!
فقلتُ : أنفقتها والله يخلفها
والدهرُ ذو مرّةٍ عُسْرٌ وميسور
إن يرزق الله أعدائي فقد رُزقت
من قبلهم في مراعيها الخنازيرُ
قالت : فرزقك رزقٌ غيرُ متسع
وما لديك من الخيرات قطميرُ
وقد رضيت بأن تحيا على رَمَقٍ
يوماً فيوماً كما تحيا العصافيرُ

### الشاعر والأبيات :

أبو المصبّح عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث ، من همدان ، وكان أول أمره من الفقهاء الذين يحفظون القرآن الكريم ، ثم من الخطباء والشعراء والعلماء ، وكان من أهل الكوفة ، وقد خرج إلى الشام ومدح والي حمص النعمان بن البشير ، فأعطاه مكافأة مجزية ، وقد أسر الأعشى من قبل الديلم حين كان في جيش الحجاج ، ولكن ما لبث أن أطلق سراحه ، وقد انضم إلى عبد الرحمن بن الأشعث مادحاً له ، وهاجياً للحجاج ، وقد أسره رجال الحجاج ففتك به إثر معركة دير الجماجم سنة ٨٣هـ ، وهو من الشعراء المكثرين المجيدين في المدح ، نظم في مختلف نون الشعر ، وفي شعره مسحة من المرح ، وقد استخدم بعض الكلمات الأعجمية في شعره .

## خصائص الأبيات السابقة :

١ ـ الحوار بين الشاعر وزوجته يفصح عما كان يصطحب به المجتمع من حوار داخلي يعبر عن التحوّلات المنتظرة والحاصلة في هذا المجتمع ، ويميط اللثام عن طبيعة العصر ، وارتفاع شأن المال ، كما يكشف عن عقلية المرأة وطبيعتها النفسية .

٢ ـ الحكمة والمثل في الأبيات تدل على نضج عقلي ، وعن اختلاف في الوعي والإدراك بين الشاعر وزوجه ، فالعطف بين الدراهم والدنانير ( ذكر المال بمدلولين مختلفين » يبين مدى تعلق زوجته بالمال ، واسترساله في ضرب المثل ، وإزجحاء الحكمة يكشف عن مدى نضجه .

٣ ـ تكرر في معجم الكاتب الألفاظ الدالة على المادة ككلمة الرزق والإنفاق والعسر واليسر ، فكلمة الرزق وحدها وردت أكثر من أربع مرات في بيتين متواليين ، أضف إلى ذلك رمق وحياة العصافير ، وما إلى ذلك .

٤ ـ أسلوب الشرط والإخبار ، وخلو النص من أدوات الطلب ، فيما عدا الاستفهام الذي أتى في سياق الحوار ، يدل على الطابع الذهني المنطقي ، فضلاً عن أن الشاعر لم يتوسل بالصور البيانية في أسلوبه .

وهذا الموقف من زوج أعشى همدان شبيه بموقف أم حرزة زوج جرير ، وإن كان في معرض المدح ، فقد استعان بها الشاعر لاستجداء العطايا من الخليفة :

تعزّت أم حرزة ثم قالت　　　رأيت الواردين ذوي لقاح [1]

---

( ١ ) اللقاح : جمع لقحة ، وهي الناقة الحلوب . الواردين : الوافدين .

تعلّـل وهـي ساغبـة بنيهـا بأنفاس من الشبـم القـراح [١]
ثقـي بالله ليس لـه شريـك ومن عند الخليفة بالنجـاح

* * *

(١) تعلل : تشغل وتلهى . ساغبة : جائعة . الشبم : البارد . القراح : الصافي .

## ٣. إحساسٌ وَجِل حَذِر على البنات

قال أبو خالد القنانيّ * :

لقد زاد الحياةَ إليَّ حبًّا بنَاتي إنهنّ من الضّعاف

أحاذرُ أن يرَيْنَ الفقرَ بعْدي وأن يشْرَبْنَ رنقاً بعْد صَافٍ (١)

وأن يَعْرِيْن إن كُسيَ الجوَاري فتنْبُو العيْنُ عن كَرمٍ عِجافِ (٢)

ولولا ذاك قد سوَّمتُ مُهْري وفي الرحمنِ للضعفاءِ كافِ (٣)

### المعنى الأدبي :

يبين الشاعر في هذه الأبيات : موقفه من الجهاد في الميدان ، والجهاد في الحياة ، ورعاية بناته اللاتي ليس لهنَّ عائلٌ سواه ، والأمر الذي زاده حبّاً في الحياة وحرصاً عليها ، فهو لا يحبُّ الحياة كراهية للموت ، وإنما يحبها من أجل بناته ، لأنهنّ ضعيفات ، وحاجتهن إليه تمثل معنى الوجود والكرامة ، فهو إن مات أصابهن الفقر ، وانتقلت بهن الحياة من رَغد وهناءة إلى كدرٍ وضنْك وبؤس ، فتنْبو عنهنّ الأعين ، ولا

---

* أبو خالد القنانـي : شاعر أموي ، ينسب إلى « قنان » وهو جبل لبني أسد ، كان من الذين يحضرون دروس « قطري بن الفجاءة » زعيم الخوارج ، وكان قد كتب إليه يستنفره للجهاد قائلا له :

أبا خالد انفرْ فلَسْتَ بخالدٍ وما جعلَ الرحمنُ عُذرًا لقاعدِ

أتزعُم أن الخارجيَّ على الهُدَى وأنت مقيمٌ بين لصٍّ وجاحدِ

فكتب إليه « أبو خالد » هذه الأبيات التي ندرسها .

والنص من كتاب « الكامل » للمبرد .

(١) رنقًا : ماء كدراً .

(٢) كرم : الكريم ، يستوي فيه المفرد والجمع ، والمذكر والمؤنث ، لأنه وصف بالمصدر . عجاف : جمع « عجفاء » ، وهي اليابسة .

(٣) سوَّمْت مُهْرِي : أعددته للحرب .

يطلبهن للزواج كريم ، لأن جسدهنّ قد صار نحيفا يابسا من شدة الفقر .

ويقول الشاعر : إنه لولا هذا الأمرُ لأعدَّ فرسَه للجهاد ، ولكنه يعلم أن الله لا يكلِّف نفساً إلا وسعها ، وسوف يهيِّئ الله من عباده من يدافع عن الحق ، ويكفي الضعيف شر القتال وبؤس الحال .

## نظرات أدبية وبلاغية :

تأمل الأبيات السابقة ، وانظر كيف عبّر الشاعر عن فكرته حول القعود عن الجهاد ، حمايةً لبناته ، ودفاعا عنهن ضد بؤس الحياة ، لقد اعتمد على التعبير الموحي ، والصورة المؤثرة التي تبرز المعنى في وضوح :

ـ انظر إلى قوله في مطلع أبياته : « لقد زاد الحياةَ إليّ حبّاً بناتي » حيث أخر « بناتي » لإثارة التشويق ، والتطلع إلى ذلك الشيء الذي كان سببا في حبه للحياة .

وانظر إلى لفظة « بناتي » وما في الإضافة إلى ياء المتكلم من إيحاء بالعطف والحنان ، وقوله : « إنهن من الضعاف » تأكيد وتعليل لحاجتهن إليه .

ـ وفي قوله : « أحاذر » إيحاء بشدة خوفه وحرصه عليهن ، وفي قوله : « يرين الفقر بعدي » استعارة مكنية ، تجسد الفقر ، وتبرز بشاعته وسوء حالته .

وفي قوله : « رنقا بعد صاف » تضاد يبرز أثر الفقر في تبديل الأحوال ، وأيضا بين « يعرين ـ وكسي » تضاد يوضح المقارنة بين حال بناته إن خرج للجهاد فمات ، وحال غيرهن من البنات .

ـ وفي قوله : « تنْبو العين عن كرمٍ عجاف » كناية عن سوء منظرهن مع طيب أصلهن .

ـ ونجد في قـوله : : « ولولا ذاك » إجمـالا بعد تفصـيل ، يبيّـن فيه سبب قعوده .

ـ وفي قوله : « سوّمت مُهْري » كناية عن استعداده للحرب وعمله بفنونها ، وكذلك في قوله : « وللرحمن في الضعفاء كاف » كناية عن أن الحرب فرض كفاية .

**لمحة نقدية :**

١ ـ يعد النص تصويراً لحياة أُسْرية مترابطة في ذلك العصر .

٢ ـ ويصور النص جانباً من الحياة السياسية في عصر بني أمية ، فقد كان الخـوارج يحاربـون الجيوش الأمـويّة طـوال العصـر ، متصـوّرين أن الحكومة الأمويّة قد ضلّت عن الطريـق الديني الصحيح ، ويرون جهادها فريضة دينية .

وكانـت بعض فـرقهم تـأبى حمـل السـلاح ، وتجيز الـقعـود عن الحرب ، وتـعلّقوا بـالحياة تعـلقاً رجع ـ أكـثر الأمر ـ إلى إشـفاقهم عـلى بناتهم وأبنائهم أن يحوّل الدهر حياتهم من بعْدِهم إلى تعاسة وشقاء .

٣ ـ وفي الأبيات يعرض الشاعر قضيته في إيمان عميق بها ، ويشيع فيهـا عاطفة صادقة ، والـصور مؤثرة ، والألفاظ سـهلة .. ولكن عبـارتها قوية .

* * *

# الخطابة

## في عصر بني أمية

كان قصر عهد النبوة والخلفاء الراشدين مع ما فتح الله على العرب من عظيم الممالك ، ومع انسياحهم في مشارق الأرض ومغاربها ، وشبوب نيران الفتن بعد مقتل عثمان ـ رحمه الله ـ مؤذنا بأن الخطابة ستبقى آلة الإقناع ، وعدة الدفاع عند العرب ما احتفظت بصحة ألسنتها ، ولم تحتج إلى انتضاء السيوف من أغمادها .

وكان ذلك حتما مقضيا ، فإن الخطابة في دولة بني أمية ازداد ت دواعيها بازدياد الفتن والثورات ، وتعدد النِّحَل الدينية والأحزاب السياسية ، من شيعة ، وزبيرية ، وخوارج ، ثم بازدياد الفتوح الإسلامية في خراسان وبلاد الترك وسجستان والسند ، وفي إفريقيا والمغرب والأندلس وجزائر بحر الروم ، وكل ذلك يستدعي الخطابة من الخلفاء والأمراء والولاة وقوّاد الجيوش وزعماء الأحزاب ، ويستدعي أيضا رقيّها وقوة تأثيرها ، لوحدة اللغة بين التابع والمتبوع أولا ، ولازدياد المواطن التي يحمد فيها القول ثانيا ، ولانخداع العرب بقوة الفصاحة ثالثا ، إذ كان الرؤساء منهم عربا ، وكان الأتباع إما عربا وإما مستعربين .

وكان الخلفاء يرسلون بأبنائهم إلى البادية لينشئوا فيها على فصاحة القول ، وخشونة العيش ، واحتمال الشدائد ، والتمرن على الفروسية ، وقل منهم من نشأ في الحضر فأعْدَتْه عجمة الخدم ، كالوليد بن عبد الملك فعدت عليه بعض لَحَنات .

ولم تبق بعد مناصب الولاية والقيادة قصراً على قريش ، فكان من

الجميع خطباء مصاقع .

**موضوعات الخطابة :**

وقد زادت موضوعات الخطابة في هذا العصر بأمور مستحدثة في الدين والسياسة والاجتماع ، منها :

١ ـ استعمالها عند فرق الشيعة والخوارج في تأييد كلٍ منهم نِحلته ودعوة غيره إليها .

٢ ـ استعمالها في الدعاية السياسية كما كان يفعل خطباء المروانيين والزبيريين والعلويين والثوار الخارجين على بني أمية ، من أمثال عبد الرحمن بن الأشعث ، ويزيد بن المهلب .

٣ ـ استعمالها في المفاخرات والمناقضات التي كانت تدور رحاها بين أهل العصبية اليمانية والمضرية ، وبين العرب الشعوبية .

٤ ـ استعمالها عند خلفاء بني أمية آلة للعقوبة بالتوبيخ والتقريع ، أو تعيير المخطوب فيهم بمساويهم ومخازيهم في الجاهلية والإسلام ، والتهديد بالقتل وحرق الدور واستئصال النعمة وأخذ البريء بذنب المسيء ، ونحو ذلك .

وفوق ذلك استعملت الخطابة فيما كانت تستعمل فيه في الجاهلية وصدر الإسلام من تحريضٍ على قتال ، أو وصية بمعروف ، أو توضيح حكم شرعيّ ، أو تهنئة بفتح ، وفي صلاة الجمعة والعيدين ، وموسم عرفة ، وغير ذلك .

**أسلوبها :**

وكانت الخطب في هذا العهد تفتتح دائما بحمد الله والصلاة والسلام على نبيه ، وعابوا على زياد بن أبيه تجريد خطبته التي خطبها أوّل دخوله البصرة واليا عليها من حمد الله والصلاة على نبيه ، وسموها : « البتراء » لذلك .

ثم يفيض الخطيب في موضوعه ، ثم يختمها بقوله : « أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم » ، وربما أعاد بعد ذلك الحمد لله ، والصلاة على النبي ، والدعاء للخليفة في الجمع والمواسم .

وكان خلفاء بني أمية وولاتها إذا خطبوا أهل المدينة ، بعد إخماد ثورة قاموا بها ، أكثروا من عبارات السب والتهديد ، وتمثلوا بأبيات الشعر الشديدة الوقع على نفوسهم ، المدخلة الرعب على قلوبهم ، أو اقتبسوا الآيات القرآنية المنذرة بسوء مصير الباغين ، وكثيرا ما كان خطيبهم يتفاصح بالغريب من اللفظ ، إذا خطب أعرابا أو فصحاء ، لتهويل خطبه في نفوسهم ، وإكبار شخصه في أعينهم .

وبقُوا على عاداتهم في الخطابة من التَّزَيِّي بزي العرب ، والخطبة من قيام ، والاعتماد على قوس أو قائم سيف أو مخصرة ، وخطب الوليد بن عبد الملك جالسا فلم يستحسن منه ولا ممن حاكاه من بني أمة .

وفي الجملة أن الخطابة بلغت في هذا العصر قمة عظمتها ، وحق لها أن تبلغ هذه الغاية ، إذ كانت العربية لا تزال حافظة جدتها ، معتزة بمقاوليها من بني هاشم وبني أمية وفصحاء القواد ، من أمثال الحسين بني عليّ ، وحفيده زيد ، ومن مثل معاوية ، وعبد الملك ، وسليمان ابنه ،

وعمر بن عبد العزيز ، ومن أمثال الحجاج ، وقتيبة بن مسلم ، وخالد القسري ، والمهلب بن أبي صفرة من ولاتهم ، ومن أمثال عبد الله بن الزبير ، والمختار ، وابن الأشعث من الخارجين عليهم ، ومن أمثال عمران ابن حِطَّان ، وقَطَريّ بن الفُجاءة ، وأبي حمزة الإباضي من الخوارج ، ومن أمثال صعصعة بن صُوحان ، وسَحبان بن وائل من رؤساء القبائل ، ومن خطباء الأمصار ممن أدرك الدولتين الأموية والعباسية ، كخالد بن صفوان وعِقال بن شبّة .

* * *

# قَطَرِيُّ بن الفجاءة

هو أحد بني مازن بن عمرو بن تميم ، وكنيته في السلم أبو محمد وفي الحرب أبو نعامة ، وقَطَرِيُّ نسبة إلى بلده قطر ... كان من كبار قادة الخوارج وزعمائهم السياسيين المبرزين وبلغائهم النابهين ، وخطبائهم المصاقع ، وشعرائهم العماليق ، فهو أحد رؤساء الأزارقة ( أتباع نافع ابن الأزرق ) شهد قطري مع عبد الرحمن بن سمرة فتح سجستان سنة ثنتين وأربعين للهجرة ، ثم تحول من موالاته للأمويين إلى اعتناق مذهب الأزارقة ، الذين يرون مخالفتهم شركا ، ويوجبون لذلك قتال مخالفيهم ، وسبي نسائهم وذراريهم .

خرج قطري سنة تسع وستين للهجرة ، حين بايعه الأزارقة ، ولقبوه بأمير المؤمنين ، زمن مصعب بن الزبير ، لما ولي العراق نيابة عن أخيه عبد الله بن الزبير وكانت ولاية مصعب سنة ست وستين للهجرة ، فبقي قطري عشرين سنة يقاتل ، ويسلم عليه بالخلافة ، وكان الحجاج بن يوسف الثقفي ( بعد ابن الزبير ) يرسل إليه جيشا بعد جيش ، وهو يستظهر عليهم ، وانتهز الحجاج فرصة اختلاف الأزارقة ، وانحياز قطري بمن بقي معه إلى « طبرستان » فبعث إليه سفيان بن الأبرد الكلبي لحربه ، فكانت نهاية قطري ، حيث سقط قتيلا ، سنة ثمان وثمانين للهجرة على الأرجح [1] .

---

١ - راجع : البيان والتبيين للجاحظ ١ / ٣٤١ . والكامل للمبرد ٣ / ٢٩٧ . ووفيات الأعيان لابن خلكان ١ / ٥٤٤ ( في العقد الفريد ١ / ٨٣ « ما استحيا شجاع قط أن يفر من عبد الله بن خازم وقطري بن الفجاءة » .

**أدبــه :**

لا يخرج أدبه - شعره ونثره - عن دائرة أدب الخوارج ، الذى يعد بحق أصدق صورة أدبية لمذهب دينى سياسى .

فالخوارج لم تعكر صفو طبعهم نزعات الحضارة ، ولم تعزوهم الجرأة الصارمة ، ولم يواروا عقيدتهم الدينية بغلائل التقية ، ولم يعرفوا الهوادة ولا الدنية ، ومن ثم حظى أدبهم بأسباب القوة ، من قوة العقيدة ، وصدق الشعور ، وسلامة الطبع .

لقد فنيت عصبياتهم القبلية والجنسية فى عقيدتهم المذهبية .. وها وهو عمران بن حطان يقول :

فنحن بنو الإسلام والله ربنا

وأولى عباد الله بالله من شكر

وأخلصوا لعقيدتهم إلى الحد الذى يصوره الطِّرِمّاح بن حكيم فى قوله :

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له

إن لم أفز فوزة تنجى من النار

والنار لم ينج من روعاتها أحد

إلا المنيب بقلب المخلص الشارى

وقول البهلول بن بشر الشيبانى :

من كان يكره أن يلقى منيته

فالموت أشهى إلى قلبى من العسل

فـلا التـقـدم فى الهـيـجـاء يعـجلنى

ولا الحـــذار ينجـــينى من الأجل [(١)]

وقطرى شاعر خطيب ، شأنه فى ذلك شأن معظم زعماء الخوارج ، فأما شعره ، فيدور فى فلك الحماسة ، وجلال الشهادة ، والاستهانة بالموت ، كما فى مقطوعته الذائعة :

أقـول لهـا ، وقـد طارت شـعـاعـا

من الأبطال : ويحك لن تراعى [(*)]

فـإنك لو سـألت بقـاء يوم

على الأجل الذى لك لن تطاعى

فـصـبـرا فى مجـال الموت صـبـرا

فـمـا نيل الخلود بمسـتطاع !!

ولا ثوب البـقـاء بثـوب عـز

فـيطوى عن أخى الخنع اليـراع

سـبـيل الموت غـاية كل حى

فـداعـيـه لأهل الأرض داع

---

١ - راجع فى أدب الخوارج : « أدب الخوارج » د. سهير القلماوى . و « أدب السياسة فى العصر الأموى » د. أحمد الحوفى . و « تاريخ الشعر السياسى » للأستاذ أحمد الشايب . و « حماسة أبى تمام ، وشعر الخوارج » د. إحسان عباس . و « ظهر الإسلام » للأستاذ أحمد أمين . و « فى الشعر السياسى » لعباس الجرارى .

★ - كأنى بقطرىَ هنا ينظر إلى قول عمرو بن الإطنابة :

وقولى كلما جشأت وجاشت مكانك تحمَدى أو تستريحى

وإلى قول عمرو بن معد يكرب :

فجاشت إلىّ النفس أول مرّة فرُدّت على مكروهها فاستقرّت

ومن لا يُعْتَبَطْ يسْأمْ ويهوم

وتسلمه المنون إلى انقطاع (*)

وما للمرء خير في حياة

أذا ما عد من سقط المتاع !! [١]

وقد ترق نفس قطرى ، فيستهل قصيدته بالنسيب الهادف ، الذى يتخذه وسيلة فنية لأداء رأيه ، والتعبير عن فكرته ، وتصوير موقفه ، على غرار قصيدته التى قالها فى يوم ( دولاب ) بين الخوارج وأهل البصرة :

لعمرك إنى فى الحياة لزاهد

وفى العيش ما لم ألق أم حكيم

من الخفرات البيض لم ير مثلها

شقاء لذى بث ولا لسقيم ...

ولو شهدتنى يوم « دولاب » أبصرت

طعان فتى فى الحرب غير ذميم ...

فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا

تبيح من الكفار كل حريم

---

١ - شعر الخوارج ص ٤٢ ( يخاطب نفسه وقد هلعت هلعا شديدا ، وتبددت من الخوف ، ويحك : رحمة الله منصوبة بإضمار فعل . مجال الموت : ميدانه . الخنع : بسكون النون : اللين . وبضمها : الذل . اليراع : الجبان الرعديد . داعى الموت : سببه . داع : أعلت إعلال قاض . يعتبط : يموت شابا . تسلمه : تتركه للأمر . من سقط المتاع : رديئه .

★ - كأنى بقطرىَ هنا ينظر إلى قول لبيد بن ربيعة العامرىَ :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم     وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

رأت فتية باعوا الإله نفوسهم

بجنات عدن عنده ونعيم [١]

وقطرى فى ذا وذاك يصدر عن نفس أبية ، وشهامة عربية ، وشعره - كما هو واضح - قوى معبر ، متين السبك ، شديد الأسر .

وأما خطبه : فقوية قوة شعره ، تدور فى فلك الحث على التقوى والتزهيد فى الدنيا ، والترغيب فيما عند الله من نعيم ورضوان ، ومنها هذه الخطبة التى اخترنا بعض قطوفها للدراسة والتحليل .

---

١ - أم حكيم : امرأة من الخوارج قتلت فى المعركة بين يدى ابن الفجاءة . الخفرات : اللواتى يغلب عليهن الحياء . بث : حزن الكفار : يريد بهم المسلمين أعداء الخوارج ، ( حماسة أبى تمام ١ / ٤٩ طبعة بولاق ) .

## قطوف من خطبة قطرى (*)

حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه . ثم قال : أما بعد :

فإني أحذركم الدنيا فإنها حلوة خضرة ، حفت بالشهوات ، وراقت بالقليل ، وتحببت بالعاجلة ، وحليت بالآمال ، وتزينت بالغرور ، لا تدوم حبرتها ، ولا تؤمن فجعتها ، غرارة ضرارة ، خوانة غدارة ، حائلة زائلة ، نافدة بائدة ، أكالة غوالة ، بدلة نقالة ، لا تعدو إذا هي تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها ، والرضا عنها ، أن تكون كما قال الله : ﴿ كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) ﴾[1] « الكهف » .

مع أن أمراء لم يكن منها في حبرة إلا تعقبته بعدها عبرة ، ولم يلق من سرائها بطنا إلا منحته من ضرائها ظهرا ، ولم تطله غبية رخاء إلا هطلت عليه مزنة بلاء ، وحرى إذا أصحت له منتصرة أن تمسى له خاذلة متنكرة ، وإن جانب منها أعذوذب وأحلولى أمر عليه منها جانب وأوى ، وإن آتت أمراء من غضارتها ورفاهتها نعما أرهقته من نوائبها نقما ، ولم يمس امرؤ منها في جناح أمن إلا أصبح منها على قوادم خوف ، غرارة

---

★ - وردت الخطبة لقطرى في « البيان والتبيين » للجاحظ ٢ / ١٢٦ ، و « عيون الأخبار » لابن قتيبة ٢ / ٢٥٠ ، و « العقد الفريد » لابن عبد ربه ٤ / ١٤١ ، و « صبح الأعشى » للقلقشندى ١ / ٢٢٣ ، و « نهاية الأرب » للنويرى ٧ / ٢٥٠ .

١ المعنى في ضوء القاموس المعجمى :
خضرة : مبالغة في الخضرة ، وهي تعني الزينة والبريق . حفت أحدقت . راقت بالقليل : بهرت العيون على قلة متعها . تحببت بالعاجلة : أحبتها النفوس لكونها عاجلة لا آجلة . تزينت بالغُرور : لأنها تخدع بزينتها فهي غرور ( وغرور صيغة مبالغة ) . الحبرة بالفتح : السرور والنعمة وسعة العيش . حائلة : لا تدوم على حال فهي متغيرة . بدلة : على زنة « فعلة » أي كثيرة التبديل . الهشيم : اليابس المتكسر من النبات . تذروه : تعصف به ، تطيره .

غرور ما فيها ؛ فانية فإن من عليها ، لا خير فى شئ من زادها إلا التقوى [١] .

ومن أقل منها استكثر مما يؤمنه ، ومن استكثر مما يوبقه ويطيل حزنه ، ويبكى عينه ، كم واثق بها قد فجعته ، وذى طمأنينة إليها قد صرعته ، وذى اختيال فيها قد خدعته ، وكم من ذى أبهة فيها قد صيرته حقيرا ، وذى فجوة نخوة قد ردته ذليلا .

سلطانها دول وعيشها رنق ، وعذبها أجاج ، وحلوها صبر ، وغذاؤها سمام ، وأسبابها زمام ، وقطافها سلع ، حيها بعرض موت ، وصحيحها بعضر سقم ، ومنيعها بعرض اهتضام ، مليكها مسلوب ، وعزيزها مغلوب ، وسليمها منكوب ، وجامعها محزوب . مع أن وراء ذلك سكرات الموت ، وهول المطلع ، والوقوف بين يدى الحكيم العدل : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) ﴾ « النجم » .

فاحذروا ما حذركم الله ، وانتفعوا بمواعظه ، واعتصموا بحبله ، عصمنا الله وإياكم بطاعته [٢] .

---

١ - الحبرة : سبق معناها : العبرة : بفتح العين : الدمعة تترقرق فى العين : (أى الأحزان) . طل : أصابه الطل : وهو المطر الخفيف . والغبية : بفح الغين : الدفعة من المطر . هطل المطر : هطلا وهطلانا : تتابع متفرقا عظيم القطر . المزنة : السحابة الممطرة . اعذوذب : عذب . والعذب بفتح العين وسكون الذال : السائغ من الشراب ونحوه . أى صار فيه الوباء والوخم . الغضارة : السعة والخصب . القوادم : ريشات عشر كبار فى مقدم جناح الطائر ، والمفرد قادمة ، ويقابلها الخوافى : وهى ريشات تختفى إذا ضم الطائر جناحه .

٢ - يوبقه : يهلكه . كم : هنا خبرية وليست استفهامية ، وهى تعنى التكثير والتهويل . صرعته : أردته قتيلا . أبهة : عظمة وسلطان . نخوة : عزة وأنفة وكبرياء . رنق : كدر . صبر : بفتح فكسر عصارة شجر مر . سمام بكسر السين والضم لغة .

**المعنى الأدبى :**

يحذر ابن الفجاءة من هذه الدنيا الحافلة بالملذات والشهوات والصبوات ويدعو إلى عدم الاغترار بمباهجها الخلابة وأمانيها البراقة ، ذلك لأن نعيمها عرض زائل ، وسرورها لا محالة حائل ، وأنها إذا وقفت بالراغبين فيها على ما يصبون إليه فهى لا تعدو أن تكون كالزرع الأخضر البهيج ، وقد يبس وتكسر وتهشم ، ثم أدركته الريح فى يوم هائج عاصف ، فلم تبق منه بقية ولم تذر .ويقرر أن هذه الحياة الدنيا متقلبة ، لا تستقر على حال ، وأن دوام الحال فيها من المحال وأن الإنسان فيها بين سعادة وشقاء ورخاء وبلاء ، وحلاوة ومرارة ، ونعمة ونقمة ، وأمن وخوف ، وأن التقوى خير زاد يتبلغ به المرء إلى أخراه ؛ ما دام الفناء والزوال هو النهاية المحتوية .

ويدعو إلى التبصر والتدبر والاتعاظ ، والعمل ليوم الحساب ؛ قبل بلوغ الأجل ؛ فالإنسان لا يدرى متى يواتيه ، فينبغى عليه لذلك ألا ينخدع بزخارف الدنيا ، وأن يحذر غدرها ، وأن يعتصم بحبل الله الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، والذى لا يظلم نفسا شيئا ، وهو اللطيف الخبير .

**الخطبة فى ضوء الدراسة التحليلية :**

( أ ) حظيت خطبة قطرى بالوفاء بأجزاء الخطبة الثلاثة : المقدمة والعرض والخاتمة . وحفلت بركنى الخطبة الأساسيين وهما : إقناع المتلقى واستمالته .

---

= أسبابها : جمع سبب وهو الحبل . زمام : جمع زمة بالضم ، وهى قطعة بالية حتى أنه لا يركن إليها . والأولى : زمام قطافها وقطوفها مفردها قطف بكسر القاف وسكون الطاء : ما يقطف من الثمر . والعنقود ساعة يقطف . سلع بالتحريك : نبات مرسام . محزوب : مسلوب . المطلع : موضع الاطلاع من إشراف إلى انحدار ، يريد به الموقف يوم القيامة . أو ما يشرف عليه من أمر الآخرة عقيب الموت .

أما الإقناع فيبدو فى الخطبة جليا ، من خلال اتكاء ابن الفجاءة على الحجج والبراهين وتقرير الواقع الملموس ، ومن ذلك استشهاده المتكرر بآى الذكر الحكيم ، وضربه المثل بمن فجعتهم الدنيا وقد كانوا بها واثقين، ومن أدالتهم وحقرتهم كانوا إليها مطمئنين . . فالمتلقى إزاء الأدلة التى يسوقها الخطيب ، والواقع المشاهد لا يملك إلا أن يقتنع ويذعن ، فيحذر العاقبة .

وأما الاستمالة فتنهض على إيمان قطرى بفكرته ، ووسائله الفنية البادية فى هذه الجمل القصار ، التى يغلب عليها سلطان السجع ، وفى الجناس ، والمزاوجة ، والصور الفنية الفياضة بالشحنات العاطفية الملتهبة، ثم إن الخطبة بعد هذا وذاك تمثل خطيبنا إنسانا زاهدا فى الدنيا ومتاعها ، ورعا تقيا ، مؤملا ما عند الله ، فذلك هو الفوز .

( ب ) اعتمد ابن الفجاءة فى عرض فكرته وعاطفته على وسائل بيانية صائبة ، فقد خلع على الدنيا صفة الخضرة التى تبهر العين ، ومنحها الحلاوة لتكون بمذاقها مبث سرور ، فالدنيا إذن تروق أعين الناس ونفوسهم معا ، بيد أن سعادتها لا تدوم فليحذر من يخطف أبصارهم بريق الحياة الدنيا .

والعجب العجاب من جرى الناس حثيثا وراء الدنيا ، وتعلقهم بها ، على الرغم من تقلبها وتلونها ، وعدم استقرارها على حال .

وقطرى يلجأ إلى التكرار المعنوى - هو بمثابة الظاهرة فى الخطبة - ليثبت به هذه الفكرة ، ويقررها فى أذهان المتلقين ، فالمعنى الواحد يسوقه فى أكثر من عبارة مثل : « غرارة ضرارة ، خوانة غدارة ، حائلة زائلة ، نافدة بائدة » فالمعنى فى الجملتين الأوليين واحد ، وهو فى الأخريين واحد ،

ومثل : « لم يكن منها فى حبرة إلا أعقبته بعد عبرة ، ولم يلق من سرائها بطنا إلا منحته من ضرائها ظهرا » فالمعنى فى كلتا الجملتين واحد ، وإن اختلفت ألفاظ كلتيهما . . ومثل « وكم من ذى أبهة فيها قد صيرته حقيرا ، وذى نخوة قد ردته ذليلا » فالاختلاف فى الألفاظ لا فى المعنى .

(جـ) قلنا إن قطريا اعتمد فى عرض فكرته وعاطفته على الوسائل البيانية الصائبة ، من تشبيه واستعارة وكناية ، غير أن الاستعارة أكثرها استفاضة فى الخطبة ، وبخاصة الاستعارة المكنية ، مثل : « حليت بالآمال وتزينت بالغرور » حيث شبه الدنيا بالمرأة الحسناء ، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشئ من لوازمه ، وهو الحلى والزينة ؛ و « أكالة غوالة » وفى هذه وتلك تجسيم للمعنوى ، وإبرازه فى صورة حسية . . ومثل « كم واثق بها قد فجعته ؛ وذى طمأنينة إليها قد صرعته ؛ وذى اختيال فيها خدعته » ففى كل جملة استعارة مكنية ، حيث جعل الدنيا امرأة تفجع وتصرع وتخدم ، ثم حذف المشبه به ، وأبقى لازما يدل عليه ، وفى قوله : « يبكى عينه » كناية عن الحزن والأسى والتفجع ، وفيها تجسيم المعنوى ؛ وإيراد الفكرة مكرونة بدليلها .

ولو نبشت فى تضاعيف الخطبة لوجدت أن بعض عباراتها يعتورها أكثر من وسيلة فنية ؛ كعبارته هذه « لم يلق من سرائها بطنا إلا منحته من ضرائها ظهرا » ففيها الاستعارة حيث شبه السراء بما له بطن ، والضراء بما له ظهر ، هو أسلوب كناية عن نعيم الدنيا وبؤسها ( بعامة ) وكناية عن الأدبار فى « منحته من ضرائها ظهرا » بخاصة . . والأسلوب بعد ذلك أسلوب قصر ، طريقه النفى والاستثناء ، والقصر يؤكد المعنى ويقويه .

(د) تشيع في الخطبة ألوان بديعية رائعة ، كالسجع الذى وشى معظم عبارات الخطبة ، مثل : « غذاؤها سمام ، وأسبابها زمام . . » و « مليكها مسلوب وعزيزها مغلوب ، وسليمها منكوب ، وجامعها محزوب » .

والمزاوجة : وهى من ألوان الموسيقى الداخلية فى النص الأدبى ؛ ووسيلة من وسائل الإمتاع فى الخطبة ، ويتبدى هذا اللون عند قطرى فى قصر الجمل وتساويها ، كما فى قوله : « حفت بالشهوات ، وتحببت بالعاجلة ، وحليت بالآمال ، وتزينت بالغرور ، لا تدوم حبرتها ، ولا تؤمن فجعتها . . » وقوله : « سلطانها دول ، وعيشها رنق ، وعذبها أجاج، وحلوها صبر » .

والمقابلة : وهب مبثوثة فى تضاعيف الخطبة ، ومنها قوله : « لم يكن منها فى حبرة إلا أعقبته بعدها عبرة ، . . ولم تطله غبية رخاء إلا هطلت عليه مؤنة بلاء . . ولم يمس امرؤ منها فى جناح أمن إلا أصبح منها على قوادم خوف » .

والجناس وبخاصة الناقص . مثل : غرارة - غداوة ، وحبرة - عبرة ، ونعم - نقم ، وبينهما أيضا طباق ، كما هو فى حلاوة ومرارة ، وأمن وخوف .

(هـ) وقطرى قبل كل هذا متأثر بالقرآن الكريم ، يقتبس من آياته ويعشو إلى ضوء معانيه ، ألا تراه قد دعم حججه بآية من سورة البقرة وأخرى من سورة النجم ؟ ثم ألا تراه قد أخذ قوله : « فانية فان من عليها » من قول المولى عز وجل فى سورة الرحمن : « كل من عليها فان » وأنه قد أخذ قوله : « لا خير فى شئ من زادها إلا التقوى » من

قول الله عز سناؤه فى سورة البقرة : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » ؟!

كلمة لابد منها : إن الإلحاح على المعنى والمزاوجة والسجع سمات وجدت عند قطرى بن الفجاءة ولم يكن ابن المقفع أبا عذرتها ، ولم يكن الجاحظ – الذى تأصلت فى أدبه هذه السمات الأسلوبة الفنية وزادت – مبتكرا هذا الاتجاه الأسلوبى فى بعض مناحيه ، وإنما كان مسبوقا إليه بأمثال ابن الفجاءة ، مدفوعا إليه فى ضوء اطلاعه وثقافته .

# الحجاج بن يوسف الثقفي

## وخطبته في الكوفة

هو أبو محمد الحجاج بن يوسف ، رجلُ ثقيف ، وأحد جبابرة العرب وساستها وقادتها وحكامها ، وموطد ملك بني أمية ، وأحد البلغاء والخطباء الماصق .

ولد في سنة إحدى وأربعين من الهجرة ، كان هو وأبوه يعلمان الصبيا بالطائف موطن ثقيف ، ثم لحق بروح بن زنباع الجُذامي أحد أعوان عبد الملك بن مروان ، فكان في شُرطته ، ثم صار رئيسها .

وأوّل ما اشتهر من أمر قيادته الجيش الذي وُجّه لقتال عبد الله بن الزبير ، فسار إليه وحاصره بمكة ، ثم قتله وأزال ملكه ، فولاه عبد الملك العراق ، وكان كله نارا ملتهبة ، بفتنة الشيعة والخوارج ، فاستعمل من الشدة والقسوة وسفك الدماء وإرهاب الأمة ما لم يسمع بمثله ، وجدد الملك لبني أمية ، وكان عاقبة أمره أمرين عظيمين : أولهما يمدح عليه ، وهو جمع أشتات المسلمين تحت راية واحدة هي راية الخليفة العربي الأموي ، وثانيهما يذم به ، وهو إذلال الأمة العربية إذلالا لم تعتده منذ خلقت بما قتل من نخوتها ، وسلب من حريتها ، وأخرس من ألسنتها ، فدخلت بعده في طور خضوع وامتثال للحكام المستبدين ، أكمل بقيته نصراء الدولة العباسية من الأعاجم .

وخدم الحجاج بولاية العراقين عبد الملك بن مروان ، وابنه الوليد ، حتى كان ملكه ما بين الشام والصين ، ومات في سنة خمس وتسعين في مدينة ولاسط التي بناها بالعراق .

وكان الحجاج آية في البلاغة وفصاحة اللسان وقوة الحجة ، قال الأصمعي : أربعة لم يلحنوا في جدّ ولا هزل : الشعبي ، وعبد الملك بن مروان ، والحجاج بن يوسف ، وابن القرية ( أيوب بن يزيد ) ، والحجاج أفصحهم ، وقال ملك بن دينار : ما رأيت أحدا أبين من الحجاج ، إنه كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق ، وصفحه عنهم ، وإساءتهم إليه ، حتى إني لأحسبه صادقا ، وأظنهم كاذبين .

## الخطبة :

حدّث عبد الملك بن عُمَير الليثي قال :

بينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة ، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة ، يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مَوَاليه ، إذ أتى آت ، فقال : هذا الحجاج قد قَدِم أميراً على العراق ، فإذا هو قد دخل المسجد مُعْتَمّاً بعمامة قد غَطّى بها أكثر وجهه ، متقلداً سيفاً ، مُتَنكباً [1] قوساً ، يؤمّ المنبر ، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر ، فمكث ساعة لا يتكلم ، فقال الناس بعضهم لبعض : قَبَّحَ الله بني أمية ، حيث تستعمل مثل هذا على العراق ، حتى قال عمير بن صابئ البُرْجمي : ألا أحصبه [2] لكم ؟ فقالوا : أمْهِل حتى ننظر [3] ، فلما رأى عيونَ الناس إليه ، حَسَرَ اللثام عنفيه ونهض فقال :

---

( ١ ) أي ألقاها على منكبه .

( ٢ ) حصبه : رماه بالحصى .

( ٣ ) قال ابن نباته : فلما سمعوا هذه الخطبة وكان بعضهم قد أخذ حصى أراد أن يحصبه به ، تساقط من أيديهم حزنا ورعبا .

أنا ابن جـلا وطـلاعُ الثنايـا      متى أضع العِمامة تعرفوني [١]

ثـم قال : يـا أهل الـكوفـة ، أما والله إنـي لأحمـل الشـر بحـملـه ، وأحذوه بنعله ، وأجـزيه بمثله [٢] ، وإني لأرى أبصـارا طامحة ، وأعـناقا متطاولة ، ورؤسا قد أينعت وحان قطافها ، وإني لصَاحبـها ، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللّحي تترَقرق ، ثم قال :

هذا أوان الشدّ [٣] فاشتَدّي زيمَ [٤]

قد لَفّها الليـلُ بسَـوّاق حطـم [٥]

ليـس براعـي إبـلٍ ولا غنـم

ولا بجزّار علـى ظهـر وَضَم [٦]

ثم قال :

قد لفّهـا الليـل بِعَصْلبيّ [٧] أروع [٨] خرّاجٍ من الدّويّ [٩]

مهاجـرٍ [١٠] ليـس بأعرابـيّ

---

( ١ ) ابن جلا : أي الواضـح الجلي . وهذا البيت لسحيم بن وثيل الرياحي - أحد بني رياح بن يربوع - ، وهو من شواهد سيبويه ( ٢/ ٧ ) ، وقد تمثل به الحجاج .

( ٢ ) هذه جمل مترادفة معناها أنه يجزي الشر بالشر .

( ٣ ) الشدّ : العَدْو .

( ٤ ) اسم فرس .

( ٥ ) الراعي الظالم للماشية .

( ٦ ) ما يقطع عليه اللحم .

( ٧ ) الشديد .

( ٨ ) الذكي .

( ٩ ) الفلاة الواسعة ، أي يخلص من كل داهية شديدة .

(١٠) مهاجـر أي يخرج من البـدو إلى المدن ، والأعرابيّ سـاذج ليـس في تجربتـه كأهل المدن .

ثم قال :

قد شمّرت عن ساقها فشدوا
وجَدَّت [١] الحربُ بكم فجدّدوا
والقوس فيها وتر عُرُدّ [٢]
مثل ذراع البكر [٣] أو أشدّ
لا بدّ مما ليس منه بُدّ

إني والله يا أهل العراق ، ومعدنَ الشقاق والنفاق ، ومساوئ الأخلاق ، ما يقعقع لي بالشنان [٤] ، ولا يغمز جانبي كتغماز التين [٥] ، ولقد فررت [٦] عن ذكاء ، وفُتّشت عن تجربة ، وجربت إلى الغاية القصوى ، وإن أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاؤه ـ نثر كنَانَته [٧] بين يديه ، فَعَجَمَ [٨] عِيدانها ، فوجدني أمرَّها عوداً ، وأصلبَها مَكْسرا ، فرماكم بي ؛ لأنكم طالما أوضعتم [٩] في الفتن ، واضطجعتم في مراقد الضلال ، وسننتم سُنَن الغيّ ، أما والله لألحونكم لحو [١٠] العصا ، ولأضربنكم

---

( ١ ) جد به الأمر أي اشتد .

( ٢ ) شديد .

( ٣ ) القوي من الإبل .

( ٤ ) القعقعة : تحريك الشيء الصلب مع صوت . والشنان : القربة البالية وهم يحركونها إذا أرادوا حث الإبل على السير . مثل يضرب لمن لا يردعه ما لا حقيقة له ، وقد تمثل به معاوية من قبل .

( ٥ ) التين : معروف ، والمعنى : لست ضعيفاً .

( ٦ ) امتحنت واختبرت .

( ٧ ) الكنانة : جعبة السهام .

( ٨ ) عجم العود : عضه ليعرف صلابته أو لينه .

( ٩ ) أسرعتم .

(١٠) لحا العصا : قشرها .

ضرب غرائب الإبل [1] ، فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

**النقد :**

١ ـ بدأ الحجاج هذه الخطبة ببيت من الشعر مستشهداً به يقصد الفخر بنفسه والتعريف بشخصه ، وهذا البيت مناسب للمقام ولموضوع الخطبة .

٢ ـ ثم خاطب أهل الكوفة مهدّدا العاصين ، وموعداً الثائرين بجمل فيها سجع غير متكلف ، وفيها أسلوب بياني « ورؤساً قد أينعت وحان قطافها » .

٣ ـ ثم استشهد بأبيات أخرى تلمح فيها قوة الألفاظ وقسوة التعبير ، وفيها ألفاظ لغوية غريبة تفتقر في فهم معناها إلى الكشف في المعجمات .

٤ ـ ثم انتقل إلى وصف أهل العراق وصفاً قاسياً شديداً .

٥ ـ أخذ يفخر بنفسه متمثلا بمثل عربي قديم « ما يقعقع لي بالشنان » .

٦ ـ وفي مقام الفخر صوّر نفسه تصويراً خيالياً بليغاً ، فجعل للخليفة كنانة فيها السهام « يريد بها الولاة والحكام » ، وأن الخليفة قد اختبر هذه السهام ، فوجد الحجاج أصلبها وأقواها ، يريد بذلك أنه أشد الولاة بأساً ، وأقواهم مراساً .

---

(١) غرائب الإبل : الغريبة عن أوطانها ، ويقسو عليها الضارب لأنها لا تهمه .

٧ ـ ثم أخذ ينذرهم ويوعدهم مستعملا في ذلك الأسلوب البياني « لألحونكم لحو العصا ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل » .

٨ ـ استشهد بآية قرآنية مناسبة للمقام ولموضوع الخطبة .

٩ ـ يغلب على هذه الخطبة الأسلوب البدوي الخشن ، فإن عليها مسحة بدوية في تشبيهاتها ، واستعاراتها ، وصورها الخيالية .

**صفات الحجاج من هذا النص :**

١ ـ ترى مما مَرّ بك أن الحجاج كان قويًا في خطابته ، وأن خطبه جعلت له مركزاً أدبياً ممتازاً ، حتى صار خطيب الدولة الأموية غير منازع .

٢ ـ كما ترى أنه بليغ ، وأن البلاغة تهيّأت له ، لأنه نشأ في قبيلة عربية عريقة ، ولأن أباه كان قاضياً أو كان معلما ، وسواء أكان هذا أم ذاك فإنه يلتزم الفصاحة والبيان فيحذو ابنه حذوه .

٣ ـ كما تلمح من كلام الحجاج أنه كان قاسياً شديداً ، فهذا يظهر في ألفاظه القاسية الشديدة التي تحمل معاني التهديد والوعيد .

٤ ـ كما تستنبط من كلامه سعة اطلاعه ، وعلمه باللغة وغريبها ، وحفظه للأشعار يستشهد بها في مواضع الاستشهاد ، ولأمثال العرب يستدل بها في مواطن الاستدلال ، ويحرص أحيانا على أن يفيض على كلامه البلاغة بالاقتباس من القرآن الكريم .

٥ ـ ثم انظر إلى دهاء الرجل ومكره حينما صعد المنبر ، فمكث طويلا لا يتكلم ولا ينطق ، حتى حسبه الناس عَيّا ، وهَمَّ بعض الحاضرين

أن يحصبه ، وقال الناس بعضهم لبعض : قبّح الله بني أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق ، ثم يقوم الرجل بغتة ، فيفاجئ الناس بهذا القول البليغ والبيان المتدفق ، فيبهرهم ويدفعهم إلى الإعجاب والدهشة ، لأنه يعلم ما لهذه المفاجأة من أثر شديد في النفس ، وهكذا تستطيع أن تحكم على أخلاق الحجاج وذكائه وفصاحته وقوّته من كلامه ، فإن الكلام كالمرآة تصف ما أمامها وصفاً دقيقاً ، وكذلك الكلام يصوّر المتكلم .

### مآثر الحجاج :

ولا نريد أن نصوّر الحجاج بصورة بغيضة كلها شر وشدة وقسوة ، فقد كان للرجل مع ذلك يدٌ على اللغة العربية وعلى العرب ، فمن ذلك :

١ ـ أنه نسخ عدة نسخ من مصحف سيدنا عثمان ، وبعث بها إلى المدن .

٢ ـ وبدّل لغة الدواوين ، فنقلها من الفارسية إلى العربية .

٣ ـ ورأى الكتابة العربية غامضة لخلوّها من النقط والشكل ، فأمرَ بوضع هذين في المصحف وغيره .

٤ ـ وزوّد اللغة العربية بخطب هي آية في الفصاحة والبيان ، وقد رفعت هذه الخطب مقامه الأدبي ، فجعلته أحد ثلاثة طبعوا الخطابة الإسلامية بطابع خاص ، أولهم علي بن أبي طالب ، وثانيهم : زياد بن أبي سفيان .

* * *

# الكتابة في ظلال الأمويين

كان أكثر قبائل مضر في الجاهلية أهل بدو أميين لا يكتبون ، فلما عني أهل القرى منهم كمكة بالتجارة ، ونقلها بين اليمن والشام والعراق اضطروا إلى تعلم الكتابة من أهل الأنبار ، وأول من تعلمها منهم : حرب ابن أمية القرشي جد معاوية بن أبي سفيان ، وجاء الإسلام وقد تعلمها طائفة من أهل مكة أسلم بعضهم وهاجر ، فتعلمها الأنصار منهم ، ومن أسرى بدر . وحض النبي ﷺ على تعلمها ، وكان له من المهاجرين والأنصار عدة كتاب ، ومنهم من كتب رسائله إلى الملوك والأقيال والعهود التي يكتبها لمن أسلم من القبائل ولمن صالحوه في حرب ، ومن هذا أطلقت الكتابة على معنى إنشاء الكتب والرسائل والعهود وكتابة الدواوين .

وأول ما ظهر الاضطرار إلى استخدام الكتابة في أعمال الخلافة كان في أيام عمر ، لكثرة الجيوش والفتوح والمغانم في زمنه ، فاتخذ ديوانا للجيش يدوّن فيه أسماء المقاتلة وأنسابهم وأعطياتهم ، فهو أول من دوّن الدواوين من الخلفاء ، ومن قوله في ذلك لعمال الديوان وكتابه : « إن القوة على العمل ألا تؤخروا عمل اليوم لغد ، فإنكم إذا فعلتم ذلك تذاءبت عليكم الأعمال ، فلا تدرون بأيها تبدءون وأيها تؤخرون » .

واتبع من بعده من الخلفاء سنته في اتخاذ الدواوين إلى أن كانت دولة بني أمية ، فزاد معاوية ديوان الخراج ، وديوان الخاتم ، وديوان الرسائل ، وكان يكتب له على الرسائل عبيد الله بن أوس الغساني ، ويكتب له على الخراج سرجون الرومي بالخط الرومي ، إلى أن نقلت

دواوين الخراج من الفارسية إلى العربية على يد صالح بن عبد الرحمن في أيام الحجاج ، ومن الرومية إلى العربية على يد سليمان بن سعد أيام عبد الملك ، ثم نقلت في مصر من القبطية إلى العربية زمن الوليد ، فأصبحت لغة الدواوين كلها عربية .

وكانت الرسائل تكتب قبلُ بلغة التفاهم لا يعمد فيها إلا إلى بيان الغرض المقصود منها بأوجز عبارة ، وكان أكثرها يمليه الخلفاء أو الولاة والقواد من إنشائهم على الكتاب لمكانهم من الفصاحة وقوة ملكة الارتجال فيهم ، فلما عهدوا بكتابتها إلى كتابهم من أبناء عرب الشام والعراق ومصر ومن الموالي من الفرس والروم والقبط المتعربين اتخذوها صناعة فتأنقوا في صوغ عبارتها وتخير ألفاظها ، وأقبلوا على تعلم الأدب وحفظ القرءان وأشعار العرب ، واقتبسوا منه ، وحلوا نظمه وأدخلوا في عبارة الكتابة كل ما استحسنوه من تشبيهات الشعر وضرب أمثاله وحكمه ، وترجموا إلى العربية كل ما أعجبهم من وجوه الأداء في اللغة الفارسية والرومية ، وتميز ذلك في عصر هشام على يد أبي العلاء سالم مولاه ، وكان يجيد العربية والرومية ، وعليه تخرج ختنه وتلميذه عبد الحميد بن يحيى ، فصارت على يديه صناعةً عتيدةً ، وفناً من الفنون الأنيقة ، تُدخِل جودتها على النفس سرورا وبهجة ، فهو أستاذ الأستاذين لهذه الصناعة بلا مراء .

وفي عهدي سالم وعبد الحميد ، تقلل الكتاب من استعمال الغريب والحوشيّ من الألفاظ في كتابة الرسائل ، وتجنبوا التعقيد وتباعد الأفكار ، فاشتدت الصلة بين كل جملة وما يليها ، فقل الاقتضاب ، والاعتراض بين أجزاء الكلام بأجنبي .

# من نماذج الرسائل في العصر الأموي

## ١. رسالة يحيى بن يعمر إلى الحجاج :

« إنّا لقينا العدو ، فمنحنا الله أكتافهم ، فقتلنا طائفة وأسرنا طائفة ، ولحقت طائفة برؤوس الجبال وعرائر الأودية وأهضام الغيطان ، وبتنا بِعُرْعُرَة الجبل ، وبات العدو بحضيضه » [1] .

### أهم خصائص هذه الرسالة :

أولاً : الإيجاز المفيد ، الذي ينم عن تركيز الفكرة والتخلص من النتوءات اللفظية ، فلا ترهُّل ولا تزيُّد .

ثانيا : التقسيم والتوازن بين العبارات مع الترادف الإيقاعي الناجم عن التعادل بين أطراف الفقرات .

ثالثا : التنظيم والتسلسل ، حيث تأخذ الجمل بعضها برقاب بعض من خلال توظيف حروف العطف حيث الفاء التي تدل على تعقيب والترتيب والواو التي تفيد الجمع بين التفاصيل .

رابعاً : حسن الوصف ، والدقة المتناهية في التصوير في مشهد حركي لقاء العدو ، ثم الانتصار فالقتل والأسر والفرار ، ثم اللجوء إلى معاقل أمنية .

خامسا : استخدام الألفاظ الغريبة كلون من ألوان التجديد والتمكين والإمساك بناصية اللغة .

---

( ١ ) منحنا الله أكتافهم : انتصرنا عليهم . عرائر الأودية : أسافلها . أهضام الغيطان : مداخلها . عرعرة الجبل : أعلاه .

## ٢ ـ بين عدي بن أرطاة وعمر بن عبد العزيز:

كان عدي بن أرطـأة والياً على البـصرة ، ونمى إليه أن بعـض عماله قد لجئوا إلى اقـتطاع شيء من مال الله عز وجل ، ضموه إلـى أموالهم في غير حق .

وأدرك أن استعادة هذا المال من أيديهم لا يتأتى إلا بالشدة والقهر ، وبدا له أن يـستأذن في ذلـك أمير المؤمنـين عمر بن عـبد العزيـز ، قبل أن يسلُك معهم هذا المسلك .

وفيما يلي كتابه إلى الخليفة ، ورد الخليفة عليه :

### النص

(١)

من عدي بن أرطأة ، إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، أما بعد .. أصلح الله أمير المؤمنين ، فإن قِبَلي أناساً من العـمال قد اقتطعوا من مال الله عز وجـل مالا عظيـماً ، لست أرجـو استخـراجه من أيديـهم ، إلا أن أمسَّهم بشيء من العذاب ، فإن رأي أمـير المؤمنين ـ أصلحه الله ـ أن يأذن لي في ذلك أفعلْ ، والسلام .

(٢)

فأجابه عمر بن عبد العزيز :

أما بعد .. فالعجب كلُّ العَجَب من استئذانك إياي في عذاب بشر كأني لي جُنَّةٌ[١] من عذاب الله ، وكأن رضاي عنك ينجيك من سخط الله

---

(١) جنة : الجنة : ما يستتر به من وقاية في الحرب .

عزَّ وجل ، فانـظر من قامت عليه بـينةٌ عُدل (١) ، فخذه بما قامتْ عليه به البينـة ، ومن أقرَّ لك بشيء ، فـخذه بما أقرَّ به ، ومن أنـكر فاستحلـفه بالله العظـيم ، وخَلِّ سبيـلَه ، وأيم الله (٢) لأن يَلقَـوا الله عزَّ وجل بخيانـاتهم ، أحبُّ إلي من أن ألقي الله بدمائهم والسلام .

**في دائرة النقد :**

١ ـ هاتان الرسالتان مـن الكتابة الديوانية التي وضَحَـت معالمها في العصر الأموي .

٢ ـ وقد ظهر هـذا اللون من الكتابـة حين ثقلت أعباء الـدولة على الخلفاء ، ورأوا أن يُسْنـدوا الكتابة في تعريف شئون الدولـة إلى طبقة من الكتاب المحترفين الذين عرَفوا أصول هذه الكـتابة ، وتناقلها بعضهم عن بعض ، وكان عمر بن الخطاب أول من دوَّن الدواوين في الإسلام .

٣ ـ وفي عهد الوليد مالت الكتابة نحـو التجويد والتفخيم والتفرقة بين خطاب الخليفـة وخطاب غيره ، فلما استخلف عمـر بن عبد العزيز ، حَمَله الورَع على الـرجوع بالكتابة إلى ما كانت علـيه من الاعتدال وعدم المبالغة .

٤ ـ وفي هاتـين الرسالتين تـلمس ما تـتميز به الـكتابة حيـنذاك من الإيجاز ، والقـصد إلى الفكرة مـن أقرب طريق ، والتعـبير عنها فـي غير تأنُّق أو تكـلف ، كما تَلْمِـس سهولة اللفـظ ووضوح المعنى ، والبـعد عن الغريب ، وعن المبالغة في التفخيم .

---

( ١ ) بينة عدول : شهود عدول .

( ٢ ) وايم الله : قسم به سبحانه وتعالى ، وهي من أيمن : جمع يمين .

٥ ـ كما تحس فيه التأثر بالقرآن الكريم والحديث النبوي في قوله : « أن أمسهم بشيء من العذاب » ، فهو متأثر بقوله تعالى : ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ﴾ ، وكما في قوله : « كأني لك جُنّة » ، فهو من قوله عليه السلام : « الصوم جنة » ، وكما في قوله : « فانظر من قامت عليه بينة عدول » ، فهو من قوله عليه السلام : « البيِّنة على من ادَّعى ، واليمين على من أنكر » .

## ٣ . رسالة وعظية للحسن البصري *

## إلى عمر بن عبد العزيز الإمام العادل :

اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قِوامَ كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف ، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله الرفيق الذي يرتاد لها أطيب المراعي ، ويذودها عن مراتع المهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقرّ ، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده ، وهو القائم بين الله وبين عباده يسمعُ كلام الله ويسمعهم ، وينظر إلى الله ويريهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملَّكك الله كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرّد العيال ، فأفقر أهله ، وفرّق ماله ، واعلم يا أمير المؤمنين

---

* هو الحسن بن أبي الحسن البصري ، وكنيته أبو سعيد ، وُلد في سنة إحدى وعشرين من الهجرة ، وتوفي في سنة مائة وعشر ، وهو من العلماء العاملين ، والفقهاء الخطباء ، ومن الزهّاد الأتقياء ، كان له مجلس يقصّ فيه ، ويفقّه الناس ويعظهم ، وهو أول من تكلم في مسائل علم التوحيد ، وتلميذه واصل بن عطاء رأس المعتزلة .

أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ، وإن الله أنزل القصاص حياةً لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتصّ لهم ؟! ، واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده ، وأنصارك عليه ، فتزوّد له ولما بعده من الفزع الأكبر ، واعلم أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك أحباؤك ، يسلمونك في قعره فريداً وحيداً ، فتزود له ما يصحبك يوم يفرُّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، فالآن أمير المؤمنين وأنت في مهل قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل ، لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمةً ، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك [1] .

**التعليق والتحليل :**

انتشرت المواعظ في العصر الأموي بعد أن بدأت الحياة تأسن ( تفسد ) ، إذ توفرت أسباب الترف والنعيم ، واللهو البريء وغير البريء ، والخطابة ترتبط بالمواعظ ارتبطاً وثيقاً ، غير أن الموعظة قد تكون فردية وليست جماعية كالخطابة ، والنص السالف الذكر يمثل هذا النمط من المواعظ الذي اختص فيه الأئمة والدعاةُ ولاة الأمر ، وقد كان بعض خلفاء بني أمية يصطفون لهم نخبة من الوعاظ يذكّرونهم بالآخرة ، وقد كان عمر بن عبد العزيز ﷺ يستمع إلى الوعاظ ، ويصطفي من بينهم من يقوم بهذه المهمة ، وكان الحسن البصري من هؤلاء الوعّاظ المصطفين وقد ذاع صيته ، وعرف بالورع والتقوى والعلم .

---

( ١ ) العقد الفريد لابن عبد ربه ١/ ٣٤ ، ونهاية الأرب للنويري ٦/ ٣٧ .

ومما يميز هذه الموعظة في أسلوبها أنها موجهة لفرد بعينه وهو أمير المؤمنين ، لذا يكثر فيها النداء بالاسم ، والحسنُ هنا يسلك سبيل الأدب في النصح .

ومن ثمَّ تأتي دلالة ندائه ابن عبد العزيز بقوله : « يا أمير المؤمنين » ودلالة تكرار هذا النداء بصورته هذه ، فهذا النداء وتكراره يدلان على أدب الحسن ، وحكمتع الوعظية ، واعترافه بإمارة عمر ، وحدبه عليه .

وقد بسط فيها مهمة الإمام العادل ، فوصفه بأنه الذي يعدّل كل منحرف ، ويوقف الجور والظلم ، ويصلح الفساد ، ويقوي الضعيف ، ويحمي الخائف ، ويشبهه بالراعي ، وهذا التشبيه مستقى من حديث الرسول ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .. » ، وهو لا يقف عند هذا التشبيه ، بل يستقصي صفات الراعي الذي يختار لإبله الأماكن الطيبة العشب ، ويبعدها عن المراعي المهلكة ، ويحفظها من الجوارح ، ويحرص عليها من حر الصيف وبرد الشتاء ، ويشبهه بالقلب الذي يصلح السم بصلاحه ، وهذا أيضا مستقى من حديث الرسول ﷺ : « إن في الجسم مضغة ... إلخ » ، ثم يبدأ بعد ذلك بتوجيه نصائحه ، ناهياً عن خصال مثلها في صور وتشبيهات ، إذ نهى أمير المؤمنين أن يكون كعبد استأمنه سيده فخانه وبدد ماله وشرّد عياله ، ثم بدأ يعلل بعض الأحكام ويشرحها ، فتحدث عن الحكمة من الحدود والقصاص ، ثم تساءَل بإنكار عن الحكم الذي أنيط به تنفيذ أحكام الحدود والقصاص ، ثم أتى بما يخالف الحكمة منها ، وكرر هذا التساؤل ، ثم بدأ يأمر بعد النهي ، فتحدث إلى عمر ﷺ عن الموت ، وضرورة ذكره في كل حين ، وما يكتنفه من قلة الأشياع والأنصار ، ثم

طلب منه أن يتخذ العدة ليوم القيامة ، وأن يتذكر وحدته في القبر ، ويستلهم القرآن الكريم مستشهداً به ، ثم يعود إلى النهي عن حكم الجاهلين ، وتسلط الاستكبار والمستكبرين الذين لا يرعون عهدا ولا ذمة ، فإنه إذا استعملهم على الضعفاء يتحمل وزرهم ( ذنوبهم ) مع ( ذنوبه ) .

مما سبق يتبين لنا ما يلي :

**أولا** : أن الحسن البصري قد سلك منهجاً مدروساً في وعظه ، فبدأ بـ :

- إرساء الأسس التي يقوم عليها عدل الإمام .

- تحدث عن مهمة الحاكم وصفاته .

- النهي عن الظلم والجور في صور تمثيلية .

د - بيان علل الأحكام وتوضيح أن الإمام أولى بفهم الحكمة منها واجتنابها .

- ثم بدأ بالوعظ من خلال الأمر والنهي مع بيان السبب .

**ثانيا** : من الظواهر الأسلوبية البارزة التي اتضحت في هذا النص : التمثيل ، والتصوير ، الاستفهام والإنكار ، الاستقصاء وتتبع التفاصيل والإلحاح عليها ، التضمين والاستشهاد بالقرآن الكريم بالنص تارة وبالمعنى تارة أخرى .

ثالثا : عمد الحسن البصري إلى الإقناع والتأثير ، أما الإقناع فمن خلال منهج المنطق والتعليل ، والمقدمات التي تسبق النتائج ، أما التأثير

فعبر التصوير والتبصير بالعواقب والتذكير ، واللجوء إلى توظيف التشبيه والتمثيل وما إلى ذلك .

رابعا : لم يغفل الكاتب عن شحن النص بالإيقاع عبر الجمل القصيرة وحسن التقسيم ، وتوالي الصيغ النحوية المتماثلة .

* * *

# دعـوه الـى التذوق
# علـى موائـــد
# الرقيـات والكندى وزيـاد وأبى حمزة

## عبيد الله بن قيس الرقيات (١)

يأسى لانقسام قريش ، ويذم الأمويين وأهل الشام ، وينعى عليهم عدوانهم على الكعبة المكرمة ، ويمدح مصعب بن الزبير ، فيقول من قصيدة له :

أيها المشتهى فناء قريش * بيد الله عمرها والفناء
ان تودع من البلاد قريش * لا يكن بعدهم لحى بقاء
لو تقفى وتترك الناس كانوا * غنم الذئب غاب عنها الرعاء (٢)
هل ترى من مخلد غير أن الـ * له يبقى وتذهب الاشياء
يأمل الناس فى غد رغب الدهـ * ـر ألا فى غد يكون القضاء (٣)

---

(١) عبيد الله بن قيس الرقيات شاعر قرشى ولد بمكة ، ثم انتقل فى أول شبابه الى المدينة وظل بها زمنا ، ثم رحل الى الجزيرة والعراق او حينما خرج عبد الله بن الزبير على الأمويين انضم عبيد الله اليه وحارب فى جيش مصعب . وحرض على القتال واشتد فى شعره على بنى امية . ولما قتل مصعب وهزم الزبيريون استشفع لدى عبد الملك ابن مروان حتى عفا عنه ، ثم سافر الى مصر ومدح عبد العزيز بن مروان ، واكتسب لديه حظوة عظيمة واكثر شعره فى المدح والسياسة وسمى بابن قيس الرقيات لانه تغزل فى ثلاث نساء اسم كل منهن رقية .

(٢) تقفى ــ بضم أوله ــ تدبر وتولى وتذهب ، وأصله أن المدبر يولى الناس قفله . والرعاء : جمع راع . (٣) رغب الدهر : رغائبه .

عين فابكي على قريش وهل يـر * جع ما فات ــ ان بكيت ــ البكاء
لو بكت هذه السماء على قـو * م كرام بكت علينا السمـاء
معشر حتفهم سيوف بنى العا * لات يخشون أن يضيع اللـواء (١)
ترك الراس كالثغامة مـنى * نكبات تسرى بها الانبـاء (٢)
مثل وقع القدوم حل بنا فالـ * ناس مما اصابنا اخـلاء
ليس لله حرمة مثل بيـت * نحن حجابه عليه الملاء (٣)
خصه اللـه بالكرامة قالبـا * دون والعاكفون فيـه سواء
حرقته رجال لخم وعـك * وجذام وحمير وصـداء (٤)
فبنيناه بعدما حرقـوه * فاستوى السمك واستقل البناء (٥)

---

(١) الحتف : الهلاك والموت . والعلات : جمع علة ــ بالفتح فيهما ــ وهى الضرة . وبنو العلات ابناء الرجل الواحد من امهات شتى ، والمراد هنا الاقارب مطلقا . واللواء : السيادة والملك .

(٢) الثغامة ــ كالنعامة ــ شجرة بيضاء الزهر ، والمراد : أن هذه النكبات قد أشابت رأسه من شدة هولها .

(٣) الملاء : جمع ملاءة ــ بضم الاول فيهما ــ وهى الثوب اللين من قطعة واحدة . والمراد : الستر .

(٤) لخم ــ بفتح فسكون ــ وجذام ــ بضم أوله ــ ، وحمير ــ بكسر فسكون وصداء ــ بضم الاول ــ قبائل وأحياء يمنية . وعك ــ بفتح أوله ــ نزارية .

(٥) استوى : استقام . والسمك : السقف . واستقل : ارتفع .

انما مصعب شهاب من اللـ * ـه تجلت عن وجهه الظلماء (١)

ملكه ملك قوة ليس فيـه * جبروت ولا به كبريـاء (٢)

يتقي الله في الامور وقد أفـ * لح من كان همه الاتقـاء

كيف نومي على الفراش ولما * تشمل الشام غارة شعـواء (٣)

تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي * عن براها العقيلة العـذراء (٤)

أنا عنكم بني أمية مـزور * روأنتم في نفسي الاعـداء

ان قتلى بالطف قد اوجعتني * كان منكم لئن قتلتم شفـاء (٥)

---

(١) الشهاب : الكوكب . وتجلت : زالت وانكشفت .

(٢) الجبروت : القسر والطغيان . (٣) شعواء : شديدة منتشرة .

(٤) تذهل : تشغل وتنسى . والبرى : جمع برة ــ بضم الاول فيهما وهي الخلخال ، وتطلق كذلك على القرط والسوار . والعقيلة : الكريمة المخدرة . والعذراء : البكر .

ومعنى البيت أنه يتمنى غارة شديدة الهول والفزع على أهل الشام تذهل الاب عن بنيه ، وينخلع لها قلب العذراء فتنسى حياءها وحشمتها وتخرج الى الناس سافرة كاشفة عن مواضع زينتها .

(٥) الطف : موضع قرب الكوفة دارت فيه معركة بين مصعب بن الزبير وجيش عبد الملك بن مروان . وانتهت بقتل مصعب وكثير من رجاله .

## المقنع الكندى (١)

يذكر كرمه وعزة نفسه وبره بقومه واحتمال أذاهم فيقول :

يعاتبنى فى الدين قومى وانما
ديونى فى أشياء تكسبهم حمدا
الم ير قومى كيف أوسر مرة
وأعسر حتى تبلغ العسرة الجهدا
فما زادنى الاقتار منهم تقربا
ولا زادنى فضل الغنى عنهم بعدا (٢)

---

(١) هو محمد بن ظفر بن عمير الكندى ، شاعر أموى مقل مجيد ، وكان جوادا كريما وسيدا شريفا ، يضيع ماله فى المحامد وقرى الاضياف ولقب بالمقنع لانه كان يلبس القناع دائما ، ويزعم الرواة أنه كان يفعل ذلك خشية الحسد اذ كان جميل الوجه ، واذا سفر أصابته العين ، ونزل به المرض ، والظاهر أنه كان يتقنع على عادة الروءساء والاشراف لذلك العهد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكاد يرى الا مقنعا .

وقد عرف عن المقنع أنه كان كريم الخلق لين العريكة حكيما مجربا ، وشعره يفيض بالحض على التسامح والبذل والسمو الخلقى وقصيدته هذه تشبه ميمية معن بن أوس التى أولها :

عفا وخلا ممن عهدت به خم وشاقك بالمسحاء من سرف رسم

والتى منها قوله :

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه بحلمى عنه وهو ليس له حلم

(٢) الاقتار : الفقر والحاجة .

أسد به ما قد أخلوا وضيعوا
ثغور حقوق ما أطاقوا لها سدا [(١)]

ولي جفنة ما يغلق الباب دونها
مكللة لحما مدفقة ثردا [(٢)]

ولي فرس نهد عتيق جعلته
حجابا لبيتي ثم أخدمته عبدا [(٣)]

وان الذي بيني وبين بني أبي
وبين بني عمي المختلف جدا

أراهم الى نصري بطاء وان هم
دعوني الى نصر أتيتهم شدا [(٤)]

فان يأكلوا لحمي وفرت لحومهم
وان يهدموا مجدي بنيت لهم مجدا

وان ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم
وان هم هووا غيي هويت لهم رشدا

---

(١) الثغور : جمع ثغر ، ومن معانيه الثلمة ، والعورة ، والنقص والخلل . وثغور الحقوق : ما نقص منها واخل بها .

(٢) مكللة : ممتلئة . ومدفقة : مصبوب فيها . والثرد : الخبز المفتت .

(٣) النهد : الفرس المشرف الجسيم الكامل الخلق . والعتيق : الكريم .

(٤) أتيتهم شدا : بسرعة وقوة .

وان زجروا طيرا بنحس تمر بي
زجرت لهم طيرا تمر بهم سعدا
ولا احمل الحقد القديم عليهم
وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
لهم جل مالى ان تتابع لى غنى
وان قل مالى لم اكلفهم رفدا [1]
وانى لعبد الضيف ما دام نازلا
وما شيمة لى غيرها تشبه العبدا [2]

***

(١) جل المال : معظمه · والرفد : العطاء والصلة ·
(٢) الشيمة : الخليقة ·

## من خطبة زياد بالبصرة [١]

اما بعد ، فان الجهالة [٢] الجهلاء والضلالة العمياء [٣]، والغى الموفى بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم [٤] ، ويشتمل عليه حلماؤكم [٥] من الامور العظام ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كانكم لم تقرأوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما اعد الله من الثواب الكريم لاهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدى [٦] الذى لا يزول . أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا [٧] ، وسدت مسامعه الشهوات [٨] ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون انكم احدثتم فى الاسلام الحدث الذى لم تسبقوا اليه : من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله .

. . .

---

(١) هو زياد بن أبى سفيان ، نشأ فى الاسلام ذكى القلب حاد اللسان داهية خطيبا . وقد تقلد عدة مناصب فى الدولة منها ولايته للبصرة لمعاوية حيث خطب هذه الخطبة التى تجدها بأكملها فى الجزء الثانى من
توفى زياد سنة ٥٥٣ .

(٢) الجهلاء : الشديدة كقولهم : ليلة ليلاء للتوكيد .

(٣) الشديدة : لاهداية معها .

(٤) السفيه : سيء الخلق عديم الحلم .

(٥) الحليم : ضد السفيه . (٦) السرمدى : الدائم .

(٧) أى جعلته لا يبصر شيئا ، فلا يعنى الا بها .

(٨) أى أنه صار أسير شهواته يسمع لها فقط .

انى رأيت آخر هذا الامر [١] لا يصلح الا بما صلح به أوله ، لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف ، وانى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى [٢] ، والمقيم بالظاعن [٣] ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى ، والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : انج سعد ، فقد هلك سعيد [٤] ، أو تستقيم قناتكم [٥]

أيها الناس ، انا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم قادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم فىء [٦] الله الذى خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا ، واعلموا أنى مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقا بليل ، ولا حابسا عطاء ولا رزقا عن ابانه [٧] ، ولا مجمرا [٨] لكم بعثا . فادعوا الله بالصلاح لائمتكم ، فانهم ساستكم المؤدبون لكم

---

(١) يريد بالأمر : الحكومة الاسلامية .
(٢) أى أعاقب السيد بجريرة خادمه .
(٣) الظاعن : المسافر .
(٤) مثل يضرب فى تابع الشر .
(٥) القناة : الرمح أو عوده مشبه به .
(٦) الفىء : الخراج والغنيمة ، والفىء : الظل يستعار للسلطان ، خولنا : ملكنا .
(٧) ابان الشىء : أوانه .
(٨) تجمير الجند أو البعث : ابقاؤهم فى عملهم وحبسهم فى أرض العدو

وكهفكم الذى اليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا ٠ ولا تشربوا قلوبكم
بغضهم ، فيشتد لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا لــه
حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرا [1] لكم ، اســأل
الله أن يعين كلا على كل ٠

***

(١) أى لو نالهم شر لا تجدون مثلهم ٠

## خطبة أبى حمزة الشارى الخارجى *
## بمكة

صعد المنبر متوكئا على قوس عربية ، فخطب خطبة طويلة ثم قال :

" يا أهل مكة . تعيروننى بأصحابى . تزعمون أنهم شباب . وهل كان أصحاب رسول الله الا شبابا ؟ شباب والله مكتهلون (١) فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء (٢) عبادة ، وأطلاح (٣) سهر ، فنظر الله اليهم فى جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا اليها ، واذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة

---

* هو : يحيى بن المختار بن عوف الأزدى ، خرج على مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين ، وانتصر على جيوش مروان فى موقعة (قديد) التى دخل على اثرها المدينة المنورة ، ومكث فيها ثلاثة أشهر ، أحسن فيها السيرة ، وتنقل باليمن والحجاز والشام حتى قتلته جيوش مروان فى "وادى القرى" سنة ١٣٠ هـ كان ابو حمزة ناسكا واعظا بليغا ، يدعو الى الدين ومعصية الامويين .. وأسلوبه جزل رصين مؤثر .
الخطبة كاملة فى " البيان والتبيين " للجاحظ ٢/١٢٢ـ١٢٥

(١) أى كالكهول حزما وصلاحا .

(٢) الانضاء : جمع نضو : الهزيل المتعب ، والمراد أن العبادة : هزلتهم وأجهدتهم .

(٣) الأطلاح : جمع طلح : متعب .

كأن زفير جهنم بين أذنيه · موصول كلالهم بكلالهم [١] كلال الليل بكلال النهار ، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، واستقلوا ذلك في جنب الله ، حتى اذا رأوا السهام قد فوقت [٢] والرماح قد أشرعت [٣] ، والسيوف قد انتضيت [٤] ، ورعدت الكتيبة [٥] بصواعق الموت ، وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ومضى الشاب منهم قدما [٦] حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت اليه سباع الأرض ، وانحطت اليه طير السماء ، فكم من عين في منقار طير بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله ·

***

عزيزي المتلقي ! ·· من دعى لبى ، ومن ذاق تذوق ، فاسبر أقطار ذوقك الفني ، وحسك الأدبي ، بالتنقيب عن جواهر هذه الفرائد ودررها ، وهي ما أكثرها ! بيد أنها تغوص حينا وتطفو حينا فخض اللجة ، واستخرج الحجة ، وخذ مما قدمنا لك المنهاج والدليل ، والمصباح حين الادلاج ، والدوحة حين المقيل ·

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل

د / شفيق أبو سعدة

---

(١) الكلال : الاعياء والتعب ·
(٢) فوقت السهام : ركبت في الأقواس للرمى ·
(٣) أشرعت الرماح : سددت وصوبت ·
(٤) انتضيت السيوف : استلت · (٥) الكتيبة : القطعة من الجيش ·
(٦) قدما : الى الأمام تواء والمراد أنه أقدم على الحرب جريئا ·

## أهم المصادر والمراجع

١ ـ أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى تحقيق : أحمد المراغى المكتبة التجارية بمصر ١٩٧٢م

٢ ـ الأسس النفسية للابداع الفنى فى الشعر خاصة : د ٠ مصطفى سويف ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة ١٩٦٩ م ٠

٣ ـ الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى ٠ تحقيق : على محمد البجاوى ٠ دار نهضة مصر للطباعة والنشر ٠

٤ ـ الاغانى للأصفهانى ( طبعة دار الشعب بتحقيق ابراهيم الانبارى مطبعة دار الكتب ) ٠

٥ ـ أمالى المرتضى للشريف المرتضى تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم طبعة الحلبى ١٣٧٣ هـ ٠

٦ ـ البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون الطبعة الرابعة نشر مكتبة الخانجى بالقاهرة ٠

٧ ـ تاريخ الشعر السياسى الى منتصف القرن الثانى للاستاذ أحمد الشايب طبعة بيروت ( الخامسة ) ١٩٧٦م ٠

٨ ـ التطور والتجديد فى الشعر الأموى ٠ د ٠ شوقى ضيف الطبعة الرابعة دار المعارف بمصر ١٩٥٩م ـ٠

٩ ـ التفسير النفسى للأدب : د ٠ عز الدين اسماعيل ٠ دار المعارف بمصر ١٩٦٣م ٠

١٠ـ التيارات المعاصرة فى النقد الأدبى ٠ د ٠ بدوى طبانة ٠ مكتبة الانجلو ٠

١١ـ حديث الأربعاء . د . طه حسين . دار المعارف بمصر ١٩٢٥م
١٢ـ خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي . نشر المطبعة السلفية ومكتبتها بالقاهرة ١٣٤٧ ـ ١٣٤٨ هـ .
١٣ـ دراسات في علم النفس الأدبي :د . حامد عبد القادر، مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٤٩م .
١٤ـ ديوان جرير : شرح محمد بن حبيب تحقيق د . نعمان محمد أمين طه . دار المعارف بمصر .
١٥ـ ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات : طبعة بيروت ١٩٥٨م .
١٦ـ شعر الخوارج : جمع وتحقيق : د . احسان عباس . طبعة بيروت .
١٧ـ الشعر والشعراء . لابن قتيبة طبعة ليدى مطبعة بريل ١٩٠٢م
١٨ـ شياطين الشعراء : د . عبد الرزاق حميدة ، الانجلوالمصرية ١٩٥٦م .
١٩ـ طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين لابن سلام الجمحي طبعة صبيح مصر .
٢٠ـ العصر الاسلامي . د . شوقي ضيف . دار المعارف بمصر الطبعة الخامسة ١٩٦٣م .
٢١ـ العقد الفريد لابن عبد ربه الاندلسي . المطبعة الشرقية ـ القاهرة ١٣٠٤ هـ
٢٢ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه : لابن رشيق . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد الطبعة الثانية . مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٥م .

٢٣- فى الشعر السياسى لعباس الجرارى . طبعة المغرب (الثانية) ١٩٨٥م .

٢٤- قضايا النقد الأدبى بين القديم والحديث . د . محمد زكى العشماوى . دار النهضة العربية . بيروت ١٩٧٩م .

٢٥- الكامل فى اللغة والأدب . للمبرد . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم دار نهضة مصر للطبع والنشر .

٢٦- معجم الشعراء للمرزبانى طبعة القدسى ١٣٥٤ هـ .

٢٧- من عيون الأدب : د . محمد كامل الفقى ، دار الطباعة المحمدية (الثانية) ١٩٧٣م .

٢٨- من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده : د . محمد خلف أحمد . الطبعة الثانية ١٩٧٠م .

٢٩- موسيقى الشعر : د . ابراهيم أنيس ، الانجلو المصرية (الثالثة) ١٩٦٥م .

٣٠- وفيات الأعيان لابن خلكان ، تحقيق : د . احسان عباس ، طبعة بيروت ١٩٧٧م .

***

# الفهرس

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |